قراءات ودراسات عن :

# مصر والمصريين

عبد الحميد الكاتب

كتاب اليوم



منتجات
جولدستار العالمية
للسادة تجار
الأجهزة الكهربائية
ولأول مرة في جمهورية مصر
GOLD STAR
GS
كبرى الشركات العالمية المتخصصة في الالكترونيات
تليفزيونات ١٢ و ١٤ و ١٧ و ٢٠ بوصة
راديوهات ٢ موجة
راديو ٢ موجة مزود
بموقت وساعة كوارتز
بأسعار تتحدى كل الأسعار
مركز خدمة مجهز
١٤٥ ش شبرا ت ٩٤٢٤٠٥
IRRADIO
VOLUME
FM — AM
TUNING
الوكيل الوحيد الشركة المصرية للأجهزة الكهربائية
١٥٩ شارع شبرا - تليفون ٩٤٢٤٠٥

قراءات ودراسات عن:

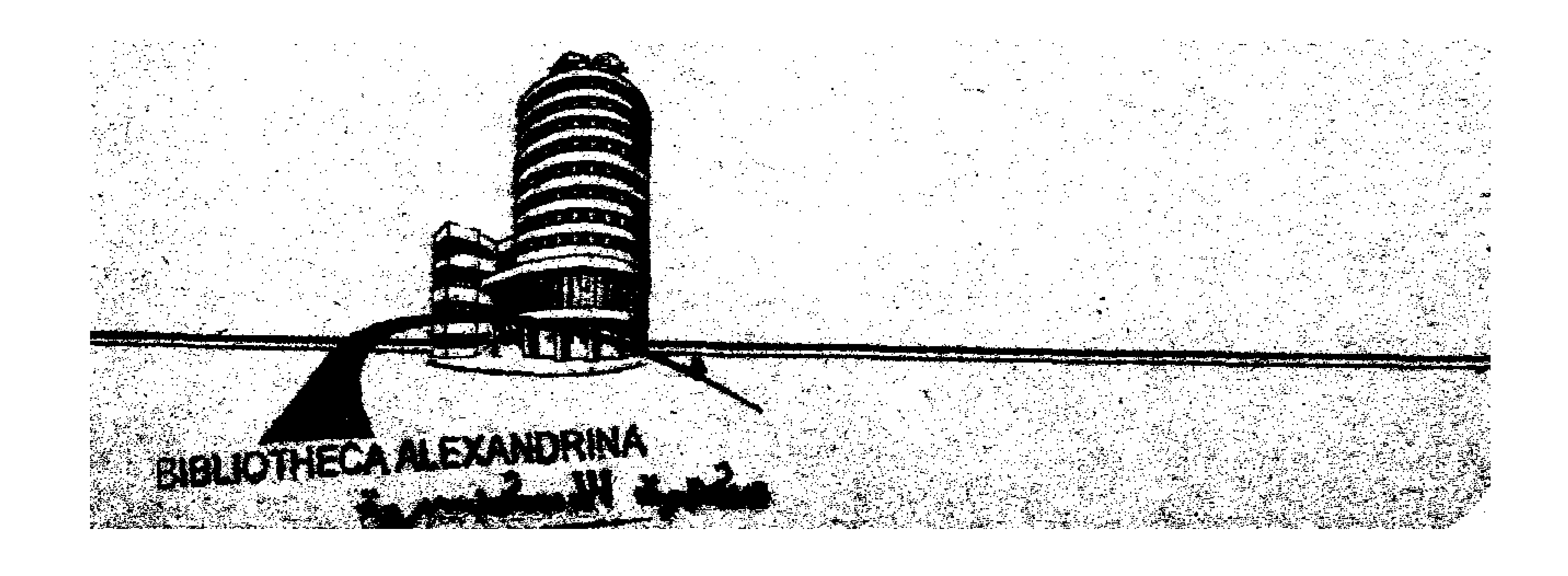
# مصر والمصريين

عبد الحميد الكاتب

# قراءات ودراسات عن:

# مصر والمصريين

الكرم



الغلاف

بريشة الفنان

الاستاذ حسين بيكار



# تقدمة الكتاب

ما أكثر ما كتب عن مصر وأهل مصر قديما وحديثا ..

وما أكثر ما كتب مدحا وثناء ، وما كتب ذما ونقدا ..

وما كتبه المصريون المحدثون ليس بقليل ، واكثر منه ما كتبه المؤرخون والرحالة العرب في العصور الوسطى ، وأكثر من هذا كله بكثير ما كتبه الاوربيون من المؤرخين والمستشرقين ، ومن السياسيين ، ومن الشعراء ، ومن مؤلفي القصص والروايات .

وهذه الكتابات ، وما يتخللها من دراسات ، تثير رغبة الانسان وتفكيره في بعض الحالات ، او بعض المراحل .

فكل شعب من الشعوب يمر بمرحلة تدفعه الى البحث عن نفسه ، والى البحث عن طبيعته وشخصيته .. وهو يبحث عن هذا فى صفحات الماضى وتاريخه احيانا ، ويبحث عنه أحيانا أخرى فى صفحة الحاضر وواقعه وحقائقه .

واعتقد ، أو أحس احساسا عميقا ، بأننا نمر بهذه المرحلة منذ سنوات وسنوات .. منذ تقلبنا بين الامال العريضة والوقائع القاسية ، وبين الحياة الهادئة الرتيبة ، والحياة القلقة الصاخبة .

ولهذا فقد اخذنا ، نحن المصريين ، نتكلم عن انفسنا كثيرا .. واخذنا نمدح أنفسنا احيانا ، وننقد أنفسنا غالبا .. وفيما أعتقد فانه لا باس بهذا وذاك ، مادام الاعتزاز بالنفس لا يبلغ درجة الزهو والغرور ، ومادام نقد الذات لا يصل الى حد الياس والابتئاس .

ولعل مما يساعدنا على أن نتفهم جانبا من الحقيقة ، اى جانب الحقيقة فى الطبيعة المصرية ، والشخصية المصرية ، ان نقرأ شيئا مما كتب عنا سواء كان ما كتب ثناء أو نقدا .

وقد دفعتنى مشاعر وعوامل مختلفة فى الفترة الاخيرة الى قراءة الكثير مما كتب عنا ، وفى استعادة ما كنت قراته فى الماضى عن مصر والمصريين ، ورأيت ان استخلص من هذا صفحات اقدمها فى هذا الكتاب ..

● عبد الحميد الكاتب ●

# فضائل مصر

## كتاب جديد تقرؤه من جديد

أبدأ بتقديم صفحات من كتاب « فضائل مصر » .. وضعه « عمر بن محمد بن يوسف الكندى » وقد قام بتحقيق هـذا الكتاب وتصحيح مخطوطته واستكمال ما سقط من الفاظها عالمان محققان هما الاستاذ ابراهيم أحمد العدوى عميد كلية دار العلوم سابقا والاستاذ على محمـــد عمر بمركز تحقيق التراث بدار الكتب .

وقد وضع هذا الكتاب فى أواخر القرن الرابع الهجرى .. وفى نفس الوقت الذى كان المتنبى ينشىء قصائد من الشعر سبا وهجاء فى أهل مصر ..

والذين علقت بأذهانهم وبألسنتهم قولة المتنبى « يا امة ضحكت من جهلها الامم » من واجبهم أن يقرأوا صفحات من كتاب ابن الكندى « فضائل مصر » .

« فضل الله مصر على سائر البلدان . كما فضل بعض الناس على بعض ، والايام والليالى بعضها على بعض » .

« والفضل على حزبين ، فى دين أو دنيا ، أو فيهما جميعا » .

« وقد فضل الله مصر ، وشهد لها فى كتابه ، وذكرها باسمها ، وخصها دون غيرها ، وكرر ذكرها ، وأبان فضلها فى آيات من القرآن العظيم » .

« يشهد بذلك القرآن ، وكفى به شهيدا » .

●●●

ويفصل ابن الكندى هذا ، فيذكر آيات القرآن الكريم التى ذكر فيها الله سبحانه وتعالى اسم مصر :

« وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة » .

وما ذكره الله عز وجل حكاية عن قول يوسف « ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين » .

وقال عز وجل « أهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم » .

وقال تعالى : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية ، وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين » .

وهذه « الربوة » فى قول بعض المفسرين والعلماء هى قرية « البهنسا » وقبط مصر – كما يقول ابن الكندى – مجمعون على أن المسيح عيسى ابن مريم وأمه عليهما السلام كانا بالبهنسا وانتقلا عنها الى القدس .

أما « المدينة » التى ورد ذكرها فى سورة « القصص » : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى » فهى مدينة « منف » . وما ذكره الله عز وجل فى حكاية عن يوسف عليه السلام عن « المدينة » وعن

« البدو » : « وقد أحسن بى اذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو » فيقول ابن الكندى نقلا عن مفسرى القرآن الكريم أن المدينة هى « منف » ، وان البدو هم « الشام » .

وهناك ثلاثون آية أخرى فى القرآن الكريم تذكر مصر أو تتحدث عنها وقال تعالى حين وصف مصر وما كان فيه آل فرعون من النعمة والملك بما لم يصف به مشرقا ولا مغـــربا . ولا سهلا ولا جبلا ، ولا برا ولا بحرا . فجاء فى الذكر الحكيم :

« كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين » .

ويتساءل الكندى : فهل يعلم أن بلدا من البلدان فى جميع أقطار الارض أثنى عليه الكتاب بمثل هذا الثناء ، أو وصفه بمثل هــــذا الوصف ، أو شهد له بالكرم غير مصر ؟

●●●

أوصيكم خيرا بمصر ..

وينتقل الكندى فى كتابه بعد هذا الى أحاديث الرسول عليــه الصلاة والسلام فيرويهـــا . ونقتبس منها حديثا رواه عمـــر بن الخطاب وقد فتح المسلمون مصر فى عهده :

« اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفـا ، فذلك الجند خير أجناد الارض » .

وكان أبو بكر حاضرا فقال : ولمذلك يارسول الله ؟ فقال : « لانهم فى رباط الى يوم القيامة » .

ويذكر الكندى أحاديث شريفة يوصى بها النبى عليه الصـــلاة والسلام المسلمين الفاتحين خيرا بأهل مصر . فقـــد روى أبو ذر الغفارى أن الرسول قد قال :

« ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيرا ، فان لهم ذمة ورحما » .

أما الرحم ، فان هاجر زوج ابراهيم . وأم اسماعيل أبى العرب مصرية من قرية كان يقال لها أم العرب وهى قرية فى شمال مصر على بعد ثلاثة كيلو مترات من الساحل الشـــمالى وتعرف اليوم آثارها « بتل الفرما » .. ألا يحسن أن تسمى باسمها القديم : أم العرب ؟

أما الذمة ، فلأن النبى صلى الله عليه وســــلم تزوج من القبط السيدة « مريم » . ويسميها الكندى « مارية » . وهى أم ابراهيم الابن الوحيد للرسول الكريم . وكانت مريم من قرية بقيت منها أطلال تقع بمركز ملوى ، بمحافظة المنيا .

فالعرب ، والمسلمون كافة ، لهم صلة ونسب بمصر من جهة هاجر أم اسماعيل ، ومن جهة مريم زوجة الرسول ٠

●●●

ويمضي الكندي في الحديث عن مصر من هذا الجانب المرتبط بالرسل والانبياء ، فيقول ان اسم « مصر » هو اسم حفيـــد نوح عليه السلام ٠٠ ويسند هذا الى أن عبد الله بن عباس قال : دعا نوح عليه السلام ربه ، لولده وولد ولده : مصر ابن حام ابن نوح ٠٠ فقال داعيا الله : اللهم بارك فيه وفي ذريته وأسكنه الارض المباركة التي هي أمن البلاد ، وغوث العباد ، ونهرها أفضل أنهار الدنيا، واجعل فيها أفضل البركات ، وسخر له ولولده الارض ، وذللها لهم ، وقوهم عليها ٠

أما نبي الاسلام ، عليه الصلاة والسلام ، فقد كتب الى جماعة من الملوك منهم هرقل الروم ، وكسرى الفرس ، فما أجـابه احد منهم ٠ وكتب الى المقوقس صاحب مصر فأجـابه عن كتابه جوابا جميلا ، وأهدى الى الرسول عليه الصلاة والسلام طبيبا ، وعسلا، فقبل الهدية البسيطة من العسل ، ورد الطبيب قائلا : « نحن قوم لا نأكل الا اذا جعنا ، واذا أكلنا لا نشبع » ٠

ومن كان يتبع الحمية في الطعام فلا حاجة به الى الطبيب ٠

●●●

ووزراء مصر أيضا ذكرهم الله عز وجل في القرآن الكريم وأثنى عليهم ٠٠ لانهم كانوا ينصحون فرعون ، على عكس وزراء ( نمرود ) الذين كانوا يحرضونه على البغي والقتل ٠

شاور ( نمرود ) وزراءه في أمر ابراهيم عليه السلام ٠ فقال عز وجل حكاية عنهم : « قالوا حرقوه وانصروا آلهتـــكم ان كنتم فاعلين » ٠

أما وزراء فرعون ٠٠ فيقول تعالى حكاية عن فرعون وقصته مع موسى : « قال للملأ من حوله ان هذا لســـاحر عليم ٠ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فماذا تأمرون ٠ قالوا أرجه وأخاه ، وابعث في المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحار عليم » ٠

ويتساءل الكندي : فهل في الدنيا وزراء ملك أرجح عقلا وأحسن محضرا منهم ؟

واستمع فرعون الى نصيحة وزرائه وجاء بالسحرة فرأوا آيات موسى « فألقي السحرة ساجدين ٠ قالوا آمنا برب العالمين ٠ رب موسى وهارون » ٠

وفي آية أخرى ذكر هؤلاء الوزراء والنصحاء وأثنى عليهم ، اذ قالوا لفرعون « فاقض ما أنت قاض انما تقضي هذه الحياة الدنيا »

وأجمعت الرواه ، كما يقول الكندى ، على أنه ما من جماعة أسلمت لله فى ساعة واحدة أكثر مما أسلم من المصريين فى تلك المواجهة بين فرعون وموسى ·

●●●

ونمضي مع ابن الكندي في كتابهفضائل مصر وهو يذكر من أنجبته مصر من الحكماء ، ومن الفقهاء ، ومن العلماء ·

فأما من الحكماء فانه يذكر رجلا جاء من « أرمنت » اسمه نيروز « وكان رجلا من أهل العلم . فنظر فى علمه ، فاذا به يخرج من صلبه رجل يخرب مصر » ·

« فقضت حكمته ألا يتزوج مصرية » ·

وخرج الى الشام ، ثم الى العراق ، ثم أقام بفارس · وكان لحاكم القرية ابنة بها مس من الجنون ·وكان نيروز قد تعلم شيئا من الطب في مصر ، فوصف دواء لعلاجها · وخطبها من أبيها ، فجاءت منه بولد اسمه « بختنصر » وهو الذى جرى على يديه الخراب كما شاع بين الناس فى ذلك العصر القديم ·

ان نيروز الحكيم جنب مصر هذا البلاء ، فتركها وذهب بعيدا الى أرض يعيث فيها فسادا أيام بختنصر ! وقد امتد واستشرى فساده ولحق بمصر وأهلها فى عهده ظلم وخراب كبير !

ثم جاء الى مصر « حكيم » آخر هو « ذو القرنين » · والكندى يقول انه هو « الاسكندر » الذى بنى الاسكندرية · وان الاسكندرية هى « أرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد » ·

ومضى الاسكندر فى فتوحه ببلاد الخزر ، وبنى مدينة سمرقند، وفعل بأهل فارس الافاعيل العجيبة ، غضبا لما فعل بختنصر بمصر، فقتل دارا كسرى فارس · ثم كتب الى أستاذه أرسطاطاليس يشاوره في قتل من بقى منهم ،فكتب اليه معلمه الحكيم : « لاتفعل. ولكن ول كل رئيس منهم ناحية من بلاده ، فانهم يتنافسون فى الرياسة ، ولا يجمعهم ملك أبدا » · ففعل · وسرعان ما تخاصموا وتحاربوا وظل أهل فارس فى صراع وقتال أربعمائة سنة · حتى قام اردشير فأخضعهم جميعا بحد السيف وأعاد وحدة البلاد ·

●●●

يعدد ابن الكندى فى كتابه ذكر كثير منفلاسفة الاغريق وعلمائهم ومخترعيهم الذين أقاموا بالاسكندرية ، ووضعوا الكتب فى الفلك والطبيعة ، ورسموا الخرائط الجغرافية ، واخترعوا كثيرا من الادوات والآلات ، ويقول بعد أن ذكر أكثر من عشرين اسما : فكل

هؤلاء سكنوا مصر في العصور الخالية والايام السالفة ، فما غيرت ذهن واحد منهم ولا أضرت بعقله .

●●●

## مائة صحابي مصري !

ويمضي الكندى بعد هذا الى عصر الاسلام ومن جاء الى مصر من صحابة الرسول . فيقول انه دخل مصر في فتحيها أكثر من مائة صحابي . وانه وقف على اقامة قبلة المسجد الجامع ثمانون رجلا من أصحاب رسول الله . منهم عمرو بن العاص ، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأبو هريرة، وأبو ذر الغفارى . وقد أقام بعضهم في مصر بعد الفتح فترة من الزمن .

وقد ولد بمصر اثنان من أكبر خلفاء المسلمين :

عمر بن عبد العزيز .

وجعفر المتوكل على الله .

أما من زارها من خلفاء المسلمين فكثيرون . أولهم معاوية . ومنهم مروان بن الحكم ، وعبد الملك بن مروان ، والسفاح ، والمنصور ، والمأمون .

## خزائن مصر وكنوزها ..

ويفرد الكندى فصلا في كتابه عنوانه « ذكر مصر وفضلها على غيرها من الامصار » . ويقول في هذا الفصل ان الله تعالى يقول على لسان يوسف عليه السلام « اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم » .

ولم تكن تلك الخزائن سوى خزائن مصر ، ولكن لغناها ووفرة ما فيها فقد سماها « خزائن الارض » . أو خزائن العالم .

ويرجع غنى مصر وثراؤها الى أنها معتدلة الجو ، خصبة التربة، سخية بزرعها ، وغنية بما في باطن الارض .

فالارض ، في نظر الكندى وفيما ينقله عن « الجغرافيين القدماء » مقسمة الى سبعة أقاليم . الاقليمان الاول والثاني شديدا الحرارة . والاقاليم الخامس والسادس والسابع شديدة البرودة . أما مصر ففي الاقليمين الثالث والرابع وهما منطقة معتدلة « ولهذا طاب هواؤها ، ونقى جوها ، وخف حرها وبردها ، وسلم أهلها من مشاتي الجبال ، ومصائف عمان ، وصواعق تهامة ، ودماميل الجزيرة » وجرب اليمن وطواعين الشام ، وغيلان العراق ، وعقارب عسكر مكرم ( التى عرفت باسم خوزستان ) . فكثر خصبها ، ورغد عيشها ، ورخص سعرها » .

●●●

ونقل عن سعيد بن هلال ، أبو العلاء المصرى ، أن مصر مصورة فى كتب الاوائل . وفي هذه الصورة نرى سائر البلاد وهي تمد يديها الى مصر .. تستطعمها وتتلمس خيراتها .

ثم يقول : « واجمع أهل المعرفة على أن أهل الدنيا مضطرون الى مصر يسافرون اليها .. ويطلبون الرزق بها . وأهلها لا يطلبون الرزق من غيرها . ولا يسافرون الى بلد سواها . وحتى لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا ، لغنى أهلها بما فيها عن سائر بلاد الدنيا » .

● ● ●

ونمضى فى قراءة صفحات أخرى من كتاب « فضائل مصر »

نقرأ عما بهر العرب وأعجبهم وأدهشهم مما رأوا فى مصر ، ولم يروا مثله فيما فتحوا من بلاد يحكمها كسرى وقيصر فى الشام والعراق وفارس . ونقرأ عن الفتح العربى لمصر فيذكر أن عمرو بن العاص جاء الى مصر قبل الاسلام مرة أو عدة مرات سائحا أو تاجرا ، وأعجب بها أعجابا شديدا ، لا بالقياس الى بلاد العرب التى جاء منها فحسب ، بل بالقياس أيضا الى الشام والعراق وكان قد طوف بهما فى رحلات التجارة .

وأعجبته فى تلك الرحلة الاولى مدينة الاسكندرية ، وذهب ذات مرة الى ملعبها الرياضى الكبير .. وهو الملعب الذى شهد أعظم الاحتفالات ، وشهد أيضا أقصى المآسى .. ففيه كان الرومان يقيمون احتفالاتهم القومية ومبارياتهم والعابهم الرياضية ، وفيه كذلك أعمل الرومان خناجرهم وسهامهم وسباعهم تنهش فيمن اعتنق المسيحية من المصريين .

ذهب عمرو الى الملعب الكبير ، وكانوا يلعبون بكرة من الذهب لعبة طريفة ، فيتقاذفون الكرة فمن دخلت فى كمه تنبأوا له بأنه سيحكم مصر ! .. وتلقف عمرو الكرة فدخلت في كم ردائه ،ودهش الناس وسخروا وقالوا : ما كذبتنا الكرة الا هذه المرة ! .. كيف يحكم مصر هذا العربي البدوى الذى جاء الى مصر سائحا أو تاجرا ؟

هكذا تقول القصة .. أو الاسطورة .

وعاد عمرو بن العاص الى بلاده مبهورا بمصر وما رأى فيها .. ثم جاء الاسلام ، ثم جاءت فتوح الاسلام ، ولم تكن مصر من البلاد التى فكر المسلمون فى فتحها فى صدر الاسلام .. وكان عمر بن الخطاب يرى أن تقتصر الفتوح الاسلامية الاولى على البلاد التى ينتمى أهلها الى أصول وجذور عربية ؛ وهى الشام والعراق ، وعندما تقوم هذه الدولة الاسلامية العربية فان دعوة الاسلام سوف تنتشر فى آفاق الارض ، عربية وغير عربية .

على أن عمرو الذى كان قد أحب مصر واحب اهلها كان يرى أن دين الاسلام الذى آمن به أولى أن يكون دين أهل مصر الذين كانت روما تفرض عليهم ديانتها وطقوسها الوثنية . وكان المصريون قد ضاقوا بهذه الوثنية وطغيانها ، فالايمان بعظمة الله وقدرته طبيعة متأصلة فى قلوبهم ، وقد فطروا على التدين والتمسك بشعائر ما يدينون به ..وهم لايرون فى وثنية الرومان ما يتفق مع طبيعتهم المؤمنة بقوة خالقة مصرفة للامور .. ولهذا أقبل المصريون ، أفرادا وجموعا ، وهم تحت حكم الرومان وبطشهم ، على اعتناق المسيحية رغم مافى هذا من خطر وبلاء عظيم .

ولابد أن عمرو قد سمع فى أثناء رحلته الاولى عن الصراع بين المصريين الذين اعتنقوا المسيحية وبين الحكم الرومانى وأشياعه فى مصر .. أى عن الصراع بين دين أنزله الله يأمر بالعدل والتقوى والخير بين الناس ، وبين وثنية يأخذ بها الحكام الرومان ويفرضون بها على الناس حكم هرقل وغيره من الاباطرة الطغاة .. ولابد أنه سمع أن جماعات وجماعات من عامة المصريين ، وخاصة من فقرائهم ومستضعفيهم ، قد اعتنقوا هذا الدين الجديد ، سرا ثم جهرا ، ولقوا فى هذا ما لقوا من التنكيل والعذاب .. فسالت دماؤهم فى هذا الملعب الكبير فى الاسكندرية بينما الرومان ، وأشياعهم من المصريين ، يهللون وهم سكارى صاخبون .. وفر أفراد آخرون الى أطراف الصحارى ، واقاموا فيها الاديرة ، واعتصموا فيها متعبدين مترهبين ..

فلما فتح الله قلب عمرو بن العاص لدين الاسلام تحركت فيه عاطفة قديمة من حب أولئك الناس الذين آثروا على وثنية حكامهم الرومان دينا أوحى به الله .. وتحدث الى عمر بن الخطاب فى هذا مرة ومرارا .. وكان خليفة المسلمين ينصت الى من يحدثه فى فتح مصر ويطيل التفكير .. وظل على هذا سنتين أو أكثر يستمع الى من يريدون فتح مصر ، دون أن يأذن لهم بأن يتقدموا كما أذن لمن تقدموا الى فتح الشام والعراق وفارس !

## جالية مصرية فى المدينة

ولعل من أسباب هذا التردد الطويل أن العرب كانوا لا يعرفون عن مصر الا قليلا ، رغم انه كانت هناك هجرة بين جزيرة العرب ووادى النيل منذ بداية التاريخ ،وكانت هذه الهجرة تتم عن أقصر طريق عبر البحر الاحمر ، بين يثرب فى الجزيرة والقصير فى مصر .. وفى حقبة تسبق ظهور الاسلام بكثير عبرت البحر قبائل عربية

وانتشرت في صعيد مصر ، كما هاجرت جالية من مصر واستقرت عند احدى الواحات ، وكانت هذه الجالية هي النواة التي نشأت حولها المدينة ٠٠ تلك المدينة التي خرج أهلها يستقبلون الرسول ، عليه الصلاة والسلام ،مهاجرا من مكةوينشدون : طلع البدر علينا ٠

ان جذور أهل المدينة الذين أستقبلوا الرسول وصاحبه ترجع الى أرض مصر ٠٠ فهل هذا سر ما عرف عن أهل المدينة ، قديما وحديثا ، من رقة ودماثة ؟

على أن العرب لم يعرفوا حينذاك عن مصر قدر ما كانوا يعرفون عما جاورهم من البلاد ، من الشام شمالا الى اليمن جنوبا ، حيث كانت قوافلهم ترحل الى هنا وهناك رحلة الشتاء والصيف ٠

فلما جاء الاسلام ، ونزل القرآن الكريم ، يذكر مصر بالاسم وحدها من دون بلادالله ،ويذكرها ويذكر أهلها في ثلاثين آية كريمة، أخذ العرب يتحدثون عن مصر كثيرا ، ويتجادلون في أمرها ، ويتطلعون أيضا الى تلك البلاد التي وصفت بأنها : خزائن الارض٠

وأخذ عمرو بن العاص وبعض الصحابة يتحدثون عن فتح مصر ٠٠ واخذ عثمان بن عفان وبعض الصحابة يعترضون على فتح مصر ٠٠ وبعد مراجعة وتردد وتفكر ، اذن عمر بن الخطاب بأن يتجه عمرو من الشام الى مصر ، وألا يصحبه من الجند الا من يتطوع لهذه المهمة ٠٠ فقد أرسل اليه الخليفة أمرا يقول : « اندب الناس الى السير معك الى مصر ، فمن خف معك ، فسر به » ٠٠ ولهذا كان جيشا قليل العدد ، قيل أنه ثلاثة الاف وخمسمائة رجل ، وقيل أنهم كانوا أربعة الاف رجل ٠٠ مهمتهم أن يفتحوا مصر التي كانت أهم جزء في الامبراطورية الرومانية !

## سيروا على بركة الله

أعد الجيش الاسلامي الصغير عدته ، وبدأ مسيرته من فلسطين، وتقدم حتى اقترب من رفح ٠٠ وهناك لحق به رجل يركض ومعه كتاب من الخليفة ٠٠ وكان عمرو بن العاص على أعظم قدر من الفطنة والذكاء ، فأدرك ما قد تحمله الرسالة العاجلة ، وقدر أنه أمر من الخليفة بأن يعدل عن مسيرته الى مصر ،ويعود الى حيث كان يحارب في الشام ٠ وكان تقديره صحيحا فقد كتب اليه أمير المؤمنين يقول : « أن أدركك كتابي قبل أن تدخل مصر فارجع الى موضعك، وان كنت قد دخلت فأمض لوجهك ، وأعلم أني ممدك »

لم يفض الرسالة حتى وصل الى رفح ، وسأل عمرو عن هذه القرية من أي أرض هي ؟ فقيل أنها من أرض مصر ، فنزلها وقرأ

الكتاب وقال لمن حوله : لم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر ، فسيروا على بركة الله وعونه ‥ وكانت كلماته هذه أول الفتح ‥

وتم الفتح بعد معارك دارت بين المسلمين الفاتحين وبين الرومان الحاكمين ‥ واتخذ المصريون الناقمون على الحكم الروماني موقفا محايدا ما استطاعوا الى هذا سبيلا ‥ ولهذا قال كثير من المؤرخين ان فتح مصر لم يكن غزوا بل كان صلحا ‥ وهو أمر على أى حال، اختلفت فيه الروايات ‥ ولكن لاخلاف فى أن الامر استقر سريعا، ومضى عمرو بن العاص ينظم ادارة البلاد معتمدا على أهل مصر من القبط ، ويجبى الضرائب والجزية ، وكانت الف الف دينار ‥ أى مليون دينار ‥ وقيل اثنى عشر مليون دينار ! وكان عدد سكان مصر ما بين ستة وثمانية ملايين نسمة ‥

وقد أخذت مصر ، وعلى الاخص مدينة الاسكندرية ، العرب القادمين بالعجب والانبهار ‥ حتى أن عمرا بن العاص أعجزته الدهشة فلم يستطع أن يعبر عن شعوره فى رسالة يكتبها الى أمير المؤمنين ‥ فبعث اليه برسول اسمه معاوية بن جدع يصف ما رأى وما شاهد .

وسار معاوية حتى بلغ المدينة فى الظهيرة ، فأناخ راحلته بباب المسجد ودخله وجلس قريبا من بابه . وخرجت جارية من دار عمر ابن الخطاب فرأته شاحبا عليه ثياب السفر ،وعرفتمنه انه رسول عمرو بن العاص ، فدخلت مسرعه الى الدار ثم رجعت اليه مسرعة وقالت : قم فأجب ،أمير المؤمنين يدعوك . ودخل معاوية الدار يتبعها، وسأله عمر : ما عندك ؟ فقال « خير يا أمير المؤمنين ، لقد فتح الله الاسكندرية » ‥

فخرج عمر من فوره الى المسجد ومعه معاوية وامر المؤذن أن يؤذن فى الناس أن الصلاة جامعة . فلما اجتمع الناس قال عمر لمعاوية : قم فأخبر أصحابك . فلما أخبرهم أن الله قد فتح الاسكندرية قام عمر فصلى لله شكرا ‥ ثم دخل منزله ‥ واستقبل القبلة ودعا بدعوات ‥

ثم أمر أمير المؤمنين الجارية فجاءت الرسول الذى حمل النبأ العظيم بطعام خبز وزيت ! ‥ وأكل معاوية على حياء ‥ ثم أتته بطبق من تمر ، فأكل على حياء ‥ فلما فرغ من طعامه سأله عمر : ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد ؟ وأجاب معاوية : قلت أن أمير المؤمنين قائل ( نائم بعد الغداء ) ‥ فقال عمر : بئس ما ظننت !

.. لئن نمت النهار لاضيعن الرعية ، ولئن نمت الليل لاضيعن نفسي
.. فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية !

**طولها شهر وعرضها عشر**

أما بعد أن استقرت الامور في مصر فقد أرسل عمرو بن العاص الى الخليفة كتابه المشهور الذى يصف فيه مصر وصفا « أدبيا » بليغا .. يقول في مستهله :

« ان مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان ، كجرى الشمس والقمر » ..

ثم يتحدث عن الفيضان عندما يغمر الارض ، ثم يجف الماء ، ثم ينمو النبات ، ثم تظهر الثمار .. فيقول : « فبينما مصر لؤلؤة بيضاء، اذ هي عنبرة سوداء، فاذا هي زمردة خضراء ، فاذا هي ديباجة رقشاء .. فتبارك الله الخالق لما يشاء ! »

وهذا الكتاب ، في رأى نقاد الادب ، « منسوب » الى عمرو بن العاص . فلم يكن أسلوب الكتابة حينذاك أسلوب سجع وجناس ، وانما دخلت هذه المحسنات اللفظية فيما دخل بعد هذا من أسباب الترفيه ووسائل الزخرفة .. والاغلب أن جوهر الخطاب من كلام عمرو . ثم صاغه أحد الادباء في عصر آخر في أسلوب يجتذب الناس.

أما ما أضافه اليه بعض العرب حديثا أو قديما ، من عبارات عن مصر ونسائها ورجالها ، فمن الواضح أنه كلام لا يصدر عن صحابى جليل ومسلم عظيم في رسالة موجهة الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

● ● ●

ويتحدث ابن الكندى عن النظام الادارى في مصر .. وكانت في أيامه ، أى منذ أكثر من ألف سنة ، مقسمة الى « مراكز » .. وكان المركز يسمى « كورة » .. وكان في مصر حينذاك ثمانون كورة .. « ليس منها كورة الا وفيها طرائف وعجائب من .. الابنية ، والنتاج ، والشراب والطعام والفاكهة ، وجميع ما ينتفع به الناس ، ويدخره الملوك » .

ويعرف كل صنف من كورته .. أى من المنطقة التى أنتجته أو صنعته ..

ثم يقول ابن الكندى :

« صعيدها أرض حجازية ، حر كحر الحجاز » .

« وأسفل أرضها ، أى الوجه البحرى ، شامى ، تمطر مطر الشام »

« وفى كل كورة من مصر مدينة » ٠٠ وقال تعالى : « وابعث فى المدائن حاشرين » ٠٠ ثم يمضى ابن الكندى فى الحديث عن كورة الاسكندرية ٠ « التى تأتى اليها السفن تحمل الطعـــام والمتاع والآلات ٠٠ وتحمل السفينة الواحدة ما يحمله خمسمائة بعير ٠٠ ثم تنقل هذه الاشياء الى الفسطاط » ٠

« واجمع الناس أنه ليس فى الدنيا مدينة على ثلاث طبقات غيرها ٠

**منارة الاسكندرية**

« ومن عجائبها المنارة ٠٠ وطولها مائتان وثمانون ذراعا وكان لها مرآة ترى فيها من يمر بالقسطنطينية » !

وهذه ، فيما يبدو ، مبالغة ٠٠ مرجعها الى أن العرب قد انبهروا بهذه المنارة الكبرى التى أقامها بطليموس الثانى ، وصارت عجيبة من عجائب الدنيا السبع ٠٠ فقد أقامها على صخرة فى البحر ، وبناها من صخور متينة منحوتة صب بينها الرصاص حتى لايتسرب اليها ماء البحر ٠٠ وكانت من أربعة طوابق ، وفيها غرف كثيرة متداخلة ، أثار عددها وتداخلها عجب العرب ٠٠ حتى قال المقريزى فيما بعد « ويقال أن كل من دخل هذه المنارة اختبل وضل الطريق مما بها من الغرف العدة والطبقات والمماشى » ٠٠ أما المرآة ، وهى مصنوعة من زجاج أو من حجر شفاف ، فيقول السيوطى « ان عرضها كان سبع أذرع ، وأنها كانت تظهر السفن الآتية من بلاد أوربا ، وكانت تستعمل لاحراق سفن العدو ، فكان الموكلون بها يديرونها نحو الشمس وهى مائلة للغروب ، فتنعكس اليها الاشعة وتحرق سفن العدو » ٠٠

وهكذا عرف المصريون منذ القديم توليد « الطاقة » من الشمس ٠٠ وهى التكنولوجيا الحديثة التى قد تغنى عن البترول ٠

ويصف الكندى ملعب الاســــــكندرية الرياضى ، ويذكر عمود السوارى ، ويذكر المسلتين ، وغير هذا من معالم الاسكندرية الكبرى ٠٠ والتى أهملت فيما بعد ، فقد انصرف الاهتمام الى مدن أخرى أقرب الى بلاد العرب ٠٠ وظاهرة الاهتمام بالاسكندرية والساحل الشمالى ، أو اهمالهما ، من الظواهر المهمة فى التاريخ المصرى ٠٠ وسنعرض لهذا فى احدى الدراسات القادمة ٠

# مصر هبة المصريين

ليست مصر هبة النيل، كما وصفها المؤرخ القديم هيرودوت وانمـــا هى هبة المصريين كما يقول مؤرخنا الحديث الدكتور محمد شفيق غربال ٠

ومؤرخنا المعاصر هو أستاذ جيل أو جيلين ممن درسوا التاريخ ، فقد كان من الرعيل الاول من أساتذة الجامعة فى مصر ، وكان أستاذا لكثير من أساتذة التاريخ فى الجامعات والمعاهد المصرية ، وفى جامعات البلاد العربية ٠٠ وعندما مضى الى رحمة الله منذ بضع سنوات كتب المؤرخ الاشهر أرنولد توينبى مقالا فى صحيفة التايمز الانجليزية وضع فيه صديقه شفيق غربال فى مصاف كبار المؤرخين ٠

ومن مؤلفات الاستاذ شفيق غربال كتاب صغير اسمه « تكوين مصر » يضم عشرة أحاديث أو محاضرات القاها باللغة الانجليزية ٠

ونعرض بعض صفحات من هذه الاحاديث عن الطبيعة المصرية فى احدى مراحلها الهامة ٠٠ كما نعرض بعض دراسات أخرى تتصل بمصر والمصريين ، قبل التاريخ ومنذ كان للانسانية تاريخ ٠٠

بلاد وأقوام وقبائل كثيرة تمتد على ضفاف النيل،
وحول الانهر التى تصب فى النيل ، وعلى الروافد
التى تتفرع من النهر الكبير ٠

بلاد واقوام وقبائل تنتشر فى منطقة فسيحة جدا من الارض ، تبدأ جنوب خط الاستواء ، وتمتد شمالا حتى البحر الابيض المتوسط ، وتترامى مابين سفوح الجبال فى الحبشة ، الى تلك الغابات الاستوائية فى قلب القارة الافريقيـة ، فيغطى النهـر الكبير بفروعه وروافده ودلتاه مساحة أكبر مما يغطى أى نهر فى العالم ٠

وقد عاشت أقوام وجماعات فى هذه المنطقة النيلية الفسيحة قبل أن يبدأ التاريخ ٠٠ ولكن التاريخ بدأ فعلا فى جزء واحد من هـــذه المنطقة الكبيرة ، وهو الجزء الشمالى من النيل الذى يعرفه العالم باسم مصر ٠

فلو كان النهر الكبير وحده هو الذى يصنع التاريخ وهو الذى يصنع المجتمع الانسانى ، لقامت الحضارة أول ما قامت فى أى جزء من أجزاء هذا الوادى الطويل ٠٠ بل لقامت الحضارة ، على الاخص ، فى مناطقه الجنوبية التى يفيض فيها ماء النيل أكثر مما يفيض فى اجزائه الشمالية ٠

ولكن الحضارة قامت فى الشمال ٠٠ لان هذا الاقليم تسكنه اقوام امتازوا بالجرأة والعزيمة والصلابة والاحتمال ٠

وفى هذا يقول الدكتور شفيق غربال فى كتابه « تكوين مصر » :

« انى لادرك تمام الادراك ــ وهل يمكن أن يكون الامر غير ذلك ــ ان النيل منبع حياتنا ، وان مصر ما هى الا الاراضى الواقعة على ضفتى النيل ، وان ليس لها من حدود الا المدى الذى تصل اليه مياه النهر ٠

« ومع ذلك فان المصريين هم الذين خلقوا مصر ٠٠

« تأمل النهر مجتازا آلاف الاميال من خط الاستواء الى البحر الابيض ، هل تجد على طول مجراه الا مصر واحدة ؟ ‥ ان هبات النيل كهبات الطبيعة سواء بسواء طائشة عمياء ، والانسان وحده هو الذى يستطيع أن يجعل من هذه الهبة نعمة . وقد كان ذلك ما عمله الانسان فى مصر ، فمصر هبة المصريين » .

## كيف حدث هذا ؟

أن المصريين الاوائل ، اولئك الناس الذين عاشوا فى هذه المنطقة قبل التاريخ بأزمان طويلة قد تحدوا الطبيعة فى أقسى وأعتى ما مر بها من تقلبات وتغيرات فى عصر يسميه علماء الجيولوجيا « عصر الجليد » ‥ حين حدثت تغيرات فى مواقع الكواكب أدت الى ارتفاع مد البحار فى شمال الارض ، فطفت مياهها تحمل الجليد على الارض، وزحفت من الشمال الى الجنوب ، فغطى الجليد وتراكم فوق اجزاء فسيحة من افريقيا وآسيا ، وقضى على ما فيها من نبات وحيوان ، وأنزل بها عصرا آخر هو « عصر الجفاف » ففر من يعيش فيها من الناس من شتى ما حولهم من الآفاق وارجاء الارض ، يلتمسون النجاة، والبقاء ‥

الا منطقة واحدة لم يهرب أهلها ! ‥ لقد بقى أهلها فى أرضهم التى عرفت بعد هذا عبر التاريخ باسم مصر !

لقد هب اولئك « المصريون الاوائل » يتحدون الطبيعة ، ويخترعون اول وأهم اختراع للانسان قديما وحديثا وهو النار ‥ وتوليد الحرارة ‥ ثم يخترعون الثياب يصنعونها من أوراق الشجر أو من جلود الحيوانات ‥ ثم يخترعون الزراعة بعد ما اسـتطاعوا أن يثبتوا فى الارض التى دافعوا وصـدوا عنها الجليد الزاحف من الشـمال ‥

ثبتوا فى أرضهم وأخذوا يزرعونها ، ويأكلون مما تنبت الارض ومما تصنع أيديهم ، ثم أخذوا ينظمون أمورهم ويدبرونها ‥ وعندئذ بدأت الحضارة الانسانية ، وبدأ التاريخ .

وفى تلك المرحلة الطويلة التى امتدت آلافا من السنين كانت الاقوام الاخرى تهيم فى أرجاء الارض ‥ فمنها ما باد واندثر ‥‥ ومنها ما تحول الى رعاة رحل ، أو تحول الى قناصة يصيدون الوحوش والحيوانات !

## ● التحدى والاستجابة

هذا هو الرأى الذى يقدمه المؤرخ الانجليزى أرنولد توينبى فى موسوعته التاريخية « دراسة للتاريخ » ألتى جعلته عميد المؤرخين المفكرين .. أو فلاسفة التاريخ .. وقد قدم هذا الرأى فى فصل عنوانه « التحدى والاستجابة » .. أى تحدى الطبيعة وكيف تصدى له جماعات البشر كل بما يستطيع ..

ويلخص شفيق غربال ما قاله توينبى فيقول فى محاضرته الاولى عن « تكوين مصر » : « ان هؤلاء المصريين الاوائل ـ شأنهم فى ذلك شأن بعض الشعوب الاخرى ـ واجهوا بعد نهاية عصر الجليد التحول الطبيعى العميق فى مناخ جزء من افريقيا وآسيا نحو الجفاف .. هذا هو التحدى ، فماذا كانت الاستجابة ؟

« من الاقوام الذين واجهوا التحول من لم ينتقل من مكانه . ولم يغير من طريقة معيشته ، فلقى الابادة والزوال جزاء اخفاقه فى مواجهة تحدى الجفاف .

« ومنهم من تجنب ترك الموطن ولكنه استبدل طريقة معيشته باخرى ، وتحولوا من صيادين الى رعاة رحـــل ، عرفتهم المراعى الافرآسية .. أى مراعى افريقيا وآسيا .

« ومن هؤلاء من رحلوا نحو الشمال ، وكان لزاما عليهم أن يواجهوا تحدى برد الشمال الموسمى

« ومن الاقوام من انتقل صـــوب الجنوب نحو المنطقة الاستوائية المطيرة . وهناك أوهن قواهم جو تلك المنطقة المطير الجـارى على وتيرة واحدة .

« وأخيرا منهم أقوام استجابوا لتحـدى الجفـاف بتغيير مواطنهم وتغيير طرائق معيشتهم معا » .

وهذا الفريق الاخير هم المصريون الاوائل ، الذين قاموا بهـــذا العمل المزدوج .. تغيير الموطن ، وتغيير طريقة الحياة .. فخلقوا بهذا مصر كما عرفها التاريخ .

●●●

ويمضى فليسوف التاريخ فيقول :

« هبط أولئك الرواد الابطال ، بدافع الجـــرأة او اليأس ، الى

مستنقعات الوادى ، وأخضعوا طيش الطبيعة لارادتهم ، وحولوا المستنقعات الى حقول تجرى فيها القنوات والجسور ٠ وهكذا استخلصت أرض مصر من الاجمة التى خلقتها الطبيعة ، وبدأ المجتمع المصرى قصة مغامرته الخالدة لتستقيم له أمور دنياه وأمور أخراه » ٠

***

ويمضى المؤرخ الكبير متحدثا عما كانت عليه صورة هذه المنطقة من الارض قبل أن يعمل المصريون الاوائل ارادتهم ، وأيديهم ، فى تذليل الارض التى تشبثوا بها ، وثبتوا فيها أقدامهم ، وجعلوها ذلولا لهم ولابنائهم من بعد ، عبر آلاف وآلاف من السنين ٠٠ فيقول:

« ويظن العلماء أن المستنقعات التى تحكم فيها المصريون الاوائل هذا التحكم الحاسم كانت لاتختلف كثيرا عما هو قائم الآن في منطقة السدود فى السودان ( وهى منطقة فسيحة تغمرها المياه الغزيرة وتغطيها الاعشاب والنباتات الكثيفة التى تعوق الملاحة فى النهر وتجعل الحياة هناك متعذرة وشاقة وقليلة الانتاج )

« بل أن العلماء يظنون ان أسلاف القوم الذين يعيشون الان فى تلك المنطقة كانوا يقطنون فيما مضى ما يعرف الان بصحراء ليبيا ، جنبا الى جنب مع مبدعى الحضارة المصرية ، عندما استجاب هؤلاء المصريون لتحدى الجفاف ، واختاروا لانفسهم ان يتخذوا خطة بالغة نهاية الخطورة : ( أى ينتقلون من الصحراء ويهبطون الى الوادى ٠٠ ثم يزرعون هذا الوادى ويقيمون فيه حضارتهم ) ٠

« والظاهر ان المصريين حين فعلوا ذلك آثر جيران لهم اليسرى ، وولوا وجوههم نحو الجنوب ٠٠ نحو بيئة طبيعية تتفق والبيئة التى ألفوها ، وتم لهم هذا في المنطقة الحارة من السودان في دائرة الامطار الاستوائية ٠٠ وما يزال أحفادهم من الدنكة والشلوك وغيرهم يعيشون فيها حتى يومنا هذا كما كان يعيش آباؤهم الاولون » ٠

وهناك شبه واضح بين هؤلاء القوم المعاصرين الذين يعيشون فى أقصى مناطق الجنوب من السودان وبين قدماء المصريين ٠٠ شبه فى القوام والسمت ونسب أجزاء الرأس ، وفى الملبس ٠٠ بل وفى اللغة ايضا ! ٠٠ ويبدو أن النمو الاجتماعى عند القبائل التى تقطن أعالى النيل وقف عند موضع تمكن فيه المصريون من اجتيازه قبل العصور التاريخية ٠

## الرجل الفذ .. والرجال الموهوبون

ولكن لا يزال علينا أن نسأل : لم اختلف مسلك المصريين الاوائل عن مسلك الدنكة والشلوك ؟ .

يجيب توينبى عن هذا بالحديث عن دور « القلة الخالقة » في نشأة المدنية . هذه القلة من الناس التى تتقدم الصفوف وتثير الحمية والحماسة ، وتحسن التصريف والتدبير .. أو كما يقول « اتفاق وجود الرجل الفذ ، أو الرجال الموهوبين ، الذين يقودون شعبهم في الساعة الملائمة الى مغامرة كبرى من مغامرات الخلق والتكوين » .

●●●

## زواج بين المصرى والنيل

ومع هذا كله .. أفليس النيل منبع الحياة فى مصر ، وانه لولا هذا النهر لكانت مصر جزءا من الصحراء الكبرى ، وان هيرودوت كان على حق حينما قال كلمته المشهورة : مصر هبة النيل ؟

لو أن الكلمة التى قالها أبو المؤرخين وقفت عند حدودها لكانت صحيحة ومقبولة .. ولكن الناس تناقلوها عبر التاريخ ، وخاصة فى الازمنة الحديثة ، وخلقوا منها قضية جديدة ، لها طابع عنصرى متحيز أو متعصب ، وهو انه لا فضل للمصريين فى شىء .. وانما الفضل كله الى النيل . ونظامه الطبيعى فى الفيضان ، والى أن تربة مصر خصبة ، وأرضها منبسطة ، وجوها معتدل .. فأى قوم آخرين كانوا يستطيعون أن يقوموا بما قام به المصريون ، فيزرعوا الارض ، ويقيموا القرى والمدن ، وينشئوا الحضارة !

هذه هى القضية التى يعرضها المفكر الباحث الدكتور جمال حمدان فى كتابه عن « شخصية مصر : دراســـــة فى عبقرية المكان » وهو يتضمن دراسة فريدة فى رؤيتها لمصر ..

يقول جمال حمدان : ان المصريين حين هبطوا الوادى فى فجر التاريخ وجدوا بيئة بدائية لا تصلح للسكنى والاستغلال .. المستنقعات والبرك والادغال والاجام . والنباتات والحيوانات البرية . وكان عليهم ان يغيروا هذا كله بالجهد الشاق والعمل الجماعى المضنى المتصل فى شق المصارف والترع . ومجابهة أخطار الفيضــــان أو الجفاف وضبط النهر وفى تربية الحيوان والنبات .

لقد كان على المصرى أن يكون حفارا قبل أن يكون زارعا .

« ولم يكن هذا الجهد الخارق الجسيم لينتهي مرة واحدة والى الابد بعد أن تم أول مرة ، فان طبيعة البيئة النهرية تستدعي استمرار العمل ·· فلا محل للقعود أو التكاسل أو الراحة والدعة بعد بذل المجهود الاول ·· ولعل هذا كان أشق فى الدلتا منه فى الصعيد · كذلك كان خطر الفيضان دوريا متجددا ، وبذلك عاشت مصر دائما فى خطر من الداخل ، كما عاشت فى خطر من الخارج ( خطر الغزوات على حدودها الصحراوية وعلى شواطئها ) ·· فكان التحدى متجددا ، ولكنه كان بمثابة المهماز للسكان وحافزا على الابتكار المستمر ·

« ولكن اذا كنا قد ضغطنا على دور الانسان المصرى وفضله الذى لا يمكن ان يجحد أو ينال منه ، فان من الاتزان العلمي ان نذكر ان ذلك انما تم في «مصر النيل» ·· بشكل معطياتها الطبيعية المعروفة من مائية وتربة ومناخ وحماية ·· وبديهى أنه لولا النيل لما كانت تلك الخامة الطبيعية التى عمل فيها المصرى بجهده الخلاق ·· ونحن فى غنى عن أن نتساءل عما اذا كان من الممكن للمصرى أن يكون على الاطلاق ، فضلا أن يخلق حضارته تلك ، قل على مسافة مائة ميل مثلا الى الشرق أو الغرب من النيل ·· »

ثم ينتهى الباحث المتعمق فيقول :

« ان مصر هبة النيل طبيعيا ·· وهبة المصريين حضاريا ··

« ان بيئة النيل هى الخامة ، والمصرى هو الصانع ··

« الحقيقة الكاملة ان هاهنازواجا موفقا سعيدا بين البيئة والانسان · بين التراب والتراث ، والحضارة المصرية السباقة هى الثمرة الطبيعية لهذا الزواج ·

« ان مصر هبة مشتركة بين النيل والمصريين » ·

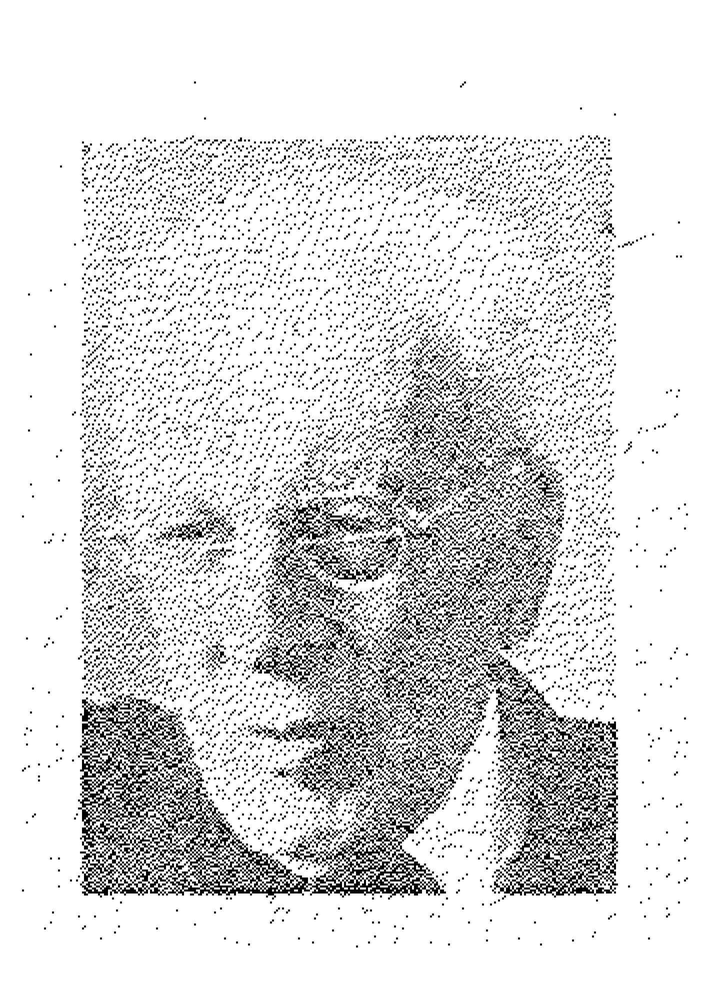
●●●

هذا عن المصريين الاوائل ، اجدادنا القدامى جدا ··

فماذاعمن جاء بعدهم من أجيال المصريين ؟ ·· هل كانوا مختلفين عن أجدادهم القدامى ؟ ·· هل استنزفت الجهود الاولى قواهم من

القدرة على العمل ، والتحدى ، والابتكار ؟ ·· أم هل ظلت تسرى في عروقهم ما جرى في عروق الاجداد من عناصر العزم ، والصبر ، والصلابة امام تحديات الحياة ·· وهي ، فيما بعد المرحلة الاولى ، كانت تحديات اجتماعية وثقافية ومعيشية تعاقبت على المصريين تعاقب الاجيال ، وتعاقب الحضارات ، وتعاقب الاديان ·· وايضا تعاقب الحكام والغزاة والفاتحين ؟

فلنمض معا في هذا التاريخ الطويل ·· فما أحوجنا الان الى أن نستعيد ، عن علم وبصيرة ، هذا التاريخ الحضاري الطويل ·



ارنولد توبيني
التحدى والاستجابة



د· محمد شفيق غربال
مصر هبة المصريين

# الطبيعة المصرية ..
## بين الوهم والحقيقة



قدم العقاد الطبيعة المصرية كما تصورها اوهام الناس ، ثم قدم الطبيعة المصرية في حقيقتها . يقدم تلك الصورة الموهومة ، وهذه الصورة الحقيقية ، في فصلين رائعين يصدر بهما كتابه عن سعد زغلول الذي اخرجه في أواخر الثلاثينات . ونبدأ بالفصل الاول عن « الطبيعة المصرية في أوهام الناس » أي في أوهام اقوام وشعوب افترت على المصريين في العصور القديمة ، وظل الناس يتناقلون هذه الاوهام والافتراءات عبر التاريخ ، حتى ثبتت في عقول الناس ، بما فيهم المصريون انفسهم ، ثبات الحقائق المقررة ..

وسأحرص على تقديم آراء الاستاذ العقاد كما هي ، فهي ذخيرة من المعرفة الواسعة ومن التفكير العميق ، ولكن جزالة اسلوب العقاد ، وطريقة عرض حججه وآرائه تتطلب أحيانا شيئا من التبسيط والتوضيح ، على أن اقتبس عبارات الكاتب الكبير بنصها ، كلما امكن هذا ، فان أسلوبه الرصين نهج متميز في الادب العربي لمن يريد ان يفكر وهو يقرأ ، ثم يستبقي في ذاكرته بعض ما يقرأ .

يبدأ العقاد مقررا أن طبيعة المصرى لا غموض أو تعقيد فيها ، انها طبيعة واضحة سهلة ، وأنه ليس فى الامم العريقة كافة أمة أوضح منها واسلس .. ورغم هذا . فان الطبيعة الواضحة السهلة قد احتجبت طويلا وراء ما احاط بها من أقاويل الامم المنافسة لمصر أو الموتورة منها منذ العهود القديمة .

« وقد طال عهد مصر بمراس المنافسين والجيران الموتورين ، وطال اعراض مصر عما يسمونها به ويفترونه عليها ،حتى وقر في الاذهان ، واصبح التعرض له بالتفنيد والتصحيح كالتعرض للحقائق المقررة ، والوقائع المكررة »

« ونحن نرجع الى الصفات الكثيرة التى تواترت بها أقاويل الامم الناقمة أو الامم الحاسدة ، فنستعرضها صفة صفة ، ونحاول ان نجد فيها ما يقنع السامع ، أو ينفى عنه الشك والتردد ، فلا نجد بينها صفة واحدة تطرق الاذهان من ناحية الاقناع . ولا نعجب لشىء عجبنا من سرعة الاكاذيب فى النفاذ الى الاذهان ، وسرعة الاوهام بعد ذلك فى الاستقرار بالاخلاد » .

ويتناول العقاد هذه الاكاذيب والاوهام ، فيردها الى المصدر الذى خرجت منه . ويفسر لماذا كان هؤلاء من الاقوام مصدر كذب وادعاء على مصر ، ثم يقدم من واقع التاريخ ما ينفى هذه الادعاءات التى سرت ورسخت فى الاذهان ، حتى تناقلتها الاجيال عبر التاريخ .

● **الجنود المرتزقة ..**

أول الاوهام ، أو رأس الاكاذيب يأتى من الاغريق ، ومن اليونان القدماء ، والذين بدأوا الاكذوبة التاريخية عن الطبيعة المصرية فادعوا انها طبيعة أمة لا تقدر على الحرب ، ولا تصبر على مكاره القتال !

مصدر هذه الكذبة التاريخية هو الاغريق . لماذا ؟ لان اليونان كانوا فى العصور القديمة يحترفون مهنة الجنود المرتزقة ، وكان فراعنة

مصر يؤجرونهم ، ويستعينون بهم على حراسة شعوبهم واخضاع رعاياهم

وكان اليونان يزعمون ، بطبيعة الحال ، ان الفراعنة يستخدمونهم في جيوشهم لان ابناء البلاد لا يصلحون للحرب ، ولا يصبرون على متاعب الجندية .

أما الحقيقة فهي أن الفراعنة عندما بدأت تتدهور الدولة المصرية وتتعرض لغزوات الفرس ، كانوا يخافون ان يسلموا زمام القـــوة العسكرية الى أهل البلاد الذين يكرهون هؤلاء الفراعنة الضعاف ويتربصون بهم ، ويتحفزون للثورة عليهم . فاستعان حكام مصر بالجنود المرتزقة . وكان أكثرهم من اليونان .

وكان هؤلاء الحكام الضعاف في أواخر الدولة المصرية ، يتملقون اليونان ،ويحاربونهم بالمال فيتبرعون بالمال الكثير لتعمير المعابد الاغريقية في بلاد اليونان ، وفي أقامة معابد يونانية الى جوار المعابد المصرية .

ولهذا نشأعداء بين المصريين واليونان في ذلك العهد القديم ، وكان المصريون يتعالون على اليونان ويترفعون عليهم ، حتى حرم الكهنة المصريون على المصريين أن يأكلوا من أيدى اليونانيين، وحرموا عليهم أن يخالطوهم ويعاشروهم ، وألا يأتمنوهم على سر أو أمر من الامور ، وسار المصريون يضربون بهم المثل في عدم الامانة !

وأخذ اليونان من جانبهم يطعنون في شجاعة المصريين ، ويشككون في قدرتهم على القتال ، وصبرهم على مكاره الحرب . ويستشـــهد مؤرخوهم على هذا بأن الجيش المصرى أيام الغزوة الفارسية بزعامة قمبيز لمصركان مؤلفا من جنود مرتزقة أكثرهم من اليونان .

●●●

ويتناقل المؤرخون ، وتتناقل معهم الاجيال ، كل هذا حتى تثبت وتستقر في الاوهام . ولكنهم ينسون ويتناسون هذه الحقائق التى يرددها الاستاذ العقاد :

أولا : أن جيش قمبيز الفارسي الذى غزا مصر كان أيضا يعتمد على الجنود المرتزقة ، وأكثرهم من اليونان أيضـــا ! . فقد كان نظام الجنود المرتزقة شيئا مألوفا في الامم القديمة ، وظل قائما وساريا الى عصر قريب جدا ، أما نظام الجيوش الوطنية فنظام حديث نشأ مع قيام الحركات القومية في العصر الحديث .

ثانيا : ان قمبيز غزا مصر عندما ضعفت الدولة المصرية وانفصل فيها الشعب عن حكامه الضعاف . أما ايام الحكام الاقوياء ، الذين

يسندهم شعب قوي ، فان كورش مؤسس دولة الفرس ، وفاتح الامصار شرقا وغربا ، قد تهيب غزو مصر وظل يتردد في فتحها الى أن مات ·

ثالثا : أن قمبيز ، مع قوته وابتكاراته العسكرية لم يجسر على غزو مصر الا بعد أن اشترى من فانيس القائد اليوناني أسرار الدفاع عن مصر . وفوض اليه رشوة البدو الضاربين فى صحراء سيناء ·· ثم لم يكفه هذا حتى الب الاسيويين على المصريين ، وأعد لهم ستة أضعاف قوتهم من الفرسان · وجيشا من المشاه يفوق جيشهم بعدد غير قليل، واسلحة لا عهد لهم بها فى ذلك الزمان · وايضا اشترى اسطولا من البحارة المرتزقة كان يعمل فى خدمة الفراعنة فأغراه بالمال فانضم الى قمبيز ·

رابعا : فان الجيش المصرى كان يضم فرقة مصرية . وان هذه الفرقة المصرية اصطدمت مع فرق المرتزقة مرارا ، وهزمتها فى كل مرة تصدت لها · وهذه هي الفرقة المصرية التى انتصر بها احمس اخيرا وصار حاكما لمصر وزعيما للمصريين ·

يقدم الاستاذ العقاد كل هذه الحجج ، ثم يقول بلغته الجازمة « وكل ما افتراه مؤرخو اليونان على شجاعة المصريين فى ذلك العهد انما كان حديث موتور ، ودفاع دخيل ممقوت » ·

●●●

وقبل ان ننتقل الى ما كتبه الاستاذ العقاد عن اثر هذا الافتراء فيما يقال عن المصريين فى العصر الحديث ولنربط التاريخ القديم بالتاريخ الحديث نقول ان هذه الكذبة الكبيرة التى بداها اليونان ايام ان كانوا جنودا مرتزقة عند الفراعنة الضعاف لم تمت قط بل نمت وثبتت عندما صار اليونان حكاما على مصر ، بعد أن كانوا يفدون اليها جنودا مرتزقة وتجارا صغارا ·

جاء الفتح اليوناني بقيادة الاسكندر الاكبر · ويبدو ان في الطبيعة المصرية شيئا كثيرا من حسن النية · فقد كان الاسكندر شابا يساوره الخيال الطموح والاحلام العريضة التي تحدوه الى رؤية عالم يسوده الوفاق والاخاء · ويتطلع الى اقامة مجتمع انساني ! ينبثق من أخوة بنى الانسان ! أو هكذا كانت دعوته عندما جاء الى مصر ، فلم يتصد له المصريون كما ينبغى التصدى للغزاة · وانما استقبلوه بصدر رحب· وتعلق به المصريون وضموه الى انفسهم ·· وبادلهم الاسكندر شعورا بشعور فاعتنق الديانة المصرية وأقام باسمه معبدا مصريا في واحة سيوه بالصحراء الغربية ·

ولكن الاسكندر مضى في فتوحه ومات شابا ، وتقاســـم قواده امبراطوريته الفسيحة ، وكانت مصر من نصيب بطليموس وخلفائه البطالمة الذين كانوا طبقة حاكمة منعزلة عن المصريين تماما • وتعالوا على المصريين ، حتى جاء الرومان فبسطوا على المصريين ايدى البطش والاستغلال • فكان عهد كراهية وعداء بين المحكومين وحكامهم • وابتعد الشعب عن حكامه وانزوى •

وفي هذا العهد الطويل ، عهد اليونان والرومان ، راح المؤرخون يرددون في كتبهم الكذبة الكبرى التي بدأت ايام الجنود المرتزقة : ان المصريين غير أهل للحرب والقتال !

●●●

ثم تأتي كلمة الحق « ممن لم يقل الا حقا ، فتدمغ تلك الفرية الكاذبة على المصريين ففى الحديث الشريف يقول محمد صلى الله عليه وســـــلم :

« اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير اجناد الارض »

فيسأل أبو بكر رضى الله عنه : ولم ذلك يا رسول الله ؟ •

فيقول الرسول : « لانهم في رباط الى يوم القيامة • »

انهم هؤلاء المصريين مرابطون دائما •• أبدا للحرب والقتال ، دفاعا عن أنفسهم ، ووطنهم ، وما يعتزون به من تراث •

لقد هزم الصليبيون المسلمين في سلسلة طويلة من المعارك • ولكنهم اندحروا عندما تصدى لهم الجنود المصريون •• مرة في حملة لويس التاسع التى انتهت بأسره ، ومرة في معـــــركة حطين التى خاضها صلاح الدين على رأس جيش ذهب من مصر واستخلص بيت المقدس وأعاده للمسلمين ••

●●●

ويأتى التاريخ الحديث الذى نعرف وقائعه جيدا •

فنجد جندا مصريين من احدى قرى الصعيد يفتحون « عكا » ، ويقتحمون قلعتها التى استعصت على نابليون قبل هذا ببضع سنوات . في معركة بالسيوف حتى ذهب الكلام عن « فتح عكا » مذهب الامثال !

ونجد مؤلفا انجليزيا يكتب عن الجيش المصرى فى عهد محمد على فيقول ان المغامرين الاوربيين والاتراك احتكروا المناصب الكبرى في الجيش •• أما الجيش المحارب فكان مؤلفا من جنود مصريين وضباط صغار مصريين ، وهؤلاء هم الذين هزموا الحملة البريطانية فى سنة

١٨٠٧ ، فتحوا معظم السودان · واحرزوا النصر في صحراء العرب وأعيى مراس الوهابيين ، ووقفوا على أبواب استنبول وكادوا يقضون على الامبراطورية العثمانية ، لولا أن انقذتها الدول الاوربية ·

وأخيرا ، وليس آخرا ، فان حرب عبور القناة ، واقتحام أمنع الحواجز ، وأعتى المعاقل العسكرية اقتضى من بسالة الجندى وجرأته واقدامه ، ما كان وسيبقى اكبر شاهد على ان مصر تنجب ، عندما تريد ، خير اجناد الارض ·

● **كهان بني اسرائيل**

**ويمضي العقاد في تفنيد هذه الاوهام والخرافات ، التي شاعت بين الناس منذ عهد سحيق » فيكتب عن « نبوءة » مصدرها كهان اليهود ·**

« وأخطر من هذه الدعاية اليونانية كثيرا دعاية أخرى تحدرت من بني اسرائيل في التاريخ القديم ، وشاعت بين الشعوب التي اخذت بقبس من مأثورات بني اسرائيل ، ونعني بها نبوءة السخط والنقمة التي فاه بها بعض كهان اليهود وتوارثها الاعقاب عن الاسلاف كأنها وحي سماوي من عند الله » ·

ومن الطبيعي ان تمتلىء اسفار بني اسرائيل بالسخط على المصريين ، فلم تكن العلاقة بين الشعبين علاقة ود موصول ! · صحيح أن يوسف عليه السلام صار وزيرا لفرعون مصر ، وانه ادار مالية مصر بتدبير وكفاءة ، ولكن المؤرخين يقولون انه أثرى هو وشعبه ثراء عجيبا حتى أثاروا سخط المصريين ونقمتهم ·

ثم غزا الهكسوس مصر فوجدوا من اليهود اعوانا لهم · ويقول المؤرخون أيضا انه في أيام حكم الهكسوس ازداد اليهود الذين يعيشون في مصر عددا وثراء ، وامتلأت خزائنهم وحظائر ماشيتهم كما انهم استأثروا بكثير من المهن والفنون التي تعلموها من المصريين كصناعة المعادن والحفر على الاحجار الكريمة ونسج القماش وصباغته

ثم ان ثورة اخناتون الدينية كانت متصلة بالعقيدة اليهودية ، فكانت تقوم على الايمان باله واحد قوي حي وان كانت قد اتخذت في مرحلة الوثنية قرص الشمس ، آتون ، رمزا للاله · وهناك تشابه بين أناشيد اخناتون الدينية وبين المزامير العبرية · وكان هذا التقارب بين دعوة اخناتون ، وبين الديانة اليهودية سببا في ثورة المصريين على ديانة اخناتون · وعلى كهنته الذين نشأت بينهم وبين شيوخ اليهود صلات من التفاهم والتعاون !

كل هذا ولد شعورا قويا من البغضاء بين المصريين والاسرائيليين · ونعود الى العقاد فنقرأ :

« كان الاسرائيليون الاقدمون يبغضون المصريين لانهم سخروهم

في أرضهم تسخير العبيد ، فهجروا الارض كارهين الى صحراء سيناء، ثم الى تخوم فلسطين ، وظلوا يتمنون الهزيمة للدولة المصرية ويتلقون بالقبول والترحيب كل ما يبشرهم بزوال مجدها وأفول نجمها •

« وزادهم بغضا على بغض انهم استنجدوا مصر على البابليين فأبت أن تنجدهم ، وكرهت ان تخوض أهوال الحرب مع بابل من أجلهم ، فلما هزمتهم بابل وأسرت قبائلهم وهدمت اركان دولتهم الصغيرة في فلسطين ، راحوا يتمنون لمصر مثل هذا المصير، وينذرونها سوء العاقبة الى أمد مديد • كما يفعل الكهان عندما يقذفون باللعنة على الاعداء الاقوياء ؟ • وزعموا ان المعتمد على مصر لا يعتمد على سند متين ، ولا يأوى الى ركن ركين ، لانها صانت دماء أبنائها عن حرب لا مصلحة لها فيها ، ولا داعي عندها لاقتحامها » •

ودعا كهان اليهود على مصر •• وتحول الدعاء الحاقد الى نبوءة • وتناقلت الاجيال هذه النبوءات الاسرائيلية وكأنها وحي منزل وقضاء دامغ • وهي ، في الحقيقة والواقع ، ليست الا وهما من الاوهام لا سلطان له على عقيدتنا في انفسنا ، ولا على ماضينا الذى عاشت فيه الامة المصرية وحضارتها أطول مما عاشت أية أمة في الارض • لان مصر بلد خير وفير ومتجدد ودائم أبد الدهر • فكانت نبوءة كهان بنى اسرائيل أكذب نبوءة تفوه بها الكهان المشعوذون •

ولكن هذه الاكاذيب عاشت في اوهام الناس عصورا وعصورا حتى جاء عصر الاستعمار الاوربى فراح يعيدها ويكررها لتثبت في عقول الناس ومشاعرهم •

●●●

وفى هذا يقول العقاد :

ثم جاءت العصور الاخيرة والمصريون لا يسمعون عن انفسهم الا التشهير بهم ، وسوء القالة عليهم ، وتفسير التاريخ على الوجه الذى يريده لهم اعداؤهم والطامعون فيهم •

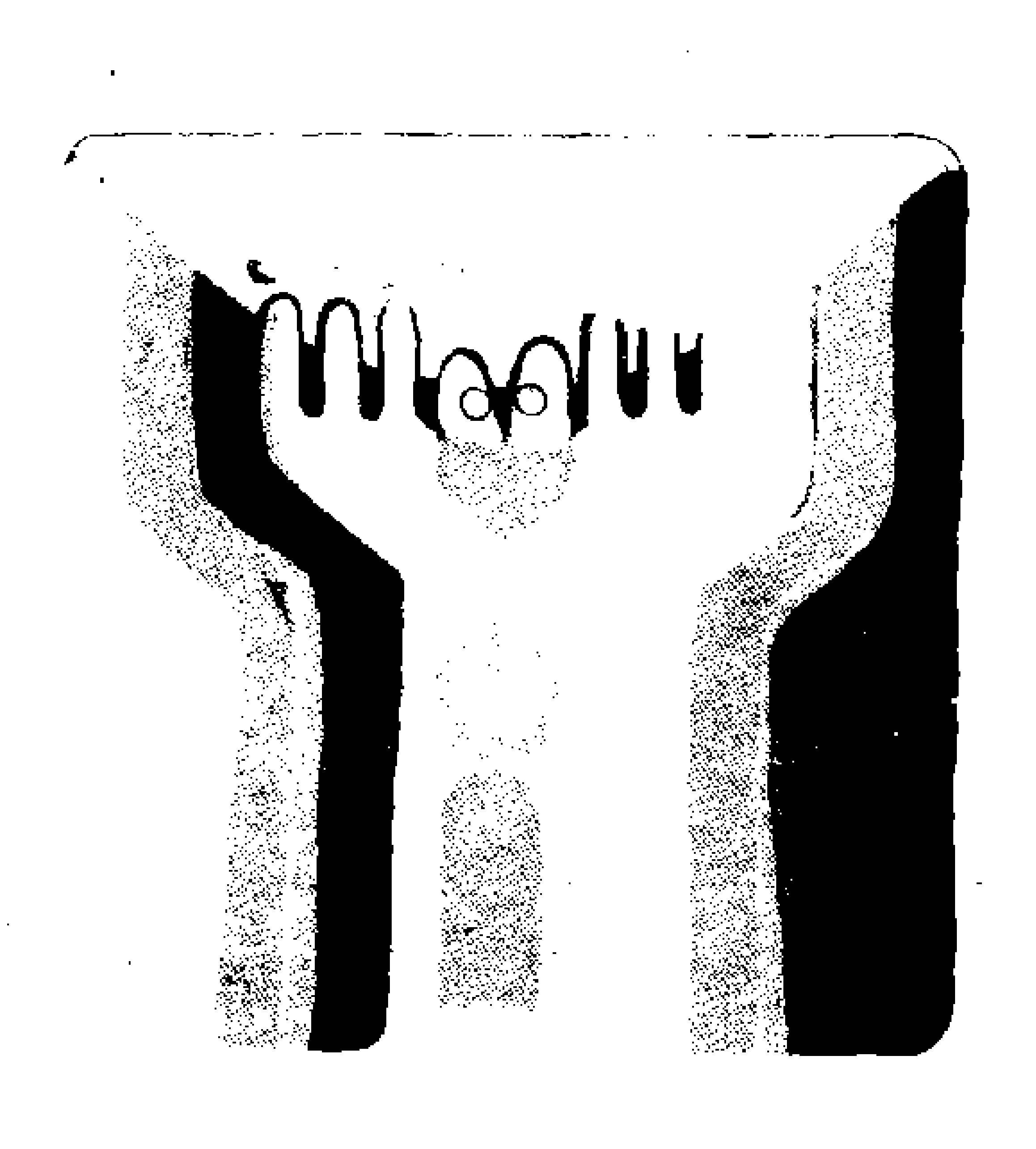
« فالاوربيون نظروا الى الشرق نظر المستعمر الطامع الى الغنيمة المطموع فيها ، فوصفوه في ماضيه وحاضره بالصفة التى يحبونها ويتمنون دوامها • وهم لا يحبونه مستقلا ولا اهلا للاستقلال • ولا يحبون لانفسهم أن يكونوا ظالمين مختالين ، يقتلون روح الحرية ، ويحكمون بالذل على أناس يستحقون العزة والكرامة ، فليس مما يشبع مطامعهم ، أو يريح ضمائرهم ، أن يتصف الشرق بصفات الشعوب التى تشبه الاوربيين في الفطرة ، وتساويهم أو تقرب منهم في نعمة الحرية والسيادة • وانما يشبع مطامعهم ، ويريح ضمائرهم

حقا ، أن يتخيلوا الشرق مفطورا على الخضوع ، مطبوعا على الاستسلام لا يغيرون من أمره شيئا اذا اخضعوه وسيطروا عليه ، واستمتعوا بخيراته الضائعة ، وثمراته المهملة ، واصقاعه الفسيحة ·

« وابتلى المصريون الى جانب المفكرين والمستعمرين بطبقة من الترك أو المتتركين ، ترفعوا عن « الفلاح المصرى » وحسبوا انفسهم جنسا أكرم وأعظم من جنسه العريق فى المدنية ، فشاعت هذه المناصب ، وكان لها أثر ليس بالهين فى تربية الامة وعقيدتها القومية ·

« ثم بدأت النهضة الوطنية فلم تخل من طائفة متعجلة ساخطة تستحث الجماهير الغافلة ، ويملكها الحزن الا تسرع الجماهير الى مجاوبتها والنهوض معها ، فتتهمها فى سليقتها واستعدادها على سبيل الزجر والحض والاهابة ، ويخطىء السامعون معنى الزواجر والتهم ، فيزعمونها حجة على صدق ما يقال فى الطبيعة المصرية ، يزكيها انها تصدر من افواه « الوطنيين الغيورين » وانها شاهد من اهلها المقربين » ·

تلك هى عناصر الاوهام التى احاطت بالطبيعة المصرية منذ العصور القديمة وحتى العصر الحديث ، وضعها العقاد تحت مجهر التاريخ ومجهر التفسير والتحليل فبددت الاوهام ، وتحللت الى اتهامات مفتراة ، والى تمنيات حاقدة ، والى دعايات الطامعين « والى ما يناقض الطبيعة المصرية فى حقيقتها »



# إعرف الأسرة المصرية ..
## تعرف كل شيء عن المصريين

**أما عن «الطبيعة المصرية في حقيقتها» فقد رسم العقاد عدة خطوط يصور بها خصائص الامة المصرية .**
**هذا خط يرسم لنا معنى الحرب والقتال في نظر المصريين ، ومتى تلجأ مصر الى الحرب تقطع بها فترات طويلة تجنح فيها وتأوى الى السلام .**
**وهذا خط علاقة المصرى بالحكومة .. هل هى علاقة انقياد وخضوع ، أم علاقة طاعة أشبه بالطاعة داخل الاسرة الواحدة ؟**

**وهذا خط يرسم اهتمام المصرى بالسياسة حتى لو مرت به عهود طويلة لا يشارك في الحكم والسياسة .. وهو يدرك باحساس غريب دخائل السياسة واتجاهاتها ، لكثرة ما تعاقب عليه من تجارب وتوالى على سمعه من احاديث الصاعدين والهابطين ..**

**اما ابرز الخطوط جميعا فهو هذا الخط البعيد عن الحرب والحكم والسياسة ولكنه هو الاساس وهو المصدر فى هؤلاء جميعا .. انه حب الاسرة والتمسك بآداب الاسرة .**

●●●

الخط الاول فى خصائص النفس المصرية هو « حب الاسرة » واحترام « آداب الاسرة » من عرف وعادات وتقاليد ..

يقول العقاد : « راقبت هذا الخلق فى نفوس العلية والسفلة وفى نفوس الشرفاء والمجرمين فوجدته على قرار مكين فى جميع هؤلاء » ..

وكان العقاد يراقب هذا الخلق النـاشىء من « حب الاسرة » .. وما يتفرع عنه من عادات وتقاليد ومفاهيم اجتمـاعية ، حتى عندما

القى به الى مكان يرى فيه أسوأ طبقة من المصريين ، وهى طبقة قد نظن انها أبعد ما تكون عن حب الاسرة ، وعن آداب الاسرة ، والتقاليد التى يرعاها المجتمع الطيب المهذب !

كان العقاد يراقب هذا الخلق عندما أودع فى السجن تسعة شهور بعد أن وقف فى البرلمان يقول : أن هذا المجلس على استعداد لان يحطم أكبر رأس فى البلاد يعتدى على الدستور .. ثم مضى يكتب مقالاته ولا يبالى ، فحكم عليه بالسجن بتهمة « العيب فى الذات الملكية » .

« وأردت ـ وأنا فى السجن ـ ألا يفوتنى سبر هذا الخلق فى طبائع اللصوص والفتاك والمحتالين والانذال ومدمنى الخمر والسموم، فاذا هم كلهم « يبيتون » فى طوية النفس ، يتمردون على القانون والفضائل والعظات ، ثم يقف تمردهم عند حدود العلاقات البيتية ، والعواطف التى تأصلت بين الاعمار والانسان ، على حكم الابوة والبنوة ، والاخاء والقرابة ، فى الادهار بعد الادهار ، فقلما يخطو التمرد خطوة وراء تلك الحدود » .

ويذكر العقاد بعض ماشاهد فى السجن من أحوال هؤلاء الناس ، مهما يسفوا اسفاف الجريمة أو القسوة أو النذالة ، الا أن شيئا من روح الاسرة وطبيعتها يظل مستقرا فى طوية نفوسهم ، فيكتب :

« رأيت مرة طفلا صغيرا من الاطفال الذين يودعونهم سجن مصر ريثما ينقلونهم الى سجن الاحداث فى الجيزة ، وكان هذا الطفل مع أقران فى سنه ينتظرون الترحيل فى فناء السجن المعرض لانظار الرؤساء والسجانين ،فمر به سجين من العائدين فى جريمة السرقة ، فرفع له الطفل رأسه وناداه فى لهجة المسكنة الطبيعية التى يشعر بها الصغير فى غيبة أهله : « جوعان » !

« فتمهل اللص العائد وقال له : وماذا أصنع لك يا ابنى ! وانصرف آسفا ، فظننته لايعود ولا يفكر بعد ذلك فى الطفل المستغيث ، ولكنه ما لبث أن عاد بعد دقائق ومعه رغيف سرقه من مخبز السجن فقسمه نصفين ، وأعطى الطفل نصفه واستبقى لنفسه النصف الآخر ، ولو ضبطوه وهو يسرق الخبز لما نجا من الجلد الاليم أو من السجن على انفراد » .

ويحكى العقاد حكايات أخرى مماثلة عن هذه العلاقة التى تأصلت على مر الادهار بعد الادهار بين الابن والابنه وأبويهما ، وبين

الصغير الناشيء والكبير المسن ، وهي عواطف ناشئة ومتفرعة من حب الاسرة واحترام آدابها وتقاليدها ٠

### متى يثور المصريون

ثم يذهب العقاد في تصويره وتحليله فيرجع الثورات المصرية الى هذا الخلق أو هذه الطبيعة ٠

أن ثورات المصريين هي ثورات على من يسيء الى الخلية الاساسية

في البيئة المصرية ٠٠ الى هـذه الطبيعة الاسرية ، أو الى هـذا النظـام البيتي ، وما يحيط بهذا من عرف وتقـاليد وموروثات ومعتقدات ، نعتبرها تراثا لابد من صيانته والدفاع عنه ٠

ومن يسيء الى هذا التراث ، ومن يتجرأ فيهزأ ويستهين به ، ومن يريد أن يهدمه ، ومن يسع الي أن يستبدل به أفكارا وأوضـاعا أخرى ،فانما يعرض نفسه الى غضب المصريين واستنكارهم واثارتهم ٠٠ والى ثورة من ثورات المصريين ٠

اى أن ثورات المصريين ترجع الى شدة محافظة المصريين ٠٠ وهذا هو وجه التناقض !

فالمحافظ الحريص على التقاليد والعادات المألوفة ، هو بطبيمته شخص غير ثائر ، والثورة عادة تهدف الى القضـاء على الاوضـاع والتقاليد القائمة ، أما الثورات المصرية فتقوم عادة لصـيانة تلك الاوضاع والتقاليد المتاصلة ، والحفاظ على التراث القديم الموروث ٠

ولهذا فليس من الضروري أن يكون السبب في ثورة المصريين أن أضرارا مادية قد وقعت عليهم ، وهو ماتنشأ عنه الثورات عادة في أغلب الشعوب ٠٠ وانما يكفي أن تكون هناك اسـاءة أو تدبير أو تغيير ضد ما يعتز به المصريون من معتقدات وموروثات ، فيثورون ٠٠ ويثورون ثورة غاضبة عارمة ٠٠ وينسون في سـبيل ثورتهـم مصالحهم المادية ، لان المحافظ المفرط في المحافظة ينسى المصلحة في سبيل ما يعتقده وما يعتز به من تراث ٠

لعلى بهذا الكلام قد فهمت فهما صحيحا ما يقصده العقـاد حين يقـول :

« فنحن لا نستطيع أن نفهم كيف يكون المصرى محافظا شديدا في المحافظة ، ثائرا متأهبا للتمرد الا اذا فهمنا حبه للاسرة ، وحبه من أجل ذلك للموروثات والتقاليد ٠٠ فهو محافظ كمـا تحـافظ جميع الاسرات على تراثها ، وهو من أجل المحافظة على التراث مستعد للثورة أبدا لصيانة موروثاته وتقاليده » ٠

« وقد يبدو غير معقول في ثورته وهياجه ، لان العهد بالناس أن يستغربوا الثورة من المحافظين المقلدين ، ويزيدهم استغرابا لها الا يجدوا تفسيرا لها من خوف الضرر على المصالح والمنافع ، فيقولون مدهوشين : أمثل ذلك الشعب الوادع المستقر يثور هذه الثورة لمثل هذا الضرر اليسير أو لغير ضرر على الاطلاق ·· والواقع أن الذى يثور هذه الثورة غالبا هو المحافظ المغرق فى المحافظة ، لانه لفرط محافظته ينسى المصلحة فى سبيل العادات »

ويستشهد العقاد فى هذا بشىء تكرر فى التاريخ المصرى قديما وحديثا ، فيقول :

« ولاشك فى أن هذا الخلق الذى امتزج بالفطرة المصرية هو باعث الحاكمين جميعا الى مجاملة الامة فى عقائدها ، والحذر من المساس بموروثاتها ومألوفاتها ·· فمن لم يفطن من الحاكمين الى هذه السياسة الرشيدة لم يعرف الراحة معها فى سياسة أخرى ، ولم يأمن أن يزول حكمه ويفسد الامر عليه فسادا لا صلاح بعده ، وكثيرا ما انتهت المجاملة بالحاكمين الى التدين بالدين المصرى ، والتخلق بالاخلاق المصرية اذا كانوا من الغرباء » ·

## ● حتى الاسكندر ونابليون

·· والتاريخ يقول انها كانت أكثر من « مجاملة » ولعلها كانت فى بعض الحالات رياء ونفاقا ·· حين راح بعض الحاكمين الغرباء يتدينون بالدين المصرى ، ويتخلقون بالاخلاق المصرية ! ·· ونذكر فى هذا ثلاثة أمور :

فمنذ القدم تدين الاسكندر الاكبر بديانة المصريين ، فنصبوه ابنا لالههم الكبير آمون ، وأقام باسمه معبدا فى واحة سيوه تقام فيه شعائر الديانة الفرعونية ·

وجاء الفاطميون يحملون مذهب الشيعة الى مصر التى يتبع أهلها المذاهب السنية ·· ودعا الفاطميون الى مذهبهم من منبر الازهر ومنابر المساجد ، ولكنهم لم يكرهوا الناس على اعتناق مذهبهم ، فظل المصريون بوجه عام سنيين واكتفى الفاطميون بالمظاهر الرسمية ومنها أن يكون قاضى القضاة شيعيا ·

ونابليون ·· أصدر منشورا يقول فيه انه يحب دين الاسلام ويقدر رسوله محمدا ( صلى الله عليه وسلم ) ·· وأخذ يدعو شيوخ الازهر ومشايخ الطرق الصوفية الى داره فىحديقة الازبكية ،ويتودد

اليهم .. فواجهه الشيخ عبد الله الشرقاوى مواجهة جريئة وقال له : مادمت تحب الاسلام ورسوله فلماذا لا تعتنق الاسلام ؟ .. ولكن نابليون لايريد أن يخسر فرنسا ليكسب محبة المصريين ، حتى أنه ذات مرة لبس الجبة والقفطان ووضع على رأسه عمامة .. ثم عاد فارتدى زى المماليك من صيدريات وسراويل موشساة بالذهب والفضة .. وأراد أن يخرج هكذا على النـاس ، لـولا أن رده أحد قواده ، ربما كان مينو ، قائلا له أنه بقـامته القصيرة وملامحه وسحنته يبدو فى هذا الرداء أضحوكة أو مهرجا !

نعود الى موضوع « الاسرة » ، وحبها وآدابها وتقاليدها ، فنجد العقاد يفيض فى الاستشهاد والتفسير والتحليل . لان هـذا هـو المنبع وهو الاساس فى أخلاقنا الفردية وفى تكويننا الاجتماعى .

يستشهد بأقوال المصريين منذ العصور القديمة .. فيقول :

« فالاسرة عظيمة الشـأن فى آداب المصريين من أقدم عصـور التاريخ ، ولن يتجرد المصرى من عواطف الارحام بين أبوة وأمومة وبنوة ، وقرابة ، وآصرة دانية أو قاصية .. ذلك هو قوام العرف الاجتماعى فى أخلاقه وهو أيضا قوام « المحافظة المصرية » التى تحب الالفة وتعرض عن البدع والخوارق .

« والوصايا باتخاذ الاسرة معـروفة فى الادب المصرى منذ آلاف السنين .. ففى وصايا فتاح حتب التى كتبت منذ أكثـر من ستة وأربعين قرنا يقول الوزير لتلميذه : اذا كنت رجلا ذامنزلة فاتخذ لك منزلا ، واحبب قرينتك الحب الجميل ، وأطعمها وأكسها وطيب أوصالها ، وادخل السرور على قلبها طول حياتها .

« وفى هذه الوصايا يقول الحكيم : ضاعف لامك خبزها ، واحملها كما حملتك ، لقد أثقلتها وما نبذتك ، وظلت تحملك حول عنقهـا بعـد ميلادك ، وظل ثديها ثلاث سـنوات فى فمك ، ولم تأنف من تنظيفك ولم تقل قط : ماذا أصنع بهذا ؟ . وأرسلتك الى المدرسة تتعلم الكتابة ، ووقفت لك بالخبز والشراب كل يوم تنتظرك .. واذكر اذا تزوجت وانفردت بمنزلك كيف ولدتك أمك وكيف ربتك وتعهدتك بكل ما عندها من وسـيلة ، عسى الا تضيبـك بضر ، ولا ترتفع يديها الى الاله بالدعاء عليك ، ولا يستمع الاله منها الى شكاية » .

هذه الرحمة « البيتية » قديمة قدم المجتمع المصرى ، ومن عظم الرأفة بالبنين أن يمتد زمن الرضاع الى ثلاث سـنوات كما يشير

هذه الوصية ، وأن الرأفة فى تلك الاجيال السحيقة التى كان فيها المجتمع الانسانى فى بدايتهلغريبة ولو كانت رأفة الآباء بالبنين .

### ● الغيرة والعرض

وينتقل العقاد من كلامه عن « حب الاسرة » فى الطبيعة المصرية الى موضوع الغيرة والعرض ، وهو موضوع تختلف فيه الشعوب اختلافا كبيرا .

فالقتل بدافع الغيرة ودفاعا عن العرض أمر وارد فى المجتمع المصرى أو فى بعض اجزائه فى بعض مناطق الصعيد .. وهو أمر مألوف بين البدو من العرب ، وغير مستبعد أو مستحيل فى القرى.. وربما كان أكثر الناس انتقاما للعرض هم أهل الجبل فى لبنان ، وهناك قصة لبنانية مشهورة ، تعقب فيها الاخوان من أغرى اختهما وهتك عرضها ،حتى بلغاه فى البرازيل وقتلاه هناك غيظا وانتقاما. ولكن القتل فىسبيل العرض قد انتهىتماما فى بعض المجتمعات ، وقد ذكر لى منذ سنوات شاب مصرى انه وضع رسالة جامعية فى جامعة فيينا عن الجريمة والاجرام فى النمسا .. فلم يجد فى الاحصاءات جريمة قتلواحدة بدافعالغيرة الزوجية أو الغيرة العاطفية ، بينما وقعت وتكررت جرائم قتل لاسباب فردية تافهة !

وليس هذا على كل حال هو الامر فى كل المجتمعات الاوربية .. فالامر غير هذا فى أسبانيا والبرتغال واليونان وبلاد البلقان . وليس من المستحيل أن تقع جريمة قتل بدافع الغيرة والعرض فى فرنسا او ايطاليا أو امريكا .. على أن هذا يحدث عادة فى حالة تهيج وانفعال ، أكثر مما يقع بعد تدبير وتعقب طويل !

ونعود بعد هذا الاستطراد الى العقاد فنجد أنه يرجع الغيرة المصرية وما قد تؤدى اليه من جريمة الى «دافع انسانى» .. فيقول:

« ومن الاخلاق التى تلازم حب الاسرة ومتانة الوشائج البيتية غيرة الزوجية وصيانة العرض واستهجان التفريط فيه لبلوغ مأرب واتقاء سطوة . فيروض المصرى نفسه على الضنك ولا يروض نفسه على بيع العرض وابتذال البيت .

« وينبغى هنا التفريق بين عرض وعرض ، والتمييز بين غيرة وغيرة .

«فان البدوى مثلا ليأبى أن يبذل عرضه ويثور على من ينتهك حرمه ، ويغضب للزوجة وكأنه يغضب فى منافرة أو مصاولة ، لان

اعتداء الغير على زوجته هو عنده بمثابة هزيمة في حرب ، أو نكوص في مجال صراع .

« أما المصرى فغيرته على عرضه من نوع آخر ، ولعلة أخرى : اذ هو يغار على الزوجة اعتزازا بصداقة امتينة وأرحام أمينة ، وضنا بملاذ ألفة وسكينة ، ومأوى ســعادة وطمأنينة .. وأنه ليغضب للزوجة وكأنه يغضب لقرابة تقطع ، أو محراب يهان .. وهذا هو الفرق بين الغيرة التي منشؤها أدب الاسرة ، والغيرة التي منشؤها أدب القتال »

ولكن كلام العقاد يدعو الى التفكير في ظاهرة أخرى في الشخصية المصرية .. فان الافراط في حب الاسرة والتعلق بها له تأثير في تعلق الفرد بالمجتمع كله ، وفي علاقة الفرد بالنظام السياسي وبالحكومة القائمة على شئون هذا المجتمع .. وبعبارة أوضح : هل يكون الولاء الشديد للاسرة ، على حساب الولاء للمجتمع وللحكومة ؟ هل داء « المحسوبية » مثلا يرجع أساسا الى تعلق الفرد بأسرته ، وايثار اقربائه وأصهاره على الآخرين ، حتى ولو كان الاخرون أولى وأحق من الاقرباء والاصهار ؟ .. هل التهرب من دفع الضرائب التي تنفق حصيلتها على الصالح العام ، يرجع الى هذه الطبيعة المتأصلة التي تجعل رب الاسرة حريصا على أن يقدم المصلحة الخاصة لاسرته على المصلحة العامة التي يشاركه فيها غيره من الناس ؟ .. وهل المصرى يعنيه « صلاح الحكومة والحاكم » مثلما يعنيه « صــلاح » أسرته وراحتها وسعادتها ؟ .. هذه الاسئلة وأمثالها تثار دائما في المقارنة بين الامم والشعوب ..

يتناول العقاد وهو يجلو « الطبيعة المصرية في حقيقتها » هـذا الجانب فيقول :

« فالمصرى اجتماعي من ناحية الاسرة وعراقة المعيشة الحضرية ، أو اجتماعي من ناحية انتظام العادات والعلاقات ، منذ أجيال مديدة على نظام الاسر والبيوت ، وهذا أقوى ما يربطه بالمجتمع أو يربطه بالامة والحياة القومية ، وهو ارتباط أقوى في نفسه جدا من ارتباط النظام الســياسي والمراسم الحكومية ، فلم تكن الحكومة في تلك الازمان الطويلة ، لتمتزج بنفسه قط امتزاج الالفة والطواعية والمعاملة المشكورة .. بل ربما كان صدوده عن الحكومة مما ضاعف اعتماده على الاسرة ، وحصر عواطفه الانسانية في علاقاته البيتية ، لانها ملجأ خفيض ومهرب أمين من القسوة والمظالم ، وغاية ما يخامره من أمر

الحكومة انها شيء يداري ما استطاع له المداراة ، ويستفاد من سطوته وجاهه ما تيسرت الفائدة ، ولا بأس بارضائها بالهدايا والمجاملات في غير حفيظة ولا استكراه ‥ فعلاقته بالحكومة على الاغلب الاعم ، هي علاقة عداوة مريبة ، أو مهادنة محتملة ، لم تبلغ أن تكون علاقة ود يحرص عليه أو ضمان يحميه الا في الندرة التي لايقاس عليها‥

« ومن ثم كان المصري محافظا ومتحفزا للتغيير في وقت واحد ، أو كان محافظا في مسلكه الذي يدور على أصول الاسرة وعلاقات الرحم ، متمردا في مسلكه من ناحية الشئون السياسية والمسائل الحكومية ، ومتى جد عليه جديد الاصلاح فلن يفلح عنده ولن يظفر منه بالترحيب والموافقة ، الا ساعة يمتزج بنظام البيت والاسرة ، ويتسرب الى حياته من باب عواطف الارحام ومناظرات المنازل ‥ والا فلا أمل لاصلاح في توفيق » .

● ● ●

ان صح هذا ، وما رأيناه وعانيناه يدل على أنه صحيح ، فلابد أن يكون طريق الاصلاح قائما على الطبيعة المتأصلة فينا ‥ طبيعة الاسرة المصرية وقيمها وأخلاقها ومفهومها للحياة !



# الطبيعة المصرية .. في خيال فنان

كان الشعب المصرى فى بداية الثلاثينات يمر بحالة نفسية يختلط فيها كثير من الضيق واليأس ، ومن الوجوم والاكتئاب ، بشىء من الترقب والتحفز الى عمل شىء ما ..

كان الناس يعانون ضيقا اقتصاديا شديدا ، هو جزء من الازمة الاقتصادية العالمية التى بدأت فى أمريكا فى صورة كارثة مفاجئة سنة ١٩٢٩ ، وسرعان ما شملت بآثارها العالم كله ، بما فيه مصر حيث كان الزارع يبيع قنطار القطن بجنيهين اثنين ، ثم يساوم تاجر القطن الريفى فيشتريه بمائة وثمانين قرشا ! .. ولم يعد خريج الجامعة يحلم بمرتب قدره اثنا عشر جنيها ، فهبطت أماله الى وظيفة يحصل عليها بعد وساطات وشفاعات ليتقاضى ثمانية جنيهات وخمسين قرشا ، ثم هبط المرتب أحيانا الى ستة جنيهات .. وعينت احدى الكليات شابا متخرجا فيها ساعيا بثلاثة جنيهات ، وغضب طلبة الكلية واستاءوا ، فنقلوه بعيدا عنهم ساعيا فى كلية أخرى .. !

أما جماعات المهنيين والحرفيين فكانوا يمرون بفترات من البطالة ، ومن الفاقة ، أكثر مما يعرفون من فترات العمل ومواسمه .. وكان الاجر اليومى للعامل الفنى الماهر ، او للاسطى البارع ، بضعة قروش لاتكفيه هو وأولاده حتى ولو كانت البيضة بمليمين ورطل اللحم بثلاثة قروش . !

وكان الناس فضلا عن هذا الضيق الاقتصـــادى يعانون ضيقا نفسيا شديدا ، فبعد أن تطلعت نفوسهم زهاء عشر سنوات الى جو من الحرية السياسية ، تتمثل فى وجود دستور وبرلمان وأحزاب وانتخابات وصحافة حرة ، اذ بهذا يتبدد وينهار .. فتقوم حكومة ديكتاتورية تلغى الدستور وتصدر بدلا منه دستورا جديدا يقيد الحريات ويضفى الشرعية على الحكم المطلق .. ويقوم حزب يتخذ أسما على غير مسمى ، فيسمى نفسه « حزب الشعب » .. ولا صلة بينه وبين الشعب ولا بأية طبقة فيه سواء كانت طبقة الاغنياء أو طبقة الفقراء .. ومع هذا فان الحزب يظفر فى الانتخابات باغلبية ساحقة من الاصوات .. لان الانتخابات أجرتها وزارة الداخلية وملأت صناديق الانتخابات ببطاقات اعدتها أقسام البوليس ومراكزه وملأتها بأسماء المطلوب دخولهم البرلمان .. أما الصحف ، فما زالت تكتب المقالات الشديدة ، ولكن الحكومة تصادرها ، وتحاكم الصحفيين .. وتقذف ببعضهم فى السجن ، معتقلا تحت التحقيق أو سجينا فى الزنزانة ..

ولكن رغم هذا الضيق الاقتصادى ، وهذا الضيق السياسى، فلم يفقد الناس روح المقاومة .. راحوا يقاومون سـنة وسنتين وثلاثا .. وفى اثناء هذه المقاومة قتل عدد غير قليل من المصريين فى مظاهرات عنيفة قامت فى القاهرة حيث التحم عمال عنابر السكك الحديدية بقوات من البوليس .. وقامت مظاهرات ومعارك أخرى فى المنصورة وبنى سويف وبلبيس وغيرها وغيرها .. واغلقت الجامعة شهرا أو اكثر ، واغلقت المدارس والمعاهد الدينية عدة مرات وعدة شهور .

واخذت قبضة الحكومة ، يؤيدها الانجليز ويؤيدها الملك ، تشتد .. فضعفت فى الناس القدرة على مواصلة المقاومة .. وفى وقت تطحنهم فيه الضائقة الاقتصادية .. فبدأ الناس يخضعون ، ويذعنون ، فى يأس واكتئاب .. وخيم على مصر جو من الوجوم !

فى هذا الجو المكتئب ظهرت قصة ادبية تلهف الشباب على قراءتها ..

تلك هي قصة « عودة الروح » ٠٠ التي أصدرها الاستاذ توفيق الحكيم في سنة ١٩٣٢ ، بعد أن خباها سبع سنوات، فقد كتبها في سنة ١٩٢٧ في أثناء دراسته في فرنسا ٠٠ وكان توفيق الحكيم حينذاك قد ذاع صيته مرة واحدة ، في خلال أسبوع واحد ، حين أصـــدر مسرحيته الاولى « أهل الكهف » ٠٠ فخرجت الى الناس يصاحبها موكب من مقالات لجميع كبار الكتاب والنقاد الذين أجمعوا على أن هذه الصورة من العمل الادبي هي فتح جديد ورائع في الأدب العربي ٠٠ وشجعه هذا التقدير العظيم على اخراج مسرحيته الثانية ، شهر زاد ٠٠ ثم اخراج « عودة الروح » من المخبأ ٠

وتلهف الشباب في تلك الايام على قراءة « عودة الروح » فقد وجدوا فيها أجابة واجابات على التساؤلات والشـــكوك التي ساورت الناس في تلك الفترة الكئيبة التي تجمع فيها الضيق النفسي ، والضيق المادي ، وجثما على الصدور ٠٠ فكان الناس يفتشون في داخل نفوسهم ويتساءلون : هل هناك شيء معين في طبيعتنا المصرية يجعل الحكم المطلق امرا مفروضا على المصريين عبر التاريخ ؟ ٠٠ هل نحن جبلنا على الخضوع والاذعان لهذا الحكم المطلق حتى صـــار سلسلة متصلة الحلقات فيما مر بنا من عصور طوال ؟ ٠٠ أم هل أننا قوم استنفدت القرون الطويلة ، وما حفلت به من مشقة العمل والبناء والابتكار ، قواهم ومواهبهم ٠٠ فلم يبق منها الا مايكفي للمحافظة على البقاء ، واستمرار الحياة ٠٠ أيا كانت هذه الحياة ؟

تساؤلات وشكوك ملأت عقولنا ومشاعرنا في تلك الفترة التي ظهرت فيها قصة « عودة الروح » ٠٠ عودة الروح المصرية القديمة الى الشعب المصري الحديث !

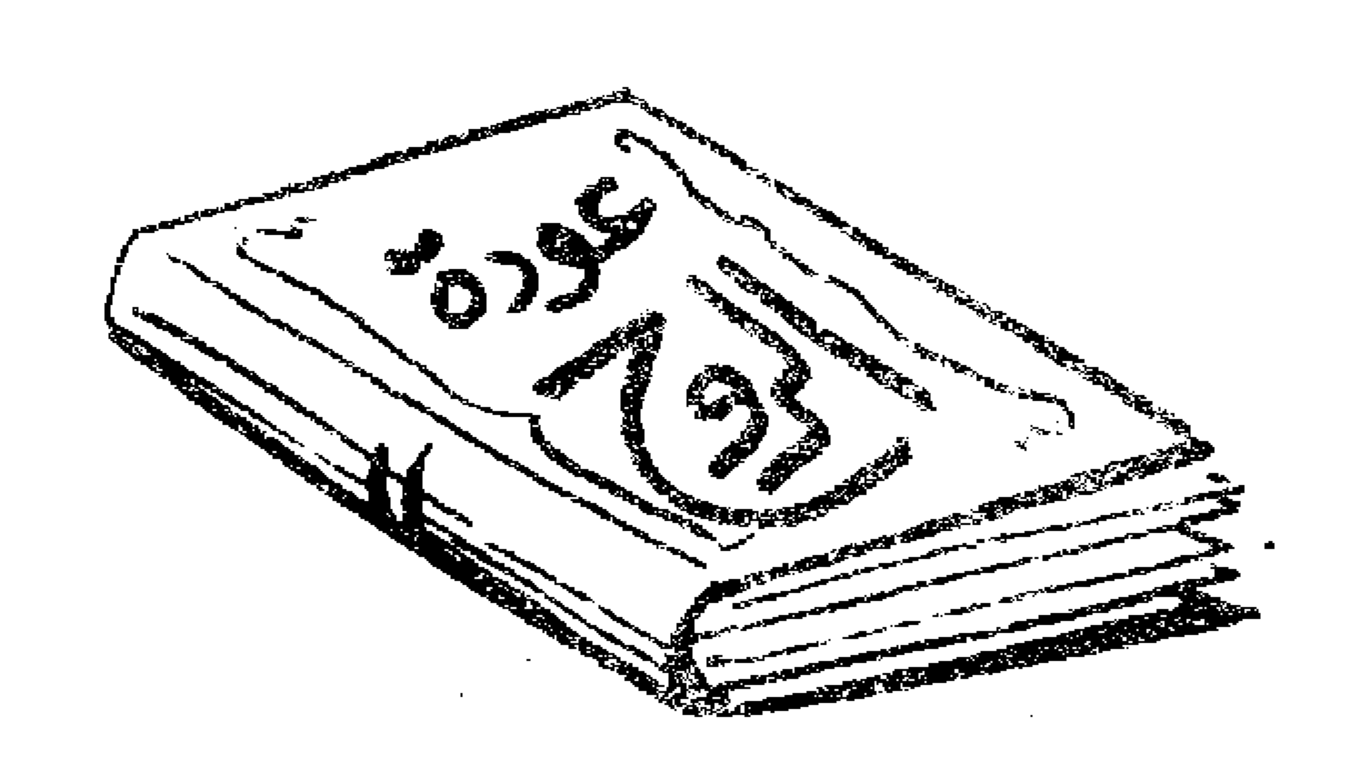
والقصة معروفة لنا جميعا ، وتدور حول أسرة مصرية في الفترة التي سبقت الثورة المصرية سنة ١٩١٩ ، حيث كان يسود الناس جو من الاستسلام والجمود والاكتئاب ٠٠ وقد رأيت في هذه السلسلة عن « مصر والمصريين » أن أعيد الى الذاكرة صفحات منها ، يتحدث فيها الكاتب الفنان حديثا مباشرا عن الطبيعة المصرية في صورة حوار يجري في عزبة حامد بك ٠٠ بين مفتش الري الانجليزي وبين عالم الآثار الفرنسي ٠

وقد اخترت عنوانا اعتقد انه يصف ما كتبه توفيق الحكيم وصفا صحيحا .. هو انه خيال فنان !

وليس من اللازم أن يكون خيال الفنـــان مطابقا للواقع والحقيقة .. فقد يرى جمالا وروعة فيما ليس فيه جمال وروعة .. كهذا الذى يراه توفيق الحكيم من معنى الحضارة حين ينام الفلاح وعائلته وماشيته وبهائمه فى حجرة واحدة ! .. أو كهذا الانبهار العظيم حين ترى جماعة من الفلاحين الذين يعملون ليل نهار تحت الشمس المحرقة والبرد القارس وكسرة من خبز الذرة وقطعة من الجبن مع بعض الاعشاب والسريس .. ومع ذلك فها هم يغنون !

انه خيال فنان عاشق .. ولكنه أثار فينا ، فى الثلاثينات، بارقة من الامل ، وبارقة من الثقة بالنفس وشعورا عميقا بأننا نحن المصريين تتوافر فينا كل العناصر الطيبة .. حتى لاكاد أحس بأن هذه القصة كانت مصدرا وينبوعا تغذى منه وارتوى الروح الذى تدفق فى صدور الشباب في ثورتهم سنة ١٩٣٥ ثم فيما تلا هذا من انتفاضـــات وحركات قومية فى بداية الخمسينات . ثم هى القصة التى قرأها شاب من شبان ذلك الجيل ، فقال فيما بعد انها كانت جزءا من تكوينه الوطنى ، وتكوينه الثورى .. فكان يضع توفيق الحكيم موضع الاعزاز والاكبار .. وكان هذا الشاب هو جمال عبد الناصر .

فلنقرأ معا هذه الصفحات من قصة « عودة الروح » .



يدور حوار بين مسـيو فوكيه عالم الآثار الفرنسي ، ومستر بلاك مفتش الرى الانجليزى، فى عزبة الثرى المصرى وهمـا ينظران الى نفر من الفلاحين يحملون الفئوس والمناجل ويزرعون ويحصدون فى الارض ٠

يخاطب عالم الآثار الفرنسى صديقه المفتش الانجليزى :

ان هؤلاء الجهلاء يا مستر بلاك أعلم منا ! ان هذا الشعب الذى نحسبه جاهلا ليعلم أشياء كثيرة ٠٠ ولكنه يعلمها بقلبه لا بعقله ٠ ان الحكمة العليا فى دمه ولا يعلم ، والقوة فى نفسه ولا يعلم ٠ هذا شعب قديم ٠ جيء بفلاح من هؤلاء واخرج قلبه تجد فيه رواسب عشرة آلاف سنة من تجاريب ومعرفة رسب بعضها فوق بعض ، وهو لا يدرى ٠

نعم هو يجهل ذلك ٠ ولكن هناك لحظات حرجة ٠٠ تخرج فيها هذه المعرفة وهذه التجاريب ٠٠ فتسعفه ٠٠ وهو لا يعلم من أين جاءته ٠٠ هذا ما يفسر لنا نحن الاوربيين تلك اللحظات من التاريخ التى نرى فيها مصر تطفر طفرة مدهشة فى قليل من الوقت ٠٠ وتأتى بأعمال عجاب فى طرفة عين ٠ كيف تستطيع ذلك ان لم تكن هى تجارب الماضى الراسية قد صارت فى نفسها مصير الغريزة، تدفعها الى الصواب وتسعفها فى الاوقات الحرجة وهى لا تدرى ٠

لا تظن يا مستر بلاك أن هذه الآلاف من السنين التى هى ماضى مصر قد انطوت كالحلم ولم تترك أثرا فى هؤلاء الاحفاد ٠ أين اذن قانون الورثة الذى يصدق حتى على الجمـاد ؟ ولئن كانت الارض والجبال ان هى الا وراثة طبقة عن طبقة ، فلماذا لا يكون ذلك فى الشعوب القديمة التى لم تتحرك من ارضها ، ولم يتغير شىء من جوهرها أو طبيعتها ؟

نعم أن أوربا سبقت مصر اليوم .. ولكن بماذا ؟ . بذلك العلم المكتسب فقط .. الذى كانت تعتبره الشعوب القديمة عرضا لا جوهرا ، ودلالة سطحية على كنز دفين ، لا تعتبره فى ذاته كل شىء! .. ان كل ما فعلناه نحن الاوربيين الحديثى النشأة ان سرقنا تلك الشعوب القديمة هذا الرمز السطحى دون الكنز الدفين .. كذلك جىء بأوربى وافتح قلبه تجده خاليا خاويا . الاوربى انما يعيش بما يلقن ويعلم فى صغره ، لأنه ليس له تراث ولا ماض يسعفه بغير أن يتعلم .. احرم الاوربى من المدرسة يصبح أجهل من الجهل . قوة أوربا الوحيدة هى فى العقل .. تلك الآلة المحدودة التى يجب أن نملأها نحن بارادتنا ، أما قوة مصر ففى القلب الذى لا قاع له . ولهذا كان المصريون القدماء لا يملكون فى لغتهم القديمة لفظة يميزون بها بين العقل والقلب ، والعقل والقلب عندهم كان يعبر عنهما بكلمة واحدة هى : القلب ..

وسكت الاثرى الفرنسى برهة ونظر الى وجه مستر بلاك ليتعرف على أثر ما قاله فيه ، فوجد ملامح جامدة وشفتين تنفرجان عن ريبة وشك .. وهم بالنهوض وهو يقول متهكما :

ـ انكم معشر الفرنسيين تضحون بالحقائق فى سبيل الكلام ..

فأجلسه مسيو فوكيه بيده وقال محتدا :

ـ الحقائق ؟ .. الحقائق معى يا مستر بلاك .. انك تنظر الى ضعف هذا الشعب الآن ؟ . أليس كذلك ؟

ـ وأيضا أخلاقه لا تعجبنى ..

ـ أخلاق المصريين ؟ .. ثق يا مستر بلاك أن الفاسد من هذه الاخلاق ليس من مصر ، بل أدخلته عليها أمم أخرى كالبدو أو الاتراك مثلا .. ومع ذلك فلا يؤثر هذا فى الجوهر الموجود دائما ! . احترسوا أيها الانجليز من هذا الشعب .. فهو يخفى قوة نفسية هائلة !

ـ يخفيها أين يا مسيو فوكيه ؟

ـ فى البئر العميقة التى خرجت منها تلك الاهرامات الثلاثة .

فقال الانجليزى فى فتور :

ـ الاهرامات ؟

ـ نعم الاهرامات .. التى قال عنها فيلون البيزنطى فى كتابه عجائب الدنيا السبع : « كان اولئك القوم يصعدون الى الآلهة ،

وكانت الآلهة تهبط اليهم » .. وحتى العلماء الحديثون يعجبون كيف أن عملا كهذا أمكن تنفيذه .. وعلى حد قول موريبه عالمنا الاثرى : « انه حلم فوق مستوى البشر ، قد تحقق مرة على هذه الارض ، ولكنه لن يعود ابدا ، تلك هي الاهرمات »

فنظر الانجليزى وقال باسما :

ــ وكل هذا خرج من بئر .. اى بئر ؟!

فأشار مسيو فوكيه بأصبعه الى الجهة اليسرى من صدره وقال : هذا .. القلب !

وصمت الفرنسى والانجليزى لحظة .. وساد السكون .. ثم استوى مسيو فوكيه فى كرسيه وأشعل سيجارة .. واستطرد فى كلامه يحاول أقناع المفتش الانجليزى !

ــ نعم ، لنا العذر نحن الاوربيين الا ندرك هذا .. ان لغتنا هى لغة المحسوسات .. اننا لا نستطيع ان نتصور تلك العواطف التى كانت تجعل من هذا الشعب كله فردا واحدا يستطيع أن يحمل على اكتافه الاحجار الهائلة عشرين عاما ، وهو باسم الثغر مبتهج الفوائد ، راضيا بالالم فى سبيل المعبود . انى لموقن أن تلك الآلاف المؤلفة التى شيدت الاهرام ما كانت تساق كرها كما يزعم هيرودوت الاغريقى عن حماقة وجهل .. وانما كانت تسير الى العمل زرافات وهى تنشد نشيد المعبود ، كما يفعل احفادهم يوم جنى المحصول . نعم كانت أجسادهم تدمى ، ولكن ذلك كان يشعرهم بلذة خفية .. لذة الاشتراك فى الالم من اجل سبب وحد ، وكانوا ينظرون الى الدماء تقطر من ابدانهم فى سرور لا يقل عن سرورهم برؤية الخمور القانية تقدم قرابين الى المعبود . هذه العاطفة .. عاطفة السرور بالالم جماعة .. عاطفة الصبر الجميل ، والاحتمال الباسم للاهوال من اجل سبب واحد مشترك .. عاطفة الايمان بالمعبود والتضحية ، والاتحاد فى الالم بغير شكوى ولا انين . هذه هى قوتهم .

وعندئذ هب عليهما النسيم وهما فى شرفة البيت فى عربة الثرى المصرى .. وحملت هبة النسيم الى آذانهما فى هذا السكون الريفى الشامل اصوات الفلاحين يغنون عن بعد غناء جميلا ، فاشرأب الفرنسى قليلا واشار اليهم بيده وهو يقول :

ــ هل رأيت فى بلد آخر اشقى من هؤلاء المساكين ! .. أنت مفتش رى وتعلم جيدا يامستر بلاك . فهل وجدت أفقر من هذا الفلاح المصرى ولا أهول عملا ؟ . انى أعلم ذلك أيضا فقد اشتغلت بالحفر عن الآثار فى قرى الصعيد ، وخالطت بعض الفلاحين ،

وعلمت كل شيء ، عمل ليل نهار في الشمس المحرقة والبرد القارس وكسرة من خبز الذرة وقطعة من الجبن مع بعض الاعشـــاب من السريس وغيره مما ينبت وحده ·· تضحية مستمرة وصبر دائم، ومع ذلك فها هم يغنون ·· أتسمع هذه الاصوات المجتمعة الخارجة من قلوب عدة ؟ ·· الا تخالها خارجة من قلب واحـد ؟ ·· انى اؤكد أن هؤلاء القوم يحسون لذة فى هذا الكدح المشترك · هذا أيضا الفرق بيننا وبينهم ·· ان اجتمع عمالنا على الالم أحسـوا جراثيم الثورة والعصيان وعدم الرضا بما هم فيه ·· وان اجتمع فلاحوهم على الالم أحسوا السرور الخفى واللذة بالاتحاد فى الالم ·· ما أعجبهم شعبا صناعيا غدا !

اسند المفتش الانجليزى يده الى جبينه لحظة كالمتأمل ثم قال :

ـ ما كنت أحسبك جادا وانت تفهمنى أن بين مصر اليــوم ، ومصر بالامس علاقة ··

اجاب العالم الفرنسى :

ـ وأى علاقة ! ·· قلت واقول أيضا أن الجوهر باق دائما ·· أن هؤلاء الفلاحين الذين يغنون من قلب واحد ·· المتعددين الذين تجمعهم العاطفة والايمان فى واحد ، مازالوا يعون بقلوبهم ، وهم لا يدرون ، تلك العبارة التى كان اجدادهم يندبون بها موتاهم فى الجنائز فيقولون : « عندما يصير الوقت خلودا سنراك من جديد ·· لانك صائر الى هناك ·· حيث الكل فى واحد » ·

وها هم اليوم الفلاحون الاحفاد من جديد ·· يذكرون فى أعماق قلوبهم ان الكل فى واحد ··

نعم ، ومع ذلك فلو ذكرت أن هذه العواطف هى التى شيدت الاهرام ، لزال عجبك ، والا فكيف كنت تريد أن يبنى هذا الشعب بناء كهذا أن لم يكن هذا الشعب كله قد تحول فى وقت ما الى كتلة آدمية واحدة تستعذب الالم فى سبيل واحد · أنه « خوفو » ·· ممثل المعبود ورمز الغاية !

ولمعت عينا الانجليزى لمعانا لا أحد يدرى أن كان بارقة الاعجاب، أو القلق ، وهمس وهو يفكر : صدقت ··

فاردف الاثرى الفرنسى يقول وكأنما قد وصل الى النتيجـــة النهائية بعد تلك المقدمات ·

ـ ان هذا الشعب المصرى الحالى مازال محتفظا بتلك الروح·· روح المعبد ·· اجل ، لا تستهن بهذا الشعب المسكين اليــوم ، ان القوة كامنة فيه ولا ينقصه الا شىء واحد ··

ـ ما هو ؟

ـ المعبود .. نعم ينقصه ذلك الرجل منه الذى تتمثل فيه كل عواطفه وامانيه ويكون له رمز الغاية .. عندذاك ، لاتعجب لهذا الشعب المتماسك المتجانس المستعذب ، والمستعد للتضـــحية اذا أتى بمعجزة أخرى غير الاهرام .

## ● وتاتي المعجزة

وتمضي الايام .. وتمضي معها تلك الحياة الرتيبة المألوفة التى تحياها تلك الاسرة المصرية بين حى السيدة زينب وبين قرية فى الريف . ويحدث الحدث الكبير الذى غزا قلب كل فرد فى هـــذه الاسرة الصغيرة ، وهز قلب كل فرد فى الاسرة المصرية الكبيرة .. فيختتم الاديب الـــكبير .. الفنان المصرى الملهم توفيق الحـــكيم روايته القومية المصرية « عودة الروح » فيكتب :

« لقد صدق نظر الاثرى الفرنسى ! أمة أتت فى فجر الانسانية بمعجزة الاهرام لن تعجز عن الاتيــــان بمعجزة أخـــرى .. أو معجزات ! .

« أمة يزعمون انها ميتة منذ قرون ، ولا يرون قلبهــــا العظيم بارزا نحو السماء بين رمال الجيزة ! ..

« لقد صنعت مصر قلبها بيدها ليعيش الى الابد !

لعل هذا الاثرى الذى يحيا فى الماضى كان يرى مستقبل مصر أكثر من أي انسان : ففى شهر مارس .. مبدأ الربيع .. فصل الخلق والبعث والحياة .. اخضرت الاشجار بورق جديد ، وحبلت وحملت اغصانها الاثمار .. كذلك مصر أيضا .. قد حبلت وحملت فى بطنها مولودا هائلا . الثورة المصرية الكبرى ســـنة ١٩١٩ . وهاهي ذى مصر التى ماتت قرونا تنهض على أقدامها فى يوم واحد .. أنها كانت تنتظر ، كما قال الفرنسى ، ابنها المعبود .. رمــز آلامها وآمالها المدفونة ، يبعث من جديد .. وبعث هذا المعبود من صلب الفلاح !

وكان اسمه سعد زغلول ..

# رحلة حول الشخصية المصرية

سمعت هذه القصة من أحد كتاب صحيفة « الاهرام »

عندما زار جمال عبد الناصر المبنى الجديد الذى شيدته الصحيفة في أوائل الستينيات ، كان الكتاب والادباء الكبار الذين يؤلفون الصالون الادبى والفكرى فى الصحيفة ، فى مقدمة الذين استقبلوه تحية وترحيبا ٠٠ وجرى بينه وبينهم حديث فيه شيء من النقد ، وفيه شيء من الدعابة ٠٠

نظر الى الدكتور لويس عوض وقال : أنت تمثل مصر الفرعونية ٠

وقال للدكتورة بنت الشاطىء : وأنت تمثلين مصر الاسلامية ٠

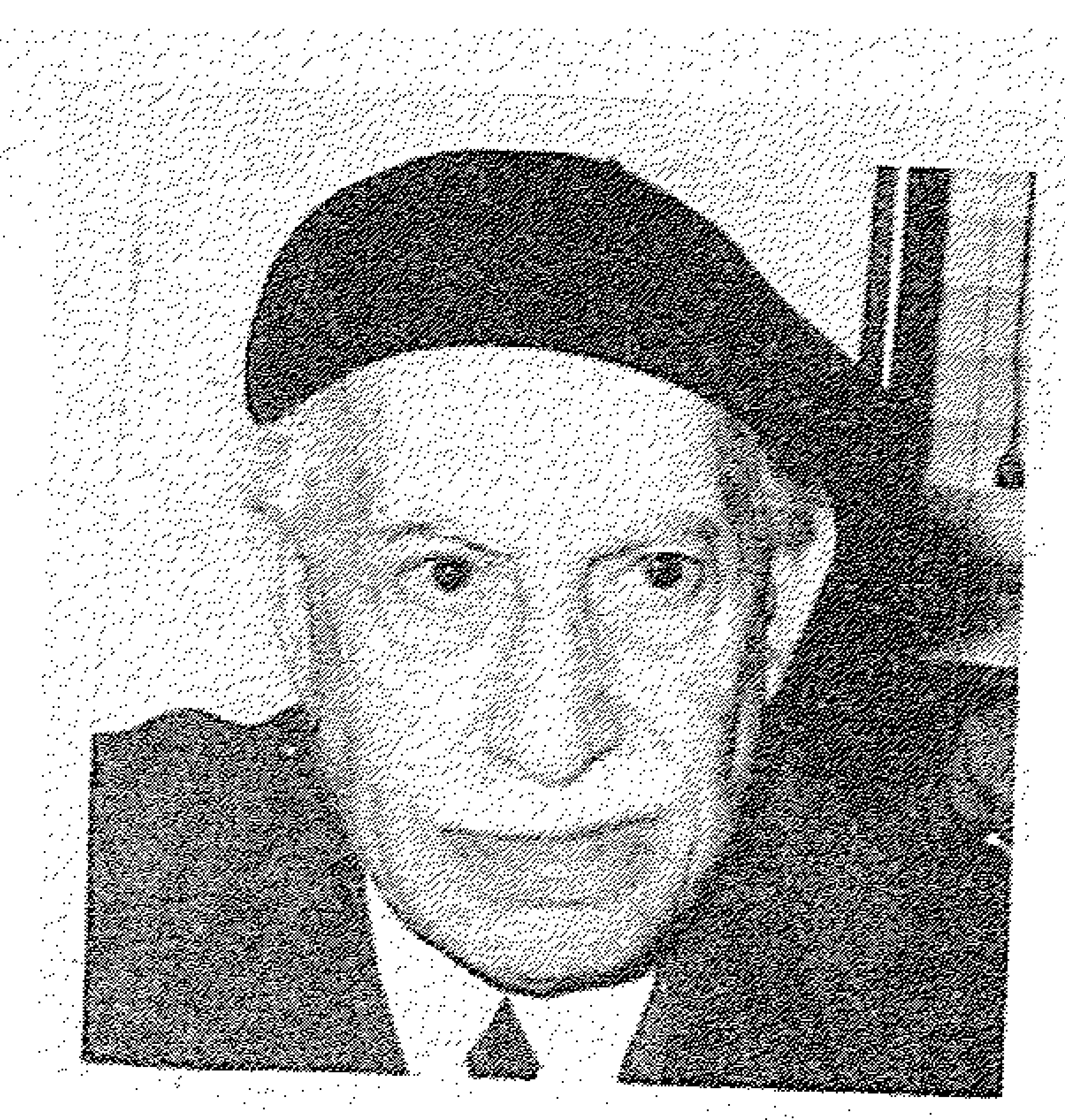
وحول نظره الى الدكتور حسين فوزى وقال : وأنت تمثل مصر الاوروبية ٠

وقال للاستاذ نجيب محفوظ : وأنت تمثل مصر القاهرية

ثم تريث قليلا ٠٠ ورفع صوته وقال بصوت واضح ونظرته مصوبة لهم جميعا : أما الاستاذ توفيق الحكيم فانه يمثل



د٠ لويس عوض — عائشة عبد الرحمن — د٠ حسين فوزى — نجيب محفوظ



مصر الحقيقية .. مصر التى أعرفها .. ويعرفهـــا الشعب المصرى .

وهذا صحيح .. وهـــذا هو ما يرفع توفيق الحكيم الى مكانة خاصة بين جميع الادباء والكتاب .

ومقالة توفيق الحكيم « رحلة حول الشخصية المصرية » .. هى حديث من القلب ، ومن العقل ، عن مصر الحقيقية .

كتب توفيق الحكيم هذه المقالة وهو فى سن الستين أو بعد أن جاوزها ، كتبها بروح الفنـــان العاشق الذى كتب « عودة الروح » وهو فى سن الثلاثين أو قبل أن يبلغها ..

وفيما بين قصة عودة الروح ومقـــال الشخصية المصرية راح توفيق الحكيم يجـــوب آفاقا وآفاقا من الادب والفن والفلسفة والفكر ، ويخرج ثمـــرات جولاته فى مسرحيات وقصص ذات نماذج أدبية مبتكرة ومختلفة ، ويخرجها أحيانا فى صورة المقالة الانيقة أو الرســـالة الشائقة التى تتدفق أفكارا وملاحظات نيرة بصيرة .. وهو فى كل هذا لا يبتعد عن الشعور بمصريته ، والتفكير بمصريته ، والحب والتغنى بمصريته .. وحتى السخرية والدعابة بمصريته !

ان رحلة توفيق الحكيم حول الشخصية المصرى هى باقة من الزهور والورود التى نثرها الاديب المفكر الكبير على مصر ، وعلى المصريين .. فلنتنسم قليلا من هذه الباقة العاطرة .



ما هى مصر ؟ .. تلك التى تشغلنا فى بعدنا
عنها أكثر مما تشغلنا فى قربنا منها ؟! ..
يبدو لحبنا لها أنها شيء بسيط جدا قد تبدو فى
أغنية أو زجل أو موال .. ونراها فى البسطاء
من أبنائها .. من أهل ريفها وحوارى مدنها ..
هذا صحيح . ولكن هذا ليس كل شيء . انهـا
ليست من الضآلة بحيث يمكن حصرها فى هذا النطاق الضيق .
انها شيء عظيم جدا . ممتد فى الزمن ، متعمق فى الاثر . أن ما نسميه
« مصر » جسما وروحا وشخصية ، يشبه الانسان العظيم ..

عندما نريد أن نحيط بشخصية أنسان عظيم ، ماذا نفعل ؟ ..
هل نبحث عنها فى مشاعره أو فى مباذله أو فى تفكيره ؟ .. هل
نحاول أن نراه وهو يعمل ويكدح ، أو وهو يغنى ويطرب أو وهو
يضحك ويهزل ، أو وهو يصلى ويؤمن ، أو وهو يفكر ويتأمل ...؟

فى حجرتى القديمة تلك ، سألت نفسى وقتئذ هذا السؤال ..
وكنا خارجين لتونا من ثورة ١٩١٩ ، وكل همنا البحث عن شخصيتنا
التى نطالب باستقلالها ، وكانت أقرب الموارد الينا أحياؤنا الشعبية
وريفنا ... الملاءة اللف والجلباب الازرق ... واتجهنا الى هـذه
الناحية بكل قوانا . بكل ما عندنا من حب ومن قدرة على خلق أو
تصوير . ثم اتصلت بالحضـارة فى هـذه المتاحف والمعارض
والجامعات وأخذت الكتب تتكدس فى حجرتى الصغيرة ، ولا أجد
لها مكانا ، فتدفقت أكوامها على أرض الحجرة . وصرت أحبس نفسى
ليلى ونهارى مع رغيف خبز طويل أحشوه بالجبن ، وأجعله غذائى
طول يومى ، أقضم منه بين حين وحين ووجهى غارق فى الصفحات
وكنت أسائل نفسى : ما هى مصر ؟ .. ما هى شـخصية مصر ؟
.. ان مفهوم الشخصية عند هذه الامم المتحضرة غير مفهومها عندنا
.. انها ليست فى ناحية واحدة من نواحى الامة ... انها مجموع
هذه النواحى جملة . فيما هو فى القلب وفى الرأس معا . انهـا
عند شعراء الريف الذين يكتبون بلغته المحلية من أمثال مستـرال

وروماندل وأوبانيل ، كما هي عند المفكرين الفصحاء من أمثال فولتير وراسين وباسكال ، والعالم يعرف شـخصية روسـيا في أغاني الفولجـا ، كما يعرفها في موسـيقى كورساكوف وتشايكوفسكي ويراها في باليه البولشوي ذى الاصل الاوربي الغربي ، كما يراها في الرقصات الشعبية . هذا التكامل هو الذى يطلعنا على كل الملامح ويرينا الشخصية في مختلف أوضاعها . ان الشخصية ليست صفة جامدة ثابتة الا في الجسم الميت . أما في الجسم الحي ، أو القابل للحياة ، فهي صفة حية متحركة . تتغير وتتطور تبعا لما تتلقاه من غذاء ومن تأثير . شأن الانسـان الحي الذي تتكون شخصيته مما تتغذى به من أحداث وتجارب ومعارف في حلقات العمر المختلفة . ومصر الحية التي تتكون حلقات عمرها الطويل من تيارات فكرية شتى في عهود متباينة ، من الوثنية الى المسيحية الى الاسـلام . لابد ان تكون قد هضمت كل ذلك . وشـكلت منه بعض ملامح شـخصيتها . اذن لم تكن مصـادفة أن أعود الى مصر لاكتب « أهل الكهف » المأخوذة عن القرآن في موضـوع مسيحي . وعن تفكير في الزمن وثني – فرعوني ! .. حبي لمصر انتقل اذن الى ناحية أخرى ، هي محاولة ربط حلقات هذه التيارات الفكرية في هـذه العهود من عمرها المديد .. ثم جعلنا نناقش في الثلاثينات شخصية مصر على أساس جديد بعد ثورة سنة ١٩١٩ ، مختلف عن الاساس الذى كان معروفا بعد ثورة عرابي . في مفهوم عبد الله النديم مثـلا أو محمد عبده ... وكانت المناقشات تتخذ شكلا علنيا منشورا ، كتلك التي كانت مع الدكتور هيكل والدكتور طه ومعي ، أو شكلا خاصا شفويا مع أصدقاء كالدكتور حسين فوزى ، الذى نشر فيما بعد كتابه القيم « سندباد مصرى » . وكنا كلنا متفقين في الرأي والاتجاه . وان شخصية مصر هي في تكامل ملامحها ومسار تفكيرها عبر القرون والاحقاب . ويظهر أنه في فترات الثقافة الكبرى تكون النظرة الى مصر هذه النظرة الكبرى . فلا يكتفى برؤية ملامح مصر في مجرد أزجال ومواويل وسامر ونكات ورقص بطن ، وينظر الى هذه الاشياء بسذاجة ، على أنها الاصالة ، بل كانت تؤخذ كمنابع وحي لفن أرقى جدير بشخصية مصر الحية في عصر جديد . ولذلك استخدمت الاساطير والفولكلور وألف ليلة وليلة في أدب الثلاثينات وفنه التشكيلي على النحو الذى استخدمه سترافنسكي وبارتوك ودى فاليا للاغاني الشعبية الروسية والمجرية والاندلسية . ولو كان سيد درويش على ثقافة موسيقية مماثلة لفعل نفس الشيء . ولكن عبقريته أسعفته في الاحساس والمضمون وقصرت في الشكل والاسلوب ،

وقد فطن هو نفسه الى ذلك ، شأن الفنانين الحقيقيين ، وأراد السفر الى روما لدراسة الموسيقى على أصولها ، ليملك القدرة الكاملة على استخدام أحدث وسائل التعبير وأدوات التطوير ، ولكن الاجل لم يمتد به ليحقق هذا الامل . ولو فعل وكان لابد فاعلا لظهرت ملامح مصر فى تلك الفترة مع تمثال مختار وجامعتها الفتيه واضحه المعالم ، مستيقظة الروح ، متهيئة لنهضة حقيقية تتمشى مع عصر حديث وحقبة جديدة من حياتها المستمرة مدى العصور ...

●●●

قال لى صديق فرنسى قابلته فى باريس ، أنه لا يستطيع أن ينسى منظرا أثار دهشته فى مصر . شارع به جميع أنواع المواصلات التى خلقها الله أو صنعها الانسان ، المترو والترام وعربات الكارو والاتوبيس والسيارات واللوريات والخيل والحمير والجمال والدراجات ، ولا ينقصه الا المراكب ... والزحام لا يمكن وصفه .. وبين السيارة والاتوبيس شعرة . وبين الماشى والماشى لا شيء سوى البهدلة . أو بالاقل اتساخ الملابس اذا لم يأخذ الشخص منتهى حذره ... ولكن العجب الذى استولى عليه هو رؤيته دراجة عليها شاب يحمل ثلاثة طوابق من الخبز ، بيد واحدة ، وباليد الاخرى يمسك « بجودون » الدراجة . ويمرق بما يحمل بين هذا الزحام مروق السهم دون أن يفقد التوازن فحسبه نجما من نجوم السيرك ، وسأل كم يتقاضى على ذلك ، فقيل ثلاثة جنيهات ، واعتقد أنها فى اليوم الواحد طبعا . فلما علم أنها فى الشهر ، كاد يصعق ... ولكنه لم يلبث أن رأى ما هو اعجب .. شخص آخر على دراجة هو الآخر ، يحمل عليها عجلى جاموس .. كل رأس عجالى معلق على طرف من طرفى مقعد الدراجة . أما المصارين والكوارع والجلود فتتدلى من الوسط . وبقية الذبيحة مبقورة البطن موضوعة أفقيا خلف مقعده ، تظهرمنها الكستليتة وبيت الكلاوى . أما الكرشة والفشة والكبدة والطحال وخلافه فهى مربوطه فوق أكتافه . وهو أيضا يمرق بحانوت الجزارة هذا الذى يحمله على الدراجة مرور السهام بين كتل الزحام دون أن يمسه سوء ! .. فالعجيب أن هذا الفرنسى لم يكن يتحدث عن ذلك بروح الانتقاد ، بل بروح الانبهار . قال : تصور أن هذا يحدث فى باريس .. فقاطعته بقولى أن باريس لا يمكن أن يكون فيها شارع بهذا الشكل . وحسب وصفه أدركت أنه شارع « الجلاء » ، فهو الذى تتجمع فيه كل أصناف المواصلات ، وفى كل مرة نسلكه ، نبتهل الى الله أن يخرجنا منه سالمين . كما أن شوارع باريس لا تسير فيها الدراجات . ولم أشاهد طوال اقامتى

فيها دراجة واحدة في شارع من الشوارع • في الريف نعم • لقد رأيت لدراجات في الجبل • أما المدن الكبرى فلا تسمح هناك بضير السيارات والاتوبيسات • أما الدراجة وغيرها مما يعرقل المرور فلا ••• ولكن الفرنسى قال : افرض فرضا أن دراجة مرت بمثل هذ الحمل ••• قلت يعترضها بوليس المرور ويمنعها فورا •• قال أنت لم تفهم قصدى • افرض أن دراجة مرت فى شارع بباريس على هذه الصورة ، انها تصبح أعجوبة • وتتناولها كاميرات التصوير ، ويصطف المارة على جانبى الشارع يشاهدون ويصفقون • ألا تدرك أن فى مثل هذا العمل من المهارة ما يثير الاعجاب • ومع ذلك فالمارة عندكم لا يلاحظون ذلك ، ولا يحفلون به ••• الواقع أن الاوربيين شديدو الملاحظة لما عندنا من مهارات ••• وفى أثناء الحرب العالمية الثانية كنت أقطن بانسيون ، ينزل معى فيه ضابط من كبار الضباط الانجليز • وكانت تجمعنا مائدة العشاء ••• كان دائم الحديث عن عامل مصرى فى الجيش فى قسم الصيانة ، بعين وحدة • كان يذكر مهارته الفائقه فى الصناعة الدقيقة ، مما جعل الانجليز يحلو لهم مشاهدته وهو يعمل ، ولا يتصورون وجود عامل انجليزى يستطيع تأدية هذا العمل الدقيق بمثل هذه المهارة • وكانوا يرددون فيما بينهم : « هذا الرجل ذو العين الواحدة ؟ » وقد أصبح عندهم أسطورة •• ؟

هذه أمثلة بسيطة تحضرنى ، ولها ألوف من النظائر • وهى تدل عندى على أن مصر عندما تفقد قوتها الفكرية لسبب من الاسباب . أهمها الاحتلال الاجنبى الطويل ، فانها لا تموت • لانها لا تعرف الموت • ولكنها تعوض ذلك فى الحال بالمهارة اليدوية •••

●●●

من أبرز الملامح لشخصية مصر ، أنها تستطيع أن تجمع الايمان والعلم والفن فى شخص واحد ، أو عمل واحد ، أو مكان واحد ، على نحو عجيب • نرى ذلك منذ حلقات عمرها الاول فى العهد الوثنى ـ الفرعونى • فالهرم يجمع بين الاعجوبة العلمية الهندسية الرياضية الفلكية ، بل أيضا التكنولوجية الاولى فى رفع أحجار بهذه الضخامة ، وبين الشكل الفنى ، وبين الايمان الذى دفع اليه وقام خلفه ••• وجاء العهد المسيحى ، وظهرت الاديرة وفيها المكتبات والعلوم والايقونات واللوحات والمخلفات الفنية ثم الايمان الذى يضىء كل الاركان ••• وأخيرا العهد الاسلامى ، وفيه تتضح هذه الملامح على أبرز وجه • فالمساجد آية فى روعة الفن وجمال الزخرف ، وفيها حلقات الدرس وجلة العلماء العاكفين على احياء العلم ، بكل فروعه

المعروفة في عصرهم من فلك ورياضيات ومنطق وطب ، وكل مايحرك العقل ، وهذا جميعه مع الايمان الذى يعمر القلب ·

ان مصر فى حالة يقظتها ونهضتها تتخذ حضارتها دائما شكل الحضارة الكاملة الجامعة لكل العناصر · انها ليست على غرار الامم التى تتخذ فيها الحضارة شكل الموجات ، ففى عهد تطغى موجة لايمان ، وفى عهد تطغى موجة العقل ، عصر للروح وعصر للمادة ·· مصر لا تعرف ولم تعرف فى أى حلقة من حلقات عمرها الطويل حضارة الموجات · بل حضارتها دائما حضارة التكامل وتجميع العناصر ·· الروح والمادة معا ·· الدين والعلم والفن معا ·· فاذا تركنا الامة كمجموعة ، ونظرنا الى الفرد ، الى الانسان المصرى فاننا نجد تركيبه هو نفس التركيب ·· وكأن ملامح الفرد صورة لملامح أمته ، أو كأن ملامح أمته تعكس صورتها عليه ·

من ملامح شخصيتنا المصرية التسامح · كل الاديان والمذاهب تعيش فى مصر آمنة جنبا الى جنب · لم تعرف مصر فى تاريخها الطويل تلك المجازر الطائفية التى تسيل فيها الدماء أنهارا على غرار ما حدث فى البلاد الاخرى · معدة مصر القوية تهضم كل شىء ، ولا يبقى فى النهاية غير مصر · لذلك لا نستغرب اذا رأينا كثيرا من النذور يقدمها المسلمون الى جانب المسيحيين لسانت تيريز ومار جرجس ·· وعندما كنا أخيرا فى جبال الالب سألنى مرافقى وهو شديد الاحساس بدينه واسلامه عما اذا كان فى البلدة كنيسة ، فلما دلونا عليها ، صار يذهب بى كل صباح اليها ويوقد شمعة يضعها تحت أقدام مريم العذراء · كان تمثالها الذهبى الكبير وهى تحمل رضيعها والنور الالهى يحيط به يملأ النفس خشوعا وجلالا ، فكان يتركنى وينتحى ناحية يقف طويلا ووجهه الى السماء يبتهل الى الله صاحب كل الاديان ·· ولكن هذا التسامح الذى جاء نتيجة العراقة وحكمة العمر الطويل عبر القرون ، ينزلق أحيانا عندنا الى التساهل ، والتساهل هو الوجه الممسوخ للتسامح · هو التغاضى عما يجب أن يؤخذ بحزم فى شئون العمل والحياة · ولذلك عرف عن مصر أيضا أنها بلد « ما عليهش » · يخطىء المخطىء ويهمل المهمل فاذا ساءلته قال باستخفاف : ما عليهش ! ··

بل ان الرئيس المسئول يرى خطأ أحد مرؤوسيه أو اهماله فى عمل من الاعمال أو واجب من الواجبات، فاذا نبهه الى ما ارتكبه المرؤوس قال فى شىء من التراخى : « يا سيدى ما عليهش ! ·· » · وهذا داء خطير عندنا فى مجال الانتاج والتقدم · اذا استطعنا أن نفصل

التساهل عن التسامح ، كما يفصل العشب الضـــار عن الشجرة المباركة ، فاننا نكون قد احتفظنا بالنقاء والصفاء لملمح جميل من ملامح شخصيتنا · ولكن المسألة ليست بهذه السهولة · فالعشب هو أيضا لاصق بالشجرة منذ أمد طويل ، وما هو المنجل الذى يفصل بينهما ؟ ·

● ● ●

كان فى ظننا الى عهد بعيد أن من ملامحنا الخاصة بنا ما يسمى بالغيبيات · ولكن أوروبا منذ مطلع القرن بدأت تظهر فيها نزعات غيبية على نحو جماهيرى · فكثرت الاعلانات فى الصحف والمجلات عن المنجمين والمنجمات · وكنت فى العشرينات أقرأ مثل هـــذه الاعلانات · فأخذت أفكر فى هذه الظاهرة · كيف أصبح التنجيم بضاعة رائجة فى باريس ؟ وظهر فى تلك الاثناء لاستاذ جامعي محترم اسمه فيما أذكر شارل ريشيه كتاب عما أسماه الحاسة السادسة يعرض فيه تفسيرات لخوارق ما كان يتعرض لها العلم من قبل · أتراها الحرب العالمية الاولى وما جرت من كوارث وهزت من نفوس أثرت فى عقول الناس ، وجعلتهم يلتمسون العزاء أو الهرب فى عوالم خفية ، أو أنه تحول فى مجرى الحضارة الاوروبية ذاتها ، وحاجتها الى مسالك جديدة الى المعرفة ؟ ·· ربما كان السببان صحيحين · وأحدهما لا ينفي الآخر · وان كان ذلك التحول الحضارى قد بدأ قبل الحرب العالمية الاولى بزمن ليس بالقصير · وفى رأيى أن حملة نابليون الى مصر واكتشاف حجر رشيد على يد شامبليون غير مفهوم أوروبا بالامس عن حضارتها · فقبل هذه الحملة واكتشاف العلماء لمصر كأن الاساس الحضارى لاوروبا والغرب كله هو اليونان القديمة بمنطقها الظاهر وفنها العارى وفكرها الواضح · فلما عرفوا مصر أدركوا أن هناك دنيا أخرى لها منطقها الخفى وفنها الغامض وفكرها الغائر فى المجهول · ولكن تأثير مصر أخذ وقتا طويلا ليشق له تيارا فى أوروبا الى جانب التيار اليونانى · ومهدت مصر لهم الطريق لاكتشاف أفريقيا كلها · وخاصـــة أفريقيا الفن والكهانة والسحر · وما أن جاء هذا القرن حتى كانت أوروبا قد فطنت وذهلت للقوة الخفية الكامنة فى فننا المصرى القديم ، وللمؤثرات الساحرة لفن الاقنعة الافريقى ، بل وللقوى العلاجية العجيبة لايقاعات الطبول والرقص عند قبائل أفريقيا ·· وجعلوا يدرسون كل ذلك بعناية · وظهر تأثير الخطوط المبسطة الصارمة والكتل الحجرية المهيبة فى فن مصر على فن أوروبا التشكيلى ، كما ظهر تأثير ايقاعات الطبول الافريقية على الموسيقى ، والكهانة وســـحرها على علوم النفس

والتنجيم .. ومن يتابع نشاط بيكاسو وبول كلية وكاندنسكي قبل عام ١٩١٠ يجد هذه الاتجاهات والتأثيرات . ومنهم من قال صراحة أنه ذهب الى أفريقيا ليكتشف طريقا جديدا لفنه . وظهرت المدارس التي تدعو الى الاهتمام بمعجزات الفطرة الخلاقة عند الاطفـــال والشعوب البدائية ، وتأثرت بالفعل بعض الاساليب الفنية الحديثة في أوروبا بهذا الاتجاه . كما جاءت المدارس السوريالية والدادية وغيرها بفكرة تخطي حاجز العقل المنطقي والوعي الظاهر ، للنفوذ مباشرة الى منطقة الوعي الخفي .. كل ذلك كان يدل في عشرينيات هذا القرن على أن أوروبا في سبيل تحول حضاري يدخل في حسابه دراسة الغيبيات الى جانب العقليات . ولكن كل هذا كان يمارس على الطريقة الاوروبية .. بمعنى أن الغيبيات كانت تدرس بواسطة العقليات .. وهنا الفرق بيننا وبينهم . ان الغيبيات عندنا جزء منا ، لا يخطر ببالنا أن نقطعه ونفصله وندرسه . ولكنها بالنسبة اليهم شيء منفصل ، يريدون ضمه واضافته بالدراســـة والعلم والفن ..

● ● ●

يبدو أننا علمنا الدنيا البناء للخلود . ونسينا اليوم أن نعلمه لانفسنا . هذه الاهرام الباقية على مدى الزمان . وهذه المساجد بأحجارها الضخمة منذ قرون .. شيدتها أيدينا المصرية لتتحدى الغد . وقد تحدته بالفعل . العالم المتحضر اليوم يفعل ذلك . بهذه الرافعات العملاقة التي رأيتها في أوروبا يقوم البناء العملاق المتحدي . انهم يبنون كأنهم يعيشون أبدا ، على الرغم من شبح الحروب وقلق الدمار ، ونحن نبني كأننا سنموت غدا . أبنية هزيلة هشة توحي بالزوال . أترانا قد شبعنا خلودا ؟! .. أو أن من خصائصنا المصرية الشعور بالبقاء .. تجده اما في كتلة الاحجار واما في كتلة الشعب المصري !.. فمصر تشعر دائما بقوة صمودها للزمن، بكتلة أحجارها أو بكتلة شعبها . والأحجار عندما تبلى تجد من يرمها ، والشعب أيضا في حاجة الى ذلك . ولكن شعب مصر في صبره الطويل على الزمن والمحن ينسى نفسه ، وينسى فكرة الترميم . لا لحياته فقط ، ولكن لمبانيه أيضا . يتركها كما هي وهو يعلم أنها آيلة للسقوط . قلما تعرف أوروبا المنزل الايل للسقوط ، وتتركه حتى يسقط . الصيانة هي روح البقاء عندهم . ونحن لا نعرف كلمة الصيانة . لا لصحة الجسم ولا لصحة المبنى . ان الانفاق الجديدة المحفورة اليوم في باريس ، للمترو أو السيارات لشيء يدعو الى الدهشة . ومن طولها أصبحت شوارعها تحتية . وقد اتعبني السير فيها .

وخاصة وساقى مريضة . والنسيان قد زاد عندى فلم أحفظ اللافتات الموجهة ، فاسير واجهد في السير ثم أكتشف خطا طريقي فأعود ادراجي لاسلك نفقا آخر أكثر منها طولا . سألت نفسي : لماذا كل هذه الطرق تحت الارض ؟ .. لاشك أنهم يخططون للمستقبل ويدركون أن الشوارع العادية فوق الارض لن تكون ورقة ملقاة صادفتها في طريقي .. قد نفطن غدا الى ضرورة هذه الانفاق ، ولكن الى أى مدى ستبقي كانفاق ، ولا تنقلب الى مباول واكوام قاذورات ؟ من السهل أن نستعيد القدرة على البناء ، لكن هل من السهل أن نغرس روح الصيانة ؟! . وهل الشعب الذى لايعرف الصيانة لبدنه يستطيع أن يعرف الصيانة لمبانيه .. ؟! كم من الشعب من يذهب الى الطبيب ، قبل أن يخر صريع المرض ؟! .. ان مشكلة الصيانة لهذه الانفاق يوم تنشأ أخطر وأعسر من مشكلة البناء !

● ● ●

هناك نوع من الصيانة نعرفه .. وربما اعتبر فى خصائصنا المصرية . ذلك هو صيانة عاداتنا من التغيير السريع ، نجد ذلك في بعض المطاعم القديمة الشهيرة كما نجده فى عيادات بعض الاطباء القدماء المشهورين . كنت فى الشتاء أذهب مع جماعة من الاصدقاء يوم الجمعة من كل اسبوع لنتناول طعام الغداء في مطعم شعبى للشواء أى الحاتي فى حى من أحياء القاهرة الشعبية . بعض هذه المطاعم معروف من عشرات السنين ، ومزدحم دائما بالزبائن من شتى البلاد ، وأحيانا من السائحين الاجانب وهو قلما يغير من مظهره . كأن الدنيا واقفة منذ أول انشائه . لايخطر بباله أن يغير مرة من لون مناشفه أو مفارشه ، أو حيطانه . وجدت ذات يوم هذا المظهر فى عيادة طبيب كبير . المقاعد والاثاثات والابسطة العتيقة الممزقة يغطيها التراب . كل شيء عتيق ومترب مهمل وكان العنكبوت ينسج خيوط التاريخ القديم على المكان ، فيوحى اليك أنك فى عيـــادة الطبيب الخاص لآدم عليه السلام ! .. سألته مرة فى ذلك فقال انه يستبشر بهذا ويتفاءل . لان العيادة على هذا النحو من قديم جاءت له بالنجاح . وأنه يتشاءم من أى تغيير .. ولست أدرى ماهي الصلة بين النجاح الاول وبين الوقوف عنده بلا تغير . أقارن هذا بما حدث لنا أخيرا فى باريس . رأينا فى أحد المتاجر الشهيرة قطعة قماش معروضة فى مكان من المحل أعجبت مرافقي وأراد شراءها ، ولكنه تردد لارتفاع سعرها واحجم وانصرفنا . ولشدة تعلقه بها شجعته على شرائها ، وذهبنا فى اليوم التالى لنبحث عنها فى موضعها حيث تركناها ، فوجدنا المواضــع كلها قد تغيرت :

والمعروضات قد اتخذت شكلا جديدا . وعبثا حاولنا العثور عليها .
هكذا بين يوم وليلة تتغير أوضاع المحل ؟! نعم . قالت لنا البائعة :
لابد أن تقع عين الزبون على شكل جـــديد فى كل يوم . وصرت
أسائل نفسى : هل الاشكال الجديدة هنا نتيجة للحركة السريعة فى
الفكر والخيال ؟ . أو أن سرعة الايقاع للفكر والخيال فى هذه الامم
هى التى تستوجب التغير المستمر فى الاشكال ؟ . شىء آخر لفت
أنظارنا : هذه الاشكال نفسها ما هى الا وليدة خيال وذوق وفهم ..
ذهبنا لتناول طعام الغـــداء فى مطعم متخصص فى اللحم البقرى
المسلوق بالخضر مع الملح الكبير المجروش ، أو ما نسميه عندنا فيما
أظن بالملح الرشيدى . دخلنا فوجدنا المحل عجيبا بالديكور الذى
اتخذه . فسقفه عبارة عن جلد البقر ، وعلى الحيطان رسم بارز
رائع لبقرة كبيرة ، وثريات الكهرباء من قرون البقر .. وكنا قبل
ذلك قد دخلنا مطعما اسمه « عربة البريد » . تلك العربة الكبيرة
التى كان يسافر بها الناس قبل اختراع السكك الحديدية . فوجدنا
ديكور المحل يتكون كله من هذه العربة ، وكأننا جميعا داخلها يظللنا
« كبوت » العربة الضخم ، ويضىء لنا النور من فوانيس كبيرة هى
فوانيسها ، وتتدلى الشموع من عجلاتها .. وحتى سوط الســائق
والجمة الخيل وما يوضع على ظهورها وعيونها .. كل ذلك يتكون
منه الديكور ، على نحو بديع يثير الخيال . وهكذا فى كل مطعم أو
مكان نجد الخيال الخصب والذوق البديع والاشــكال الموحية قد
سبقتنا اليه . ولم يعد الامر مجرد طعام يؤكل ولا بضاعة تقدم ولا
مصلحة تقضى ، بل أيضا متعة الجو الذى ينسج حولك بذوق وفهم
وذكاء .. وهذه أيضا أدوات السياحة لكل بلد يريد أن يستقدم
زوارا وسائحين . ولكن هذه الاشياء أين نجدها ؟ ومن يعلمنا اياها ؟.
الحقيقة أن مصر كانت تملكها وتعرفها على مدى تاريخها فى فترات
يقظتها وحضارتها .. وهى التى أشعرت العالم بفن معابدها ونقوش
مساجدها وما لا يحصى من تماثيلها وأوانيها وتحفها . وكان المصرى
هو الفنان الذى يخلقها ويبدعها وهو الشعب الذى يشـــاهدها
ويتذوقها .. أين ذهب اذن هذا المصرى ؟! . خنقه الاحتلال الاجنبى
الطويل وأنساه الخلق والابتكار . وأعطاه تعليما يجعل منه فقط
العامل اليدوى والموظف المكتبى . وكل تعليم يكتفى بصب المعلومات
لن يؤدى الى خلق وابتكار . وأهم دعامتين لكل خلق وابتكار هما
الذوق والخيـــال . انى أحفظ كلمة للعـــالم اينشتين أعجبتنى
وأدهشتنى . قال ما نصه : « ان الخيال أهم من المعرفة » .. حقا
انها كلمة عجيبة ، وخاصة من رجل علم مثل اينشتين ! .. ترى ماذا

يقصد ؟! وجعلت أفكر فيها مليا . أتراه يقصد أن الخيال آلة متحركة. والمعرفة رصيد ثابت ؟ .. الخيال حركة والمعرفة سكون ؟! . أو أنه يقصد أن الخيال هو الدينامو المحرك لاجتذاب المعرفة ؟! . اغلب ظني أن هذا ما يقصد . فقد قرأت له في مجال آخر قوله ان الكثير من اكتشافاته العلمية يرجع الى الخيال والتخيل في مبدأ الامر .. اذن حتى في نطاق العلم البحت لابد من الخيال . لكن كيف نرى الخيال ؟! . الجواب نجده عند اينشتين نفسه . فقد كان من أهم هواة الموسيقى ، يعزف بيده على بعض آلاتها ، ويتذوقها أحسن التذوق . وله آراؤه الخاصة في باخ وموزار .. ولا أنسى أيضا في هذا المقام عالمنا المصرى العالمي الذى قيل أنه أحد عشرة في العالم وقتذاك تعمقوا وتابعوا بالبحث معادلات اينشتين : انه المرحوم الدكتور مشرفة . لقد كان من هذا الطراز كما تكشف لى من رسائله الى أحاديثه معى في الادب والفن .. اذن علينا أن نستنتج من ذلك قيمة الفنون والآداب في تنمية هذا الخيـــال اللازم في كل خلق وابتكار ، حتى في ميدان العلم النظرى والتطبيقي ، بل وعلى الاخص كما قال لنا اينشتين في مجال العلم وبحوثه واكتشافاته .. وهذا يفسر لنا معنى اكتمال الحضارة في كل أمة وعصر .. ان روح الخلق نجده فيها ساريا نابضا في كل فروع الشجرة الحضارية المثمرة : في العلوم والفنون والآداب والتذوق العام . كما أن الروح الخامدة نجدها في الامم المتخلفة . أخملت كل فروع شجرتها الذابلة. فأدى عقم الخيال الى ضمور التفكير وفساد الذوق العام ، وعندما يفسد الذوق العام ، كما يفسد الدم في الجسم ، وتظهر الاعراض في صورة هبوط في مستوى الوعى وشحوب في وجه الفكر ، نتيجة الطعام المبتذل والغـــذاء النـاقص في قيمته الذى يقـــدم الى الشعب ، فان العلاج هو في عملية تغيير الدم ، بأن ينقل اليه دم يحوى من قيم التغذية الحضارية أدسمها واعلاها مما يعيد الى الجسم حيويته وكفاءته ويسترد صحته وقوته ويتوهج من جديد خياله وروح ابتكاره ويلحق بالحضارة المستيقظة حوله ، فتراه بعد نومه خلفها، قد هب جالسا الى جوارها ، يتعاون معها في السير بالانسانية نحو التقدم ..

● ● ●

أتذكر حادثا لى مع بعض السلطات منذ ما يقرب من ربع قرن .. كنت أريد السفر الى فرنسا وجهزت كل أوراقى . ولم تبق سوى تأشيرة القنصلية الفرنسية . واذا بالقنصل يرفض اعطائى هذه التأشيرة ، التي لابد منها لدخول فرنسا . ولم أدر ما السبب ؟ وقيل لى اذهب اليه لتتحرى الامر . فذهبت وقابلته وسألته . فأخرج ملفا

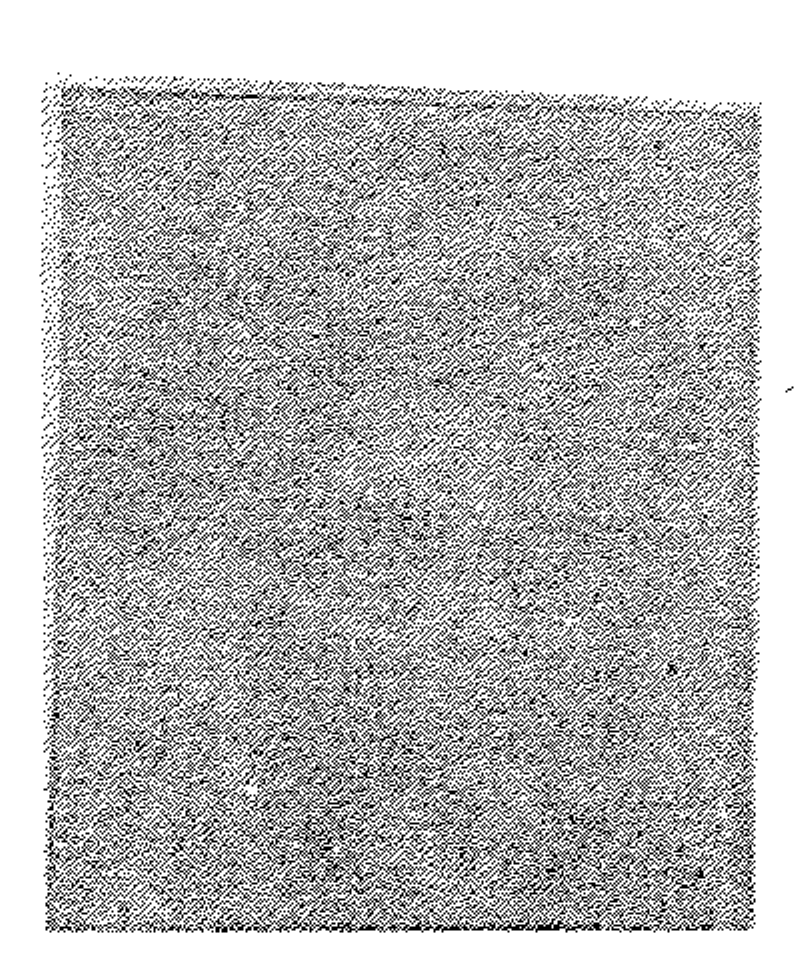
من درجه وجعل يعدد التهم . قائلا : أنت فى عام ١٩٤٣ كتبت مقالا عنيفا ضد فرنسا بعنوان « خيبة أمل » قلت فيه أن أملك خاب فى فرنسا التى تطأ بأقدامها استقلال شـــعب صغير .. الخ فتذكرت المناسبة . كان ذلك على أثر اعتداء السلطة الفرنسية فى بيروت على استقلال لبنان ، واعتقالها يومئذ رئيس جمهوريته ووزراءه ونوابه ! .. قلت له : الا يستحق مثل هذا الاعتداء على كرامة شعب شقيق أن أكتب فيه مثل هذا المقال ؟! .. فلم يلتفت الى قولى واستمر ينظر فى الملف ويقول : ثم حدث بعد ذلك أنك أهنت فرنسا برد نيشان اليها ، كانت قد أهدته اليك بمناسبة ترجمة مؤلفاتك الى الفرنسية عام ١٩٣٨ .. وهنا تذكرت أيضا المناسبة . كانت على أثر اعتداء فرنسا على تونس . وكانت مذابح وضحايا ، وتكونت فى مصر لجنة من الهلال الاحمر رأت الذهاب الى تونس بالادوية اللازمة للجرحى . واذا بالسلطات الفرنسية هناك ترفض دخول هذه اللجنة المكونة من أطباء مصريين يحملون الدواء ..

قلت للقنصل : ألا تريد منى أن أغضب لمثل هذه الاعتداءات على شعوب هى لنا بمثابة الشقيقات ؟ .. ضع نفسك فى مكانى .. ألم تغضبوا يوم اعتدى الالمان على استقلال بلجيكا ؟! فأطرق قليلا . وبدأ عليه حسن الفهم . ولكنى أنا عجبت لنفسى . ما الذى كان يغضبنى هذا الغضب !! . أنا لم أكن يوما من حملة الشعارات ، لا للوحدة العربية ولا لغيرها من مواقفنا المصرية .. انى أتصرف دائما من وحى شعورى التلقائى ونظرتى الخاصة . اذن غضباتى صادقة . لانها تابعة منى وحدى . ونظراتى أيضا لانها صادرة من تقديرى وحدى . وما دمت صادقا دائما مع نفسى وهى المنبع عندى فالامر اذن حقيقى . واذا كنت أغضب تلقائيا لما يمس أى شعب عربى ، فمعنى هذا أنه لابد أن يكون هناك شىء مشترك . عندما أقول أن أسمى هو توفيق الحكيم فان كلمة الحكيم هى الاسم المشترك الذى يقاسمنى فيه أبى وابنى وشـــقيقى . ولكن اسم توفيق هو شخصيتى أنا .. وجودى .. تجاربى .. تاريخى .. قدراتى .. عيوبى .. ظروفى .. لن أتخلى عن اسم توفيق الذى هو نفسى .. ولا أنسى اسم الحكيم الذى هو اسم الاسرة التى أنتمى اليها .. اللقب هو الانتماء ، والاسم هو الشخصية ..

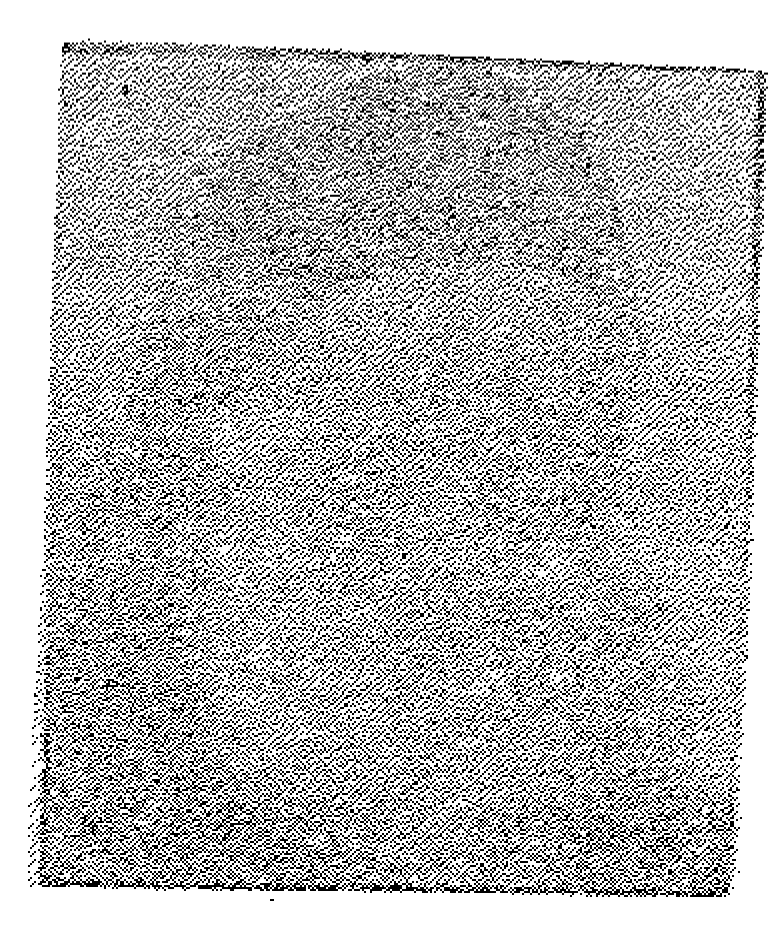
# أطول استقلال في التاريخ .. هو استقلال مصر

اذا كان المؤرخون يتحدثون عن الحكام والحكومات ، فصحيح أن مصر استمرت اثنين وعشرين قرنا تتولى حكمها أسرات وافدة من خارج مصر ، وتحمل اسماء غير مصرية ، ويتربع على عرشها حكام نبتوا من أصول أجنبية وكان أعرقهم في المصرية من كان ابنا أو حفيدا لاحد الغزاة الاجانب ! .

أما اذا أراد المؤرخون أن يتحدثوا عن « الامة المصرية » و « الشعب المصرى » فان الامر يختلف تماما .. فقد كانت هنا على أرض مصر ، وعلى مدى التاريخ ، أمة مصرية اصيلة



صلاح الدين
كرديا جعلته مصر ..
يحكم فلسطين والشام



محمد على
البانيا جعلته مصر ..
ينشىء امبراطورية

فى تكوينها ، مستقلة فى اهم امورها وحفيظة على قوميتها وخصائصها وتكاد تقتصر صلتها بهذا الحاكم أو تلك الحكومة على القيام ببعض الواجبات اللازمة لمظاهر الحكم وتكاليفه ، وكذلك دفع الضريبة أو الجزية المفروضة ، وطاعة الاوامر والقوانين مع التحايل عليها ، الى الحد الذى يحميهم من سطوة الحاكم وعسف الحكومة !

واستجاب الشعب لديانات وفدت عليه من الخارج .. استجاب لهذا مرتين فى المراحل التى يقول المؤرخون ان مصر فقدت فيها استقلالها .. فاستجابت اغلبية كبيرة للمسيحية ، ثم استجابت أغلبية كبيرة للاسلام ، ولكنها لم تكن فى هذه او تلك خضوعا من الشعب للحاكم .. فقد دخلت المسيحية ومصر تحت حكم الرومان عندما كانوا يعادون المسيحية ويعذبون معتنقيها .. وانتشر الاسلام فى مصر بعد مائة سنة او أكثر من الفتح وقيام حكم عربى اسلامى فى مصر .. فتغيير الديانة او حتى تغيير اللغة لم يكن مراعاة للحاكم او خوفا ورهبة منه . بل عن رغبة وتجاوب وعن اقتناع واعتقاد .. ولهذا فان هذا التغيير لم يفقد الامة المصرية قوميتها ، كما ان توالى الحكام الاجانب لم يفقدها استقلالها القومى !

استقلال هذه الامة المصرية اذن هو أطول استقلال فى التاريخ .

وليست هناك أمة فى الشرق أو فى الغرب كانت مستقلة فى حياتها القومية خمسة وثلاثين قرنا ، ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة ، متواصلة احيانا ، متقطعة احيانا أخرى .. سوى الامة المصرية ! ..

ولننظر الى هذه الحقيقة .. بعدد السنين وحسابها .

امامي جدول تاريخي لمصر من سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد، ، وهي السـنة التي قامت فيها الدولة المصرية في عهد مينا مؤسس الاسرة المصرية الاولى ·· ويمتد هذا الجدول أكثر من خمسة الاف سنة حتى يصـل الى ايامنا هذه ، فهو يغطي ما يناهز اثنين وخمسين قرنا !

ارى في هذا الجدول أن مصر كانت مستقلة حتى سنة ٩٤٥ قبل الميلاد ثم بدأت تفقد استقلالها أحيانا وتسترده أحيانا ، حتى فقدته تماما في سنة ٣٤١ ق·م عندما غزاها الفرس للمرة الثانية ،وعاثوا فيها فسادا وظلما ، وقضوا على آخر حاكم مصرى ، ففر الى أثيوبيا ومات هناك ··

**حسب هذا الجدول التاريخي وما يحمله من أسماء الحكومات والاسرات والحكام ، نجد ان مصر كانت خاضعة للحكم الاجنبي منذ تلك السنة في القرن الرابع قبل الميلاد ·· وحتى سنة ١٩٥٢ بعد الميلاد ! · الفان من السنين ·· وكان عليها ان تسجل في كتب التاريخ والمؤرخين انها اطول مستعمرة في التاريخ !**

**واية امة يمكن ان تعيش مستعمرة الفين من السـنين · لا هي تتحرر وتستقل ، ولا هي تفنى وتزول ؟!**

ولكن ·· هذا الجدول التاريخي الذى ينهمك المؤرخون فيه وفي أمثاله ·· ويبدون ويعيدون في كتابة تاريخ مصر ·· ليس الا مجرد تاريخ للحكام والولاة المصريين ·· ولايمكن أن يسمى تاريخ الامة المصرية أو تاريخ الشعب المصرى

فالامة المصرية كانت مستقلة استقلالا قوميا في تلك المراحل التي حملت فيها الحكومة المصرية اسماء عديدة من الدول أو الغزاة أو الطوائف أو العـائلات ·· وكانت هذه الامة التي تقيم وتزرع في قرى الدلتا والصعيد ، وتصنع وتتجر في المدن الكبيرة والصغيرة ، وتقيم على شواطىء البحر شمالا وشرقا ·· كانت مستقلة استقلالا قوميا ، ذاتيا ، عميق الجذور ·· بصرف النظر عن الحاكم واصله ،

واسمه ولون بشرته ! . سواء كان حاكما اغريقيا أو رومانيا يقيم فى الاسكندرية التى كان المؤرخون القدماء يسمونها ( الاسكندرية المتصلة بمصر ) .. أو كان الحاكم أو الخليفة ، أمويا يقيم فى دمشق ، أو عباسيا يقيم فى بغداد .. وحتى لو كان طولونيا أو اخشيديا يقيم فى الفسطاط ، أو فاطميا يقيم فى قاهرة المعز ، أو أيوبيا مستقرا في قلعته فوق جبل المقطم ..

وسواء كان من المماليك .. الذين بدأوا سلطانهم باختيار امرأة ، شجرة الدر ،ونصبوها ملكة على مصر وانتهاء بطومان باى الذى علقت جثته على باب زويله ،ومرورا بعز الدين أيبك التركمانى ،والظاهر بيبرس البندقدارى ، وقلاوون وابن قلاوون ، ثم برقوق الجركسى ، والسلطان المؤيد ، والسلطان قايتباى ، والسلطان قانصوه الغورى الذى حارب التتار فى الشمال ، وجهز أسطولا حارب به البرتغاليين فى المحيط الهندى ! .

كل هؤلاء ومن جاء بعدهم كانوا فرسانا يركضون على ظهور الجياد، ويغزون ويحاربون ، ويقتلون ويقتلون .. أو يقيمون فى العاصمة داخل القصر أو القلعة ، وسط المماليك والجوارى ، يدبرون المكائد والدسائس أو يتجنبون أخطارها .. أما المصريون فهم هناك فى القرى عاكفون على الارض يزرعونها وينتجون الارزاق والخيرات ، أو هناك فى حوانيت المدن تصنع ايديهم ما يبهر الاعين دقة ومهارة وذوقا جميلا ، ويدبرون حياتهم الدينية وتراثهم الموروث ، مستقلين فى هذا الى اقصى حد ممكن ، عن ذلك الحاكم أو السلطان الاجنبى .

## ● الطريق الى قلب المصريين

أما اذا تقرب وتودد اليهم هذا الحاكم الاجنبى ، فانهم سرعان ما يلتفون حوله ، ويمدونه بولائهم وتأييدهم ، ويسيرون وراءه مثلما تسير الشعوب وراء الزعماء .

والطريق الذى يستطيع ان يصل فيه ذلك الحاكم الاجنبى الى هذا الشعب المصرى هو أن يعلن استقلال مصر .. فأكثر هؤلاء الحكام الاجانب جاءوا الى مصر ليحكموها باسم تلك الامبراطورية ، أو تلك الخلافة ، أو تلك السلطنة ، وكل ما معه هو فرمان أو مرسوم أو ما يشبه هذا .. فان كان رجلا جريئا طموحا مقداما ، فانه لا يلبث أن يفكر فى ان يستقل بمصر وينصب نفسه على عرشها .. وعندئذ يسرع المصريون الى تاييده ، ومساندته ، ويضمونه الى صدورهم كأنه واحد منهم عريق فى مصريته !

وأقرب الامثلة على هذا هو محمد على الذى نصبه عمر مكرم زعيم المصريين حينذاك واليا على مصر .. وكان فى وسع عمر مكرم ، كما يقول بعض المؤرخين ، أن ينصب نفسه واليا . ولكن ما دام محمد على قد حارب المماليك وقتلهم وطارد فلولهم ، وما دام يريد أن يجعل مصر دولة مستقلة عسكريا وسياسية ، عن الدولة العثمانية ، فلماذا لا يضع المصريون على رأسه عمامة الوالى .. ولماذا لا يسيرون فى جيشه جنودا اقوياء أشداء يحاربون وينتصرون فى صحراء الجزيرة العربية ، وفى فيافى افريقيا ، وفى جبال الشام ، وفى شمال البلقان وعلى حدود روسيا..وايضا لماذا لايبنون بأيديهم فى ترسانة الاسكندرية وتحت اشراف الحاج عمر بسرواله الاسكندرانى الفضفاض ، أكبر أسطول فى البحر المتوسط ، ويحاربون به أساطيل أوربا ؟

★★★

**●● والآن فلنقرأ ما كتبه ثلاثة من المفكرين المصريين يفندون فيه تلك الاكذوبة التى تقول « ان مصر أطول مستعمرة فى التاريخ » ●●**

يقول الدكتور حسين نوزى فى كتابه « سندباد عصرى » :

« أرجو أن يكون الوقت قد حان لنجرى حساب سنوات الاستقلال المصرى بالنسبة لسنوات الاستعباد .. وفى هذا الحساب يجب الاتفاق على أن مصر لا تفقد استقلالها وان قامت على حكمها أسرة أجنبية، كالبطالسة والطولونيين والاخشيديين والفاطميين والايوبيين والمماليك ، وانما تفقد مصر استقلالها عندما تنزل الى مرتبة الولاية والايالة والاقليم ، ويحكمها ملوك أو أباطرة أو خلفاء أو سلاطين يعيشون فى عواصم خارج مصر ، ومع أن الهكسوس حكموا فى أواريس قرب صا الحجر ، فاننى سأسقط حكمهم من حساب سنوات الاستقلال ، كما أسقط حكم الفرس » .

● **أطول أمة فى التاريخ**

« فلنبدأ من عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد حين يتوحد الوجهان البحرى والقبلى ويلبس أول ملوك الاسرة الاولى التاج الاحمر والتاج الابيض ، مجتمعين فيما يعرف بالتاج المزدوج ( بشنت ) وعندما ينتهى حكم البطالسة وتضم مصر الى أملاك أغسطس قيصر الخاصة عـــام ٣٠ قبل الميلاد ٠٠ يكون قد انقضى على مصر نحو ٢٨٠٠ عام كانت فيها دولة مستقلة دون نظر الى نوع الاسرات الحاكمة ٠

« ومنذ الحكم الرومانى حتى بدء الدولة الطولونية ، مضى على مصر نحو ٩٠٠ عام كانت فيها ولاية لروما ، ثم لبيزنطة فالعرب بالمدينة ، ودمشق ، وبغداد ٠

« ومن الدولة الطولونية حتى الغزو العثمانى ، عاشت مصر دولة مستقلة نحو ٦٠٠ سنة ٠

« وسواء اعتبرت حكم أسرة محمد على استقلالا عن الدولة العثمانية أو تبعية لها ، وقد حرصت على أن أدقق فى سنوات الاستقلال حتى اصل الى نهايتها الصغرى فى سلسلة الاحتمالات ، فلا يتطرق شك الى ما انا بسبيله ٠٠ فانك واصل معى الى أن مصر فى تاريخها الذى يقدر بحوالى خمسة آلاف سنة ، تمتعت باستقلال كامل مدى ٣٥٠٠ سنة ٠٠

« أمة تحيا خمسة آلاف عام ، تستقل فيها ٣٥٠٠ سنة ، أى ما يعادل سبعين فى المائة من تاريخها ٠٠ أليست هذه حقيقة يجب أن ندقها بالقدوم والمسامير فى رءوس الشباب ؟ ٠ أمة الفية ، أطول الامم تاريخا ، تعيش فى أكثر من ثلثى تاريخها مستقلة ، تنتقـــل بين الحضارات مصرية صميمة ، الى حضارة مصرية يونانية ، ومصرية بيزنطية ، ومصرية اسلامية ٠

« وذلك بدلا من الادعاء ـ الذى مجته أسماعنا منذ الحداثة ـ بأن مصر فقدت استقلالها نهائيا فى القرن الرابع قبل الميلاد ، عندما قضى الغزو الفارسى على عهد نكتانيوس الملك ٠٠ ومازلت أذكر حتى هذه اللحظة الالم الذى كان يحز فى قلبى ، وانا غلام بالمدرسة الابتدائية أردد اسماء امازيس وبسماتيك ونكتانيوس ، فقـد انطبعت تلك الاسماء فى نفسى انطباعا عجيبا ، لان أصحابها كانوا آخر ملوك مصر المستقلة ، أولهم انهزم أمام جيش قمبيز والثالث ختم عهد الاسرة الثلاثين ٠

« وعندما انتقلت الى المدارس الثانوية ، كانت كتب التاريخ تدرس لنا أمجاد آل عثمان ٠ وكان رفقاء المدرسة ، ممن خفت سمرتهم ولمع

شعرهم ، سادرين في الزعم والتفاخر بانهم من علائلات تركية ..
أقول هذا ليعرف شباب اليوم ان جيلى لم يقدر له أن يتمتع بمصريته طويلا ؟ »



★★★

● **ومن هذا التصحيح للتاريخ .. ومن هذه العبارات المصرية المشوبة بالعاطفة .**

**ننتقل الى بحث في ( الجيوبولتيك ) الذى يطبقه الدكتور جمال حمدان وهو يحلل شخصية مصر .. انه يطبق مبادىء هذا العلم على تفسير التاريخ المصرى وأطواره ، وتفسير مراحل الصعود والهبوط ، ومراحل الاستقلال والاستعباد ، فى هذا التاريخ المصرى الطويل .**

يذهب الدكتور جمال حمدان الى أكثر مما ذهب اليه الدكتور حسين فوزى .. ففى نظره كانت الدولة المصرية مستقلة حتى في المراحل التي كانت فيها مصر ، من الناحية الرسمية الشكلية ، ولاية رومانية ، أو اقليما تابعا للخلافة فى دمشق أو بغداد ، أو ايالة فى امبراطورية آل عثمان فيقول فى فصل رائع بعنوان ( من امبراطورية الى مستعمرة ) :

« من الغريب حقا أن مصر بعد أن أنشأت أول امبراطورية فى التاريخ تدهورت الى ما يبدو - لاول وهلة على الاقل - أطول مستعمرة عرفها التاريخ ! . فتاريخ مصر يقع بوضوح في مرحلتين متناقضتين : مرحلة أولى كانت تمثل فيها قوةطاردة مركزية منالناحية السياسية. انطلقت فيها الى العالم المجاور وفرضت عليه نفوذها ونشرت فيه ظلها السياسي واستمرت هذه المرحلة أكثر من ألفى سنة متقطعة حتى نهاية الدولة الحديثة تقريبا . ثم تلت هذا المرحلة الثانية التى تصل بنا الى العصر الحديث بلا انقطاع تقريبا ، وفيها تحولت مصر سياسيا الى قوة جاذبة مركزية خضعت لقوى دخيلة واصبحت مستعمرة تابعة أو أصبحت مجرد ظل نفسها » ..

ويمضى الكاتب الباحث في تقديم العوامل التى جعلت مصر فى المرحلة الاولى قوة طاردة تقيم أول امبراطورية تترامى آفاقها بعيدا عن حدود مصر .. ثم ينتقل الى المرحلة الثانية فيتساءل : هل كانت مصر مستعمرة حقا ؟ . أم هل كانت قوى جاذبة لعناصر أجنبية كثيرة ومع هذا ظلت دولة قائمة بذاتها لها قوتها الذاتية التى تمكنها من التحرك السياسى والعسكرى المستقل ؟

خذ مثلا أطول فترة فى هذه المرحلة التى يقال أن مصر تحولت خلالها الى مستعمرة وهى مرحلة الخلافة أو الامبراطورية العربية ثم الاسلامية ثم التركية .. فان المؤلف يقول :

« فرغم أن مصر ستفقد استقلالها مرات طوالا فى العصور الوسطى لامبراطوريات أو خلافات واسعة ، فكثيرا ما سنجابه بها تتحرك فى الميدان كقوة لها وزنها الخاص ولا ينقصها الحكم الذاتى ، أو قد تفقد استقلالها لاسر حاكمة أجنبية ، ولكنها من داخل تلك الاسر تتصرف كدولة مستقلة ـ دولة داخل الدولة كما نقول ـ وتبرز فيها من جديد خصائص شخصيتها الكامنة . ولا مفر لنا لهذا من أن نعد مسألة السيادة ، أو التبعية ، فى تاريخ مصر الاسلامية مسألة نسبية أو خاصة تستلزم الاستدراك أو التحفظ فى الحكم .

« والواقع ان العصر الاسلامى الوسيط عموما يمتاز سياسيا بخاصية فريدة ، بدونها قد نخطىء فهم الخريطة السياسية كلها . تلك هى ( السيولة السياسية ) غير العادية . فقد كان العصر عصر الدين ، عصر القومية الدينية ، وكانت روح العصر ان ينتقل المسلمون بحرية وبلا قيود داخل ( دار الاسلام ) أو الكومنولث الاسلامى .. الذى لعله الاول من نوعه فى التاريخ .. كان الحكام يتحركون من قطر الى قطر ، أو يفتحون أو يضمون قطرا الى قطر ، دون حساسيات أقليمية حادة، ودون أى مدلول أومحمول استعمارى .. والاستثناء الوحيد لهذا ـ وبعنف وضراوة عند ذلك ـ كان فى حالة ( الكفار ) من وثنيين أو غير مسلمين .. ويبدو أن نفس الظاهرة كانت تسود داخل أوروبا المسيحية حيث كان الالمان يحكمون فى ايطاليا أو انجلترا ، أو الفرنسيون يحكمون فى المانيا ، أو الاسبان يحكمون فى هولندة ، وهكذا »

« وفى ظل هذه السيولة السياسية النادرة دارت القوة طويلا من يد الى يد داخل الدولة الاسلامية ، ولكنها استيقظت بصفة خاصة فى العرب والاتراك ـ وكل منهم بيئات رعوية صحراوية ـ فاستقطبت فى عرب الجزيرة منذ البداية ، حتى آلت كلية الى الاتراك

العثمانيين فى النهاية ، وفيما بين البداية والنهاية تسلل الاتراك ومعهم أو بعدهم الشراكسة

والاكراد والتركمان والقوقاز بل والارمن ٠٠ تسللوا منذ الدولة العباسية الى السلطة حتى تنازعوها بالتدريج مع العرب فى لعبة شد الحبل تاريخية ممطوطة ، كانت ترتكز على ايما قطر اسلامى اتيح لها ، وكان مركز القوة يتحرك من قطر الى قطر بحسب ذلك الشد والجذب وكان القطر الواحد تابعا يوما ومتبوعا غـــدا على التناوب ودون حرج » ٠

## ● من ولاية لامبراطورية

ويضرب المؤلف أمثالا على هذا !

× مصر الفاطمية التى فتحت من المغرب ٠٠ لم تكن تابعـــة للمغرب ، بل العكس هو الصحيح على وجه الدقة والغرابة حقا ، وظل شمال افريقيا حتى المحيط الاطلسى تابعا لمصر الى ان انفصل المغرب نفسه عن الدولة الفاطمية فى مصر ، واستقلت به أسرة محلية حاكمة ٠٠ أما مصر الفاطمية فلم تلبث أن عاودت التوسع الاقليمى فى مجالها الآسيوى التقليدى وتحولت الى خلافة كبرى تنـــافس الخلافة العباسية فى العراق ، وتتطلع الى السيطـــرة على الدولة الاسلامية جميعا ، بل وحكمت الدولة العباسية بالفعـــل فى سنة ما من السنين ٠

× الدولة الايوبية بدأت من قاعدتها فى الشـــام ، وانتقلت منها الى مصر ٠٠ ولكن لا يقال ضمت مصر الى الشـــام ، فأن الذى حدث انها منذ انتقلت الى مصر دخل لشام معها فى اطار سياسى واحـــد ٠٠

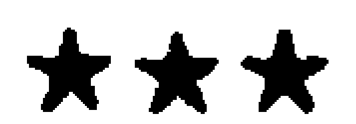
× والمماليك ٠٠ الذين كانوا من اصـــول تركية عريضـــة ، حين حكموا مصر لم يجعلها ذلك تابعة لمصدرهم الاصلى فى غرب ووسط آسيا ، وهم لم يستقلوا بمصر فحسب بل انشأوا فيها أكبر دولة امبرطورية أسلامية معاصرة ، حققت وزنا فى السياسة العالمية فرض نفسه على أوربا تماما ، كما تطلعت الى زعامته واعترفت بها كل دول العالم الاسلامى نفسه ابتداء من المغرب حتى الهند ٠

× وفى عصرنا الحديث ٠٠ فى حكم محمد على تحولت ولايةمصر العثمانية الى امبراطورية مصرية كاملة تشمل الحجاز ونجد واليمن وســـواحل الخليج العربى والشـــام والسودان وكريت ، وتنشر اسطولها فى البحرين المتوسط والاحمر لتصبح قوة ( برية بحرية)

حقيقة .. ولعلها حميت بذلك من أبعاد جغرافية لم تصلها مصرفي اى من عصورها الامبراطـورية القديمة .. فاذا أضفنا أن هـذه الامبراطورية المصرية تكاد تعادل من الامبراطورية العثمانية نصف المساحة لحق القول بأن الامبراطورية العثمانية في واقعها ووقتها وقوتها انما كانت مملكة ثنائية أو حكما ثنائيا بين تركيا ومصر !

هل كانت مصر بعد هذا مستعمرة ؟ أم هل كانت ، حتى لو كان على عرشها حاكم أجنبي ويضفي عليهـا اسم أسرة أجنبيـة ، أمة ذات كيان مستقل وقائم بذاته ؟ .

لقد كان استقلال مصر هو أطول استقلال فى التاريخ .



● **أما الدكتور محمد حسين هيكل فقد فند أشهر اكذوبة في التاريخ ..مستندا على التاريخ نفسه ووقائعه وحقائقه .. فكتب في مقـدمة كتابه « تراجم مصرية وغربية » فصلا ضافيا عرض فيه تاريخ مصر كما سجله الشعب المصرى لا كما رواه مؤرخو السلاطين والحكام ..**

تواضع الكتاب على تبويب تاريخ مصر عصورا أطلقت عليها أسماء أمم غير مصرية . فمن بعد العصر الفرعوني يذكرون عصر الفـرس ، ثم العصر اليوناني ، ثم العصر الروماني ، ثم العصر الاسلامي أو عصر العرب ، ثم عصر الترك ، ثم العصر الاخير عصر الاحتلال الانكليزى .

« وتبويب التاريخ على هذه الصورة من شأنه أن يدعو الى الخطأ وسوء التقدير .. والواقع أن هذا التبويب خاطىء فى أكثر مناحية .. واذا كان صحيحا أن الحكام الذين تولوا أمر مصر فى عصور مختلفة لم يكونوا من أصل مصرى صميم فلن يغير ذلك من خطأ المؤرخين وادعائهم خضوع مصر لامم أجنبية عنها ، الا اذا اعتبرنا قيام ملك كملك الانكليز على رأس أكبر امبراطورية فى الوقت الحاضر مع انه من أصل غير انكليزى ، دليلا على أن انكلترا والامبراطورية البريطانية كلها خاضعة للامة التى يرجع اليها دم مليكها ، وهذا لغو من القول ، كما أن ادعاء خضوع مصر لامم أجنبية عنها هى التى يرجع اليها أصل حكامها لغو مثله . وليس هذا المثل الذى ضربنا

بالمثل الفرد ، فنابليون امبراطور فرنسا كان من كورسيكا ، أى كان أقرب للايطالية منه للفرنسية . وأكثر الملوك الباقين على عروش أوربا اليوم من دماء غير دماء الشعوب التى ملكتهم عليها ، وليست هذه الشعوب لذلك أقل حرية واستقلالا وعظمة مما كانت مصر فى أكثر العصور التى تعاقبت عليها » .

ويمر الدكتور هيكل مرا سريعا بتاريخ مصر متوقفا عند المواقف التى تبين أن مصر لم تفقد استقلالها ، ولم تفقد شخصيتها القومية ، عندما كان حكامها ينتمون الى أصول أجنبية ..

فمثلا .. « فتحت مصر أبوابها للاسكندر الاكبر لانها رأت فيه مدوخ الفرس ، وكانت بين مصر وبين فارس عداوة أشد العداوة ، وبقيت مصر فى حكم الاسكندر ، وأن شئت فى حكم اليونان تسع سنوات ، ثم استقل بها بطليموس الاول عن اليونان .. بل انه حارب اليونان بأسطوله المصرى الذى بناه فى الاسكندرية .. ثم جاء من بعده بطليموس الثانى .. فكان مصريا فى دينه ، مصريا فى عاداته ، مصريا فى دمه .. ولا عجب فمصر بعزلتها عن العالم لما يحيط بها من البحر فى شمالها ، والصحارى فى سائر جهاتها ، هى عالم وحده تخلق الناس فيها خلقا ، وتسكب فى عروقهم دماء تجرى فيها روح النيل وقوة سلطانه . ولذلك كان كل الذين أقاموا بمصر اما تمثلتهم مصر فأصبحوا مصريين ، أو لفظتهم فلم يطيقوا ولم يطق أخلافهم من بعدهم بها مقاما » ..

« وفى عهده أصبحت الاسكندرية عاصمة العالم كله حضارة وعلما وقوة .. وكانت مصر هى سيدة البحار فى ذلك العصر ، فكانت سياستها موضع النظر والتأويل فى روما واليونان وأشور والفرس وسائر بلاد العالم المعروف حينئذ .

« وتعاقب البطالسة حتى كليوباطرة فى حكم مصر ثلاثة قرون متوالية . تعاقب البطالسة على عرش مصر بارادة شعب مصر ، مستقلين به ، مستقلا هو بهم ، قائمين باسمه ناشرين على ربوع العالم المعروف يومئذ لواءه . فهل يكون نعت هذا العصر من تاريخ مصر بالعصر اليونانى معناه خضوع الشعب المصرى لامة أخرى ؟ أو يكون ذلك التصوير باطلا البطلان كله لان شعوب العالم ، ومنها الشعب اليونانى ، هو الذى خضع لمصر فى كل تلك القرون الثلاثة وكان يرى فى الاسكندرية عاصمة الدنيا كلها ؟

ومثلا آخر .. الرومانيون .. فالمؤرخون جميعا متفقون تمام الاتفاق على أن السكينة والامن لم يسودا مصر طول هـذا الذى يسمونه العهد الرومانى . فان روما كانت دائمة الوجل من ناحية مصر من خشية أن ينقطع عنها مدد الغلال التى كانت تبعث بهـا غذاء لاهل روما عاصمة العالم فى ذلك الحين . ولم تكن أسباب الاضطراب مقصورة على الناحية السياسية ، بل خلق المصريون منها فى سـائر النواحى ما ارتكبت روما معه ، وما اضطرت بسببه ، لارتكاب الفظائع التى ظل تاريخها ملطخا بها . ومن هذه الاسباب السبب الدينى . فقد كان الدين المصرى القديم بعد اختلاطه بالتعاليم اليونانية قد قصر عن أن يلهم الشعب ما يلهم كل دين من طمأنينة النفس وسعة الامل . وكانت المسيحية الوليدة فى روما قد بدأت تنتقل الى مصر رويدا رويدا . فقد كان اليهود فى مصر كثيرى العدد جدا ، وكانت الديانة اليهودية تتصل فى كثير بالديانة الفرعونية القديمة ، اذ كان موسى مصريا تلقى الطقوس أيام شبابه على كهنة ايزيس . وكان الاضطهاد الرومانى مما جعل الناس أشد اقبـالا على دين يدعو الى الاخاء والسلام والتسامح ، ويعد الجنة المحروم والبائس والمظلوم . على أن خلافا من الرأى الدينى ما لبث أن نشأ فى مصر بين المتشبعين من قبل بتعاليم الفلسفة اليونانية والاخذين بروحية الديانة المصرية القديمة ، وكم أثار هذا الانقسام الدينى من خلاف ، وكم أتخذ سببا خفيا للثورة على روما ومحاربتها ، والتغلب فى بعض الاحيان على ولاتها وحكامها ، واستقلال أهل مصر بالحكم فى مختلف ولاياتها .

ومثلا ثالثا .. من العصر الاسلامى الذى كتبت مصر خلاله « صحف مجد فى تاريخها ، بوصفها أمة مستقلة ناهضة بأعباء الحضارة فى العالم على نحو ما كانت مصر الفراعنة ، تاركة من آثار ذلك ما تركوا ، مما لا يزال شهيدا على العظم والجلال وتقدم المدنية وارتقاء آثارها من علم وفن الى أبعد حدود الارتقاء .

« فقد نهض العرب منذ أوائل القرن السابع الميلادى نهضة روحية بفضل الاسلام ، أعقبتها نهضة حربية قوية متأثرة بها لا تقل فى اندفاعها اكتساحا لغيرها من الامم عن نهضة الاسكندر فى اليونان وقيصر فى روما . ولم تقف مصر فى وجه تيـار هـذه النهضـة ان شامت فى الدين الجديد جدة روحية كانت تشعر بالحاجة اليها شـعورا عميقا . فان المسيحية ، على أنها دين فضل وجمـال ، قد خالطت طقوسها صور من الزهد والتقشف والانقطاع بما لايتفق مع

طبيعة وادى النيل الدائم الصفو ، الدائم الابتسام · وهذا التنافر بين ابتسام الوادى وعبوس التقشف ، جعل دعاة المسيحية فى مصر يبالغون فى ميولهم الى جانب الانقطاع والزهد ويفضلون العيش فى صوامع خشنة فوق رمال الصحراء المحرقة وذلك لفرط خوفهم من زخرف الوادى وغضارة نعيمه · وبالرغم من قيام طائفة من المصريين المسيحيين تحاول التوفيق بين تعاليم دين عيسى وفيض النيل ببركاته ، فان دعاة الزهد والتقشف كانوا أصحاب الغلب ·

« فلما أذن مؤذن الاسلام بأن التقرب الى الله لا يصد عن المتاع الحلال بالدنيا ونعيمها ، دخل المصريون فى دين الله أفواجا ، وأوت مصر من العرب ، حملة هذا الدين وحماته ، كل من تستطيع أن تؤويه · ·

وأمثلة أخرى يقدمها الدكتور هيكل من العصر الاسلامى أيضا · ·

« لم تكن الفكرة القومية فى العصور الماضية قد نمت النمو الذى نعرفه اليوم · فالاماكن المقدسة فى مكة والمدينة كانت معتبرة فى نظر المسلمين جميعا عاصمة الدولة الاسلامية ، كما كان الخلفاء الراشدون ، ثم أمراء المؤمنين من بعد ، معتبرين كلمة الله على الارض ، تجب لهم على كل مسلم الطاعة المطلقة · ولكن غريزة القومية كانت قوية فى مصر بسبب عزلة مصر عما جاورها ، يفصل بينها وبين كل جار من البحار أو الصحارى ، ما لا يسهل اجتيازه · ولذلك لم تلبث خلافة الراشدين أن انتهت ، وان قام يزيد بن معاوية أميرا للمؤمنين خلفا لأبيه ، حتى بدأت نذر الانتقاض على السلطة المركزية تبدو فى مصر ، برغم أنها كانت حلقة وسطى فى سلسلة الفتوحات الاسلامية المستمرة المتوالية ، ذاهبة الى الغرب حتى تصل الى مراكش كى يغزو موسى بن نصير الاندلس متخطيا جبل طارق ·

« ولم يكد حكم بغداد وسلطان الدولة العباسية يستقر ويطمئن حتى بدأت مصر تقوم مستقلة استقلالا ناجزا صحيحا · · استقلت أول أمرها حين قامت الاسرة الطولونية بالحكم فيها · · ونازع الاخشيديون الطولونيين وغلبوهم واستقلوا بعرش مصر · ثم جاء الفاطميون من ناحية الغرب فأجلوا الاخشيديين وأسسوا بمصر دولتهم بفضل جوهر الصقلى الذى أنشأ القاهرة · ·

واعتلى الامويون العرش من بعد الفاطميين · · وفى هذه القرون المتوالية كانت مصر مستقلة بشئونها ، بالغة فى أحيان كثيرة المكانة الاولى بين الامم الاسلامية ، صاحبة الغلب على أمم العالم جميعا ·

ولن ينسى أحد من ذلك فضلها العظيم فى الناحية العلمية والادبية. فقد كان الجامع الازهر منذ انشأه الفاطميون الجامعة الاسلامية الاولى ، سواء كان ذلك فى أول عهد الفاطميين حين كانت التعاليم الشيعية تلقى من فوق منابره ، أو كان فى العهد السنى الذى جعل له حتى عصرنا الحاضر المقام الاول بين الجامعات الدينية الاسلامية ثم لن ينسى أحد كذلك ما كان لمصر من مجد وفخار فى الحروب الصليبية حين تألبت أوربا تريد أن تغلب المسلمين على أمرهم فى الاماكن المقدسة بفلسطين وتضع يدها عليها باسم الصليب . فقد كانت الجيوش المصرية المظفرة هى التى صدت أكبر الغزوات وأشدها هولا ، واسم صلاح الدين الايوبى باق على الزمان كلما ذكرت تلك الحروب . وهزيمة لويس التاسع فى المنصورة وسجنه بها باق كذلك شهيدا على مجيد فعال مصر فى صد الغارة الصليبية .. وكان هذا كله والدول العباسية ببغداد ما تزال باقية وما يزال لها اسم دولة الخلافة .

« والحقيقة ان الخلافة الاسلامية فى تلك العصور كانت قد انحلت عنها الصبغة الزمنية وبقيت لها السلطة الروحية وحدها . فكانت تبعية كثير من الدول الاسلامية لها شبيهة كل الشبه بتبعية الدول المسيحية لبابا روما . واستقلال الامم وسيادتها لا شأن لهما بالسلطان الروحى ، وانما مرجع أمرهما الى السلطان الزمنى .. فليكن لها من الاتصال الروحى بمكة أو بدمشق أو ببغداد ما تشاء ، فلن يغير ذلك قليلا أو كثيرا من أنها أمة كاملة الاستقلال ..

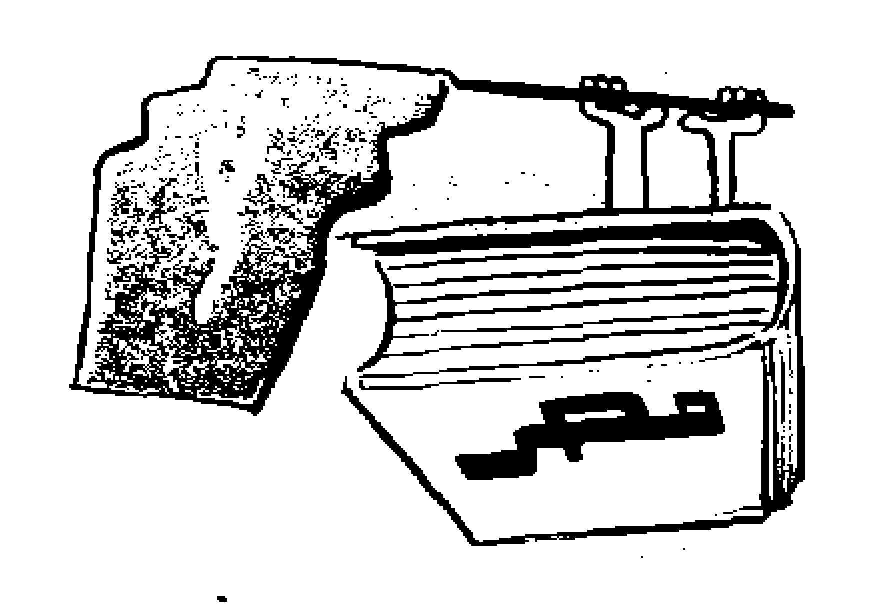
ويمضى الدكتور هيكل فى عرض صفحات أخرى من تاريخ مصر يبين فيها أن مصر كانت دولة مستقلة .. ذات سيادة .. ولها قوتها ونفوذها .. رغم ان الجالسين على عرشها قد وفدوا اليها من الخارج ثم انصهروا فيها وصاروا .. مصريين .. قلبا وقالبا ..

حتى الاتراك .. حتى المماليك .. أولئك الذين استقروا منهم فى مصر قد صاروا مصريين روحا وطبعا وانتماء الى مصر .. فيقول : « وكان هؤلاء المماليك قد أصبحوا ، كما أصبح اليونان والعرب من قبل ، مصريين ، فكانوا يقفون متكاتفين مع شعب مصر فى وجه الوالى الذى تبعثه الاستانة ، كما كان اسلافهم من قبل يقفون فى وجه الحاكم العسكرى الذى تبعثه روما . وكان هذا الوالى التركى الذى لم يندمج فى مصر ولم يتمثل روحها يظل سجينا فى قلعة القاهرة لا سلطان له على أحد ولا على شىء فيها . وكان المماليك والشيوخ الذين يمثلون الطبقة المتعلمة اذا رأوه على غير ما يريدون ، بعثوا اليه

رسولا يطلق عليه اسم « الاودة باشى » يدخل عليه ويطاطىء الرأس احتراما له ثم يلمس طرف السجادة ويطويها ويقول مناديا للوالى : « انزل يا باشــا » فيكون هذا أمرا للوالى صــادرا له من المصريين لا يستطيع له مقاومة ولا تستطيع تركيا له نقضا »

وينتهى الدكتور هيكل من عرضه بكلمة عن محمد على الذى جاء الى مصر واليا من قبل تركيا « فقضى على المماليك ، ثم استمال اليه علماء مصر وأعيانها ووجهاءها ، وفكر ، طوعا لارادتها ، فى الاستقلال بمصر ·· وأعلن ذلك بالفعل وغزا الدولة العثمانية فى الشام وفى الاناضول حتى صار على ثلاث ساعات من الاستانة ، وكان مخضعا سلطان تركيا ·· لولا أن تحالفت عليه دول أوربا جمعاء ، ووقفت فى وجهه برا وبحرا ، وقضت على الاسطول المصرى فى معركة نافارين ·· وهذا الوقوف من جانب الدول الاوربية فى وجه الجيوش المصرية المظفرة لم يكن القصد منه المحافظة على تركيا الضعيفة مخافة أن يهدد وجـود حاكم قوى فى الاســتانة التوازن الدولى كما اعتـاد المؤرخون أن يقولوا ·· انما كان السبب الصحيح تخوف أوربا من أن تستعيد مصر قوتهــا التاريخيــة والمعروفة ، وأن تنضم اليها فلسطين وسوريا كما كانتا منضمتين لها فى أكثر حقب التاريخ وأن تتحكم لذلك فى حوض البحرين ، الابيض والاحمر ، وأن يصــبح سلطانها بالفعل خاقان البحرين ·· »

لعلى أطلت فى الاستشهاد بما كتبه الدكتور محمد حسين هيكل · ولكننى قصدت وعمدت الى هذا لأن فيــه عرضا سلسا ومفيدا لقصة استقلال مصر عبر العصور ·



# حياتنا تتطوّر.. وعاداتنا لا تتغيّر

أمامي كتابان عن مصر والمصريين ، كتب أحدهما منذ أربعة وعشرين قرنا ، وكتب الثاني منذ قرن ونصف قرن .

زهاء اثنين وعشرين قرنا تفصل بين هذين الكتابين العظيمين .. فالكتاب الاول وضعه مؤرخ زمانه جاء من اليونان الى مصر سنة ٤٤٠ قبل الميلاد ، والكتـاب الثـاني وضعه مستشرق مؤرخ جاء من انجلترا الى مصر وقام فيها سنوات وألف الكتاب الذى طبع في سنة ١٨٣٥

الكتاب الاول وضعه « ابو التاريخ » و « جد المؤرخين » .. هيرودوت .. الذي طوف بأرجاء مصر يتطلع ويستمع ، ثم عرض كل ما رأى وسمع ، في كتابه الذى يعد « ملحمـة طريفة مختلفة الألوان » .. فقد قدم فيه وصفا لارض مصر ونيلها وهوائها ، ثم تحدث عن المصريين واصلهم .. وعن «التجربة» التي أجراها أحد الفراعنه على طفليه ليعرف ما اذا كانت اللغة المصرية هي اول لغة اخترعها البشر ! .. وتحدث ، في حذر شديد وحيطة بالغة، عن دين المصريين . فقد احس انه لا شيء يؤذي مشاعر المصريين اكثر من المساس بعقائدهم وطقوسهم الدينية .. وتحدث عن عادات المصريين « وتقاليدهم » .. فقد كانت للمصريين « تقاليد » منذ الاف السنين . لان المجتمع المصرى كان قد تكون واستقر قبل هذا بعشرات القرون ، وصارت له عادات اجتماعية تعارف عليها الناس ، وتلقاها الابناء

عن الاباء فى احترام وتقديس ، وتغنى بها الشعراء وسجلها الحكماء على أوراق البردى متوارثة أجيالا تلو اجيال . !

أما الكتاب الثاني فقد وضعه مستشرق انجليزى ، هو من اكثر المستشرقين دقة في الوصف ، ونزاهة في العرض ، وهو ادوارد وليم لين الذى وضع كتابا عنوانه « المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم » جمع فيه خلاصة ما رأى وسمع وعرف خلال اقامته الطويلة فى القاهرة فى حى الازهر ، واختلاطه بشيوخ الازهر وبعامة الناس ومحاولة التعرف على كل شيء في مصر : ابتداء من الدين والشريعة الى اللغة والاداب ، الى القصص الشعبية ، الى الخرافات الشعبية والدراويش والحواة، الى الافراح والجنائز ، الى الملابس وحلى النساء وزينتهن .

هذان الكتابان فيما أرى ، يكمل أحدهما الآخر ، رغم أن الصور التي يقدمها الكتاب الاول قد سبقت الصور التى يقدمها الكتاب الثانى بثلاثة آلاف من السنين : ما بين حياة المصريين فى عهد خوفو وخفرع ، الى حياتهم تحت حكم محمد على وابنه عباس !

●●●

ومن حسن الحظ ان الكتابين قد ترجما الى العربية ترجمة فى غاية الدقة ، وغاية الرصانة . وقد أعجبتنى الترجمة الى حد بعيد حتى اننى أردت أن أقارن بضع صفحات من كتاب ادوارد لين بأصله الانجليزى ، ومن كتاب هيرودوت بالترجمة الانجليزية ، فازددت اعجابا بالجهد الفــائق الذى بذل فى ترجمة الكتابين على وجه يدل على أنه فى مرحلة من مراحل نهضتنا الفكرية كان عندنا مثل هؤلاء الافذاذ فى الترجمة ، والمتبحرين فى الموضوعات التي يترجمون فيها .

ترجم كتاب «هيرودوت يتحدث عن مصر» عن اللغة الاغريقية المرحوم الدكتور محمد صقر خفاجة أحــد البارزين فى علم المصريات .. وكان يعرض ما يترجم وما يكتب على أستاذه الدكتور طه حسين ( الذى لا يعرف الكثيرون انه تولى فى وقت من الاوقات تدريس اليونانية واللاتينية فى كلية الآداب ) ..

وقد مضى الى رحمة الله وهو فى شبابه فقام أستاذه وصديقه العالم الكبير الدكتور أحمد بدوى على اصدار الكتاب فقدم له بمقدمة رائعة عن هيرودوت وعما سجل عن مصر فى كتابه الذى وصفه بأنه « ملحمة طريفة مختلفة الالوان ، جمع عناصر نسجها من كل ما زعم انه رأى وسمع ثم حشد بين طياتها الوانا مختلفة من معارفه اليونانية ، ووشى اطار صورها بكثير مما سمع من الشعب عن حياة السلف من ملوك مصر وحكامها . »

●●●

أما كتاب « المصريون المحدثون ، شمائلهم وعاداتهم » فقد ترجمة الاستاذ عدلى طاهر نور .. ويؤسفنى أن كتبنا لا تحذو حذو الكتب الامريكية دائما ، والاوربية أحيانا ، فى الحرص على أن يتضمن الكتاب شيئا عن المؤلف والمترجم ، قد تكون نبذة قصيرة، ولكنها تنفع القارىء ليتعرف الى هذا النفر القليل من الكتاب الذين يعكفون على العمل والبحث والجهد بعيدا عن أضواء الدعاية .. وعلى أى حال ، فان الترجمة الرصينة وما أضافه المترجم من هوامش وتعليقات ، تكفى دليلا على علم واسع وثقافة غزيرة ، فضلا عن جهد فى ترجمة كتاب جاوز خمسمائة صفحة من القطع الكبير .

●●●

واستطرد قليلا فاقول انه كان يجدر أيضا ان تتضمن الترجمة شيئا عن مؤلف الكتاب المستشرق ادوارد لين .. وخاصة أن الاستاذ المترجم قد وضع كتابا كاملا عن هذا المستشرق الكبير ، تحدث فيه عن حياته فى القاهرة ، وهذا الموضوع وحده هو قصة فى حد ذاته .

والواقع أن حياته أوحت بكتابة أول قصة مصرية ، وان الذى فكر فى موضوعها هو على باشا مبارك وزير التعليم فى عهد بعيد، فقد رأى فى المستشرق الانجليزى والشيخ الازهرى الذى تتلمذ عليه ، واسمه الشيخ ابراهيم الدسوقى ، مادة

صالحة لكتابة قصة مصرية .. فكلف من كتب قصـــة « علم الدين » التى يعتبرها الاستاذ احمد امين أول قصة مصرية .. ولكن مؤرخى القصة المصرية تجاهلوها تماما !

●●●

كتاب « هيرودوت يتحدث عن مصر » هو ريبورتاج صحفى بمعنى الكلمة . فقد طاف أبو المؤرخين بأرجاء مصر حيث أمضى بضعة شهور . وشاهد معالمها . ودخل معابدها ، واستمع الى كهانها .. وخالط اهلها وتحدث اليهم قليلا واســتمع منهم كثيرا .. ثم جلس وكتب تقريرا ضمنه ما رأى وما سمع وما جمع من معلومات وبيانات .. وما سمع أيضا من اشاعات أسر بها اليه الكهان والناس ، وهى اشاعات تتعلق عادة بالحكام السابقين ، كالاشـــاعات التى ســمعها عن ابنة خوفو ، وعن خفرع وعلاقته بابنته ، فضمن هذا فى كتابه مؤكدا أن هــذا ما سمعه ، ولا يتحمل وزره وانما يسجله على علاته !

أما كتــــاب ادوارد لين « المصريون المحــــدثون : شمائلهم وعــاداتهم » فهـــو ريبــورتاج صحفى مفصـــل مسهب .. بالكلمـــة وبالرسم الدقيق أيضـــا ! فالكتــاب حافل بمجموعة كبيرة من الرســـوم التى تقـــدم مصر كما رآها المستشرق الانجليزى ادوارد لين ، فتزيد وضوحا تلك الصورة المفصلة التى يقدمها عن حيـــاة المصريين فى شتى مظاهرها وأوضاعها .. فقد عاش فى مصر سنوات عديدة ، وكاد أن يتزوج من مصرية ، لانه لم يستطع أن يجد مسكنا فى أحد الاحياء القديمة فى القاهرة لانه عزب ، وهم لايقبلون أن يعيش بينهم رجل ليست له زوجة أو حتى جارية .. وقد أخذ طوال هذه السنين يراقب ويسجل كل ما يرى ويسمع ، ويصف ما يرى فى زياراته للمنازل .. ولأضرحة الاولياء فقد اعتنق الاسلام .. وفى الموالد وحلقات الذكر ، مركزا بصفة خاصة على الحياة الاجتماعية للمصريين بمختلف طبقاتهم ..

## ● الاعتزاز بالدين

استطردت وابتعدت كثيرا عن الموضوع الذى أريد أن أقدمه وهو بعض وجوه الشبه بين الصور التى قدمها هيرودوت قبل الميلاد بمئات السنين ، والصور التى قدمها ادوارد لين فى مستهل العصر الحديث ، عن الشعب المصرى فى أخص خصائصه وطباعه ..

وأهم هذه الطباع والخصائص هى طبيعة التدين ، سواء كانت ايمانا وتقوى ، أو كانت طقوسا ومظاهر

يقول هيرودوت عن المصريين : « وهم يزيدون كثيرا عن سائر الناس فى التقوى » ثم يقول « ويهتم المصريون كل الاهتمام بالقيام بسائر الشعائر المقدسة » .

ويقول المستشرق الانجليزى : « أن طباع المصريين المحدثين تتأثر الى درجة كبيرة بالدين والشرع والحكومة ، كما تتأثر بالمناخ وأسباب أخرى .. وليس فى اخلاق المصريين الاصلية ما يستحق الاهتمام مثل الاعتزاز بالدين .. ويعتقد المسلم أن التقى يرفع صاحبه ، الا أن رغبة الظهور بالتقوى تفضى بالكثيرين الى الرياء .. ثم يقول لاشك فى أن المسلمين المحدثين متدينون الى حد الحماسة وانما يعوزهم الثبات ونبذ الخرافات » ..

عبارات تكاد تكون متقاربة فى وصف المصريين القدماء ووصف المصريين المحدثين ، رغم أن دين هؤلاء ودين أولئك شيئان مختلفان كل الاختلاف ، ولكن طبيعة التدين وطبيعة التقوى ، باقية على مر العصور واختلاف الاجيال ..

ولنأخذ من كل من الكتابين اجزاء قليلة عن بعض المظاهر والطقوس الدينية ، فنجد أن هيرودوت يقول عن الاعياد والمواكب الدينية :

« ولقد سبق المصريون الشعوب الى أقامة الاعياد العامة والمواكب العظيمة ، وعنها تعلمها اليونانيون ، ودليلى على ذلك أنها تقام عند

المصريين منذ زمن بعيد ، بينما لم يحتفل بها اليونانيون الا منذ وقت قريب » • وقد خلف المصريون على جدران معابدهم منـاظر كثيرة لتلك الاعياد ، منها مناظر عيد آمون التى مازالت باقية على جدران معبد الاقصر

« والمصريون لا يحتفلون مرة واحدة فى السنة بعيد شعبى عام ، ولكن أعيادهم العامة كثيرة » ويعدد هيرودوت أهم هذه الاعيـاد الدينية الكبرى ، والتى تقام فى انحاء مختلفة من مصر •• واهمها الحفل الدينى الكبير الذى كان يقـام فى بوباسـطيس أى الهرة المقدسة ، والمعروفة الآن باسم تل بسطة عند الزقازيق •• ويليه عيد الحفل الكبير الذى يقام احتفـالا بعيد الالهة ايزيس ، وكان الاحتفال يقام فى معبدها الكبير وسط الدلتا فى قرية تسمى الآن « ابو صيربنا » جنوب سمنود •• وهكذا ••

ويصف هيرودوت الاحتفال فيقول :

« يبحر الرجال والنساء معا ، ويحمل كل قارب عددا كبيرا من الجنسين ، ويطبل بعض النسوة على الطبول التى بأيديهن ،وبعض الرجال يزمرون طول الطريق ، أما باقى النساء والرجال فيغنون ويصفقون •

« فاذا ما بلغوا أثناء ابحارهم ، مدينة من المدن جنحوا بزورقهم الى الشاطىء ،وقاموا بما يأتى : بينما يستمر بعض النسوة بالقيام بما وصفت ، تعلو أصوات بعضهن هاتفات ساخرات بنساء هذه المدينة ، وبعضهن يرقصن ، كما يقف بعضهن رافعـات ثيابهن ، و « الناس » يفعلون ذلك عند كل مدينة على شاطىء النهر •

« وعند وصولهم الى بوباسطيس يحتفلون بالعيـد ويقـدمون أضحيات عظيمة ، ويستهلكون من النبيذ فى هذا العيد أكثر مما يستهلكون فى بقية العـام كله • ويبلغ عدد المجتمعين فى هـذه المناسبة وفقا لقول أهل البلاد سبعمائة الف من الرجال والنسـاء عدا الصبية » •

ويقول مترجم الكتاب الاستاذ محمد خفاجة صقر : لقد كان لكل معبد من معابد الدولة وبخاصة الكبرى منها أوقاف من الارض ، وما تنتج من غلة وثمر ، وما يرعى فيها من حيوان ويعيش عليهـا من طير • وكان الكهان وكافة من يخدمون فى المعابد من حولهم انما ينالون أرزاقهم من أوقاف تلك المعابد وحبوسها •

واما فيما يتعلق بالنبيذ •• فيقول المترجم : عـرف المصريون زراعة العنب منذ أبعد عصورهم ،وأثارهم تطالعنا بصور من الكروم يغشاها الزراع اذا أينع ثمرها وطاب جناها فيجمعون ويعصرون

الوانا من الانبذة ، ولاعجب اذن في أن ينال الكهان حاجتهم من تلك الانبذة . ويبدو أن شرب النبيذ كان مقصورا على الكهنة والملوك أما عامة الناس فكانوا يشربون نوعا من الجعة أو البيرة مصنوعا من الشعير ..

وطبعا اختفي النبيذ ، واختفت البيرة ، من مصر طوال العهد الاسلامي ولم تعد مصر الى انتاجهما الا منذ قريب ، لا أظنه يرجع الى ما قبل هذا القرن العشرين ، وكان المنتجون أول الامر من الاوربيين المقيمين في مصر .

فاذا عبرنا الزمن الطويل ، ووصلنا الى العصر الحديث ، نجد المستشرق الانجليزى يقدم لنا صورا عن الاعياد الدينية في مصر ، ويقدمها في ثلاثة فصول طوال يتحدث فيها عن الاحتفال ، مثلا ، بالمحمل والكسوة الشريفة عند أرسالها من القاهرة الى مكة المكرمة وبقوافل الحجاج عند عودتهم ومسيرتهم من السويس الى القاهرة ومثل الاحتفال بالمناسبات الدينية فيرمضان ورجبويوم عاشوراء ، ومثل موالد آل البيت وأولياء الله

ويسهب ادوارد لين في وصف هذه الاحتفالات ومراسمها وطقوسها فتحس وأنت تقرأ كتابه كأنك تتجول داخل متحف يعرض صورا للحياة المصرية في تلك الايام .. ربما اندثر وتلاشى بعضها ، ولكن أكثرها مايزال باقيا فيما يسمى « بالاحياء البلدية » في المدن ، وفي قرى الريف وكفوره ونجوعه ..

ولكن يهمنا هنا أن نشير الى بعض ماكتبه عن روح التدين ، أو طبيعة التقوى ، في المصريين .. فهذه هي الخصائص التى لاتندثر ، ولاتزول ، حتي لو اختفت كثير من المظاهر والمراسم والاحتفالات الدينية .. فيقول المستشرق الانجليزى :

« لاشك ان المسلمين المحدثين أتقياء الى حد الحماسة .. ويندر أن يوجد فيهم ملحدون ، وهؤلاء لا يجرؤون على اظهار الحادهم خوفا على حياتهم .. وقد سمعت عن اثنين أو ثلاثةمنهم ارتدوا عن دينهم بمخالطة الاوربيين مخالطة طويلة وثيقة ،وقابلت ملحدا واحدا كانت له معى مناقشات طويلة .

« وهناك عادات كثيرة تبين الشعور الدينى السائد بين مسلمى مصر ، فيستعمل المتسولون نداءات دينية ، ويشبه هذه النداءات صياح باعة الخضر وغيرهم ، وقد أدهشنى هتاف حارس الليل في الحي الذى سكنته بجماله وسموه : « سبحان الملك الحى الذى لاينام

ولايموت ·· ، ويمكننى أن أضيف أمثلة كثيرة أخرى توضح تدين هذا الشعب ·

« وكثيرا ما يسمع في المجتمع المصرى العبارات الدينية تعترض الحديث فى الامور الهامة وغير الهامة ايضا

« فكثيرا ما يقسم المسلم بالله وبالرسول ، وعندما يخبر أحدا بخبر يثير دهشته وعدم تصديقه يصيح : والله ؟ ·· فيجيبه الآخر : والله ·

« وعندما يتجادل البعض فى عمل أو رأى ، يصيح أحد الطرفين أو آخر يود فض النزاع أو تهدئة المتخاصمين : الصلاة على النبى ، أو : صلوا على النبى ، فيقولان بصوت منخفض : اللهم صل عليه ·· ثم يستأنفان المجادلة ، ولكن باعتدال » ·

## ● المصحف المقدس

« ويقدس المسلمون المحدثون الرسول غاية القداسة ، ويقسمون كثيرا باسمه ، ويلتمس شفاعته المتعلمون والجاهلون على السواء ، ويتأثر الحجاج من زيارة القبر النبوى اكثر مما يتأثرون بقيامهم بالشعائر الاخرى ·· وقد سمعت شكوى الناس من الباشا لانه وسم جمال الحكومة وجيادها باسمه « محمد على » فان الميسم الذى كويت به الجمال والخيول قد كتب عليه اسمان يجب احترامهما ، اسم الرسول وأسم أبن عمه ، فكيف يوضع فى النار ·· ثم تكوى رقاب الجمال بهذا الميسم ·· فيسيل الدم النجس فيدنس الاسمين المقدسين على الحديد وعلى جلد الحيوان ··ثم يمد الجمل وهو راقد رقبته التى كتب عليها الاسمان الكريمان ويضعهما على الارض وما فيها من قاذورات ؟!

« ويثير احترام المسلمين للمصحف الدهشة ·· فهم يحرصون على أن يكون المصحف أدنى للصدر ، سواء كان محمولا أو معلقا ، ويودعونه مكانا مرتفعا طاهرا ، ولا يضعون فوقه كتابا ولا شيئا آخر ·ويعتبرون من غير اللائق أن يلمس المصحف غير مسلم لايؤمن بالقرآن ، ومن المحرم أيضا أن يلمس المسلم القرآن ، ما لم يكن على طهر شرعى ، ولهذا كثيرا ما يطبع عليه «لا يمسه الا المطهرون» وقد سألت رجلا أوشك أن يحرق ورقة عليها آيات من القرآن ، حتى لاتسقط على الارض فتداس فقال : نعم ، أما أن تحرق وأما أن تلقى فى مجرى ماء طاهر ، والافضل حرقها اذ أن الكلمات تصعد مع اللهب فتحملها الملائكة الى السماء » ·

ومع هذا فان أشد المسلمين تقى يستشهد بالقرآن عند المزاح

البرىء : وقد حدث مرة ان الح أحدهم على طالبا ان أهديه ساعة ..
وأوعز الى بهذه العبارة الملتبسة : ان الساعة آتية أكاد أخفيها .

● الله كريم

ولكن المهم هو الايمان العميق عند المصريين ، ويظهر هذا عند الشدائد والملمات .. فيقول المستشرق الانجليزى :

« ويظهر الرجال ، تحت تأثير ايمانهم بالقضاء والقدر ، فى أوقات الابتلاء صبرا مثاليا ، وبعد الحوادث المفجعة ، استسلاما وتجلدا عجيبين .. ويعبرون عن حزنهم على فقد حبيب أو قريب أو صديق بقولهم : أنا لله وأنا اليه راجعون ..

ويقارن بين هذا المصرى المسلم وبين الاوربى مقارنة أعتقد انها صحيحة : فاذا أصابت الاوربى مشكلة أو أزمة أو مصيبة ، فانه يحمل نفسه مسئولية ما حدث الى حد كبير .. ويعتقد انه كان يمكن تجنب هذا أو ذاك بشىء من التفكير أو الحيطة أو التدبير .. ولهذا يصاب بكثير من الحزن والالم والاسف لما حدث .. أما هذا المصرى المسلم فانه يتقبل تقلبات الزمان وصروف الدهر بهدوء بال عجيب.

● ● ●

ونمضى معا فى قراءة هذين الكتابين اللذين يفصل بينهما أربعة وعشرون قرنا من الزمان ، لنرى وجوها للشبه بين مصر القديمة ومصر الحديثة فى كثير من المظاهر الاجتماعية .

من أبرز صفات المصريين قديما وحديثا « الآداب الاجتماعية » .. التى تفرض نفسها على عادات الافراد وسلوكهم تجاه بعضهم بعضا .. وقد تكون هذه الاداب الاجتماعية قائمة على تعاليم الدين ، وهذا ما يميز المصريين فى حياتهم الاجتماعية عن الاوربيين مثلا ، فهؤلاء لم يستمدوا عاداتهم وآدابهم فى حياتهم اليومية من دين من الاديان ولكنها تطورت وارتقت مع تقدمهم الاجتماعى والثقافى ، وترتبط غالبا بمستواهم المادى الاقتصادى .

وفى المجتمع الانجليزى أو الفرنسى مثلا يوجد فارق كبير فى العادات والسلوك بين الطبقة الارستوقراطية والطبقة الشعبية ، أى بين الاغنياء بوجه عام والفقراء بوجه عام .. هؤلاء يتصفون عادة بالخشونة أو الفظاظة أو التبذل فى الكلام ، وأولئك يتصفون عادة بالرقة والدماثة والحديث المهذب والعبارات اللبقة المنتقاة ! .. وهذا الفارق بين الطبقة الارستوقراطية ومظاهرها وطقوسها وبين الطبقة الشعبية المتحررة من تلك القيود والمراسم ، هو الموضوع الذى يدور حوله كثير من الاعمال الادبية الاوربية ، ابرزها وأشهرها طبعا مسرحية « سيدتى الجميلة » لبرناردشو - التى تنتقل فيها فتاة من

عامة الشعب لتندمج فى حياة الطبقة الراقية ، بعد أن تتلقى تدريبا طويلا فى نطق الكلمات ، وفى تأدية الاشارات والانحناءات ، وفى ضبط حركات اليدين ، فضـــــلا عن المظاهر الاخرى فى الملابس وتصفيف الشعر الخ ..

أما « طبقات » الشعب المصرى فلا يوجد بينها هذا الفارق الكبير فى العادات الاجتماعية .. بل انه من الواضح جدا أن هناك حدا أدنى من هذه العادات الاجتماعية يشترك فيه المصريون جميعا ، مهما يكن بينهم من فارق كبير فى سلم الغنى والفقر وفى مســـتوى التعليم والجهل وفى المركز الاجتماعى علوا أو هبوطا .

والسبب فى هذا هو أن آدابنا الاجتماعيه تقوم أساسا على تعاليم الدين من ناحية ، كما أنها موروثة عبر العصور والاجيال من ناحية اخرى . ولهذا فقد تمسك بها الناس ، ومارسوها ، واحترموها الى حد كبير ، فصار الخروج عليها كأنه مساس بالدين ، وانحراف عن الطريق السوى ، يســتدعى أن يلقن الانسان بسببه درســـا فى التهذيب ، أو التأديب ، أو التأنيب .!

يقـــول المستشرق الانجليزى ادوارد لين فى كتابه « المصريون المحدثون : شمائلهم وعاداتهم » :

« ويتكلف المصريون ويدققون فى شمائلهم الاجتماعيه الى أقصى حـــد ، رغما من بعدهم عن التعقيد فى سلوكهم ، وعن التحرز فى أحاديثهم ويقوم الكثير من عاداتهم الشائعة على تعاليم الدين ..

« فآداب السلام مثلا هى كما أملاها الرسول ، وكما يتبعها المصريون المحدثون .. فيبدأ الراكب بالسلام على الراجل ، والعابر على الجالسين قلوا أو كثروا ، والفئة القليلة أو أحدهم على الفئة الكبيرة .. ويجب على المسلم أيضا أن يحيى أهل منزله عند دخوله وخروجه .. ويجب أن يبدأ دائما بالتحية ، ثم يتحدث .

« وللآداب السابقة بعض الشواذ ففى المدينة المزدحمة يصعب أن يكون هذا ممكنا ، فلا يلزم مثلا تحية أكثر هؤلاء الذين قد يمر بهم الانسان ، الا أن العادة جرت على تحية الرجل الموسر ، أو الحسن الهندام ، أو الشيخ المحترم ، أو أى وجيه يبدو أنه رفيع المكانة أو عظيم الثروة أو من رجال العلم ، ولو كان الطريق حافلا .

ومن العادات الشائعة أن يقبل الواحد من الناس يد الرجل العظيم ظهرها وحده أو ظهرها وباطنها أيضا ، ثم يضعها على جبهته لاظهار احترامه الخاص . الا أن العظيم لا يسمح بهذا فى أغلب الاحوال ، وانما يلمس اليد التى تمتد اليه ، فيضع المحيى حينئذ يده على شفتيه وجبهته فقط .

ويتبادل الكبار ، والصغار التحية والسلام ، والعـادة أن يبدأ الصغير بتحية الكبير ، ويقبل الولد يد أبيه ، والزوجة يد زوجها .. وهذه العادة الاخيرة كانت موجودة في الريف الى عهد غير بعيد .

وهذا شيء قد لاحظه هيرودوت اليوناني ، فقد أثار اهتمامه مدى احترام الابناء للآباء ، والصـغار للكبار ، حتى انه سـجل هذه «الظاهرة» في كتابه واعتبرها شيئا يتميز به المصريون ، ولا يشبههم فيه اليونانيون !

يقول أبو المؤرخين : « عندما يقابل الشبان الشيوخ فانهم يفسحون لهم الطريق ، ويتنحون جانبا .. وعندما يقبل عليهم الشـيوخ ، يقومون من مقاعدهم » ثم يقول انهم يختلفون عن اليونانيين في شيء آخر ، وهو انهم لا يتبادلون فيما بينهم عبارات التحية في الطرقات وانما ينحنون احتراما ويخفضون اليد حتى الركبة .

وقد اختفت عادة الانحناء هذه ، ولا بد أن هذا يرجع الى أن روح الاسلام تقضي بألا ننحني الا لله تعالى ، ولا ننحني لاي انسان مهما علا واغتنى ..

على أن انحناء المسلمين في مصر للاكابر والاقوياء كان شائعا في ذلك العهد الذي عاشـه المستشرق الانجليزي في مصر ، وكانت أوضاع الحكم تجعل التركي أعلى مكانة من المصري ، ولهذا « فلا يؤدي من كان من الطبقة الدنيا السلام الى العظيم ، وعلى الاخص اذا كان تركيا ، وانما يؤدي « التيمنية » وهي أن يضع يده على صدره ، أو يلمس شفتيه ، ثم جبهته أو عمامته ! ..

ويقدم ادوارد لين صورة مفصلة لهذه الاداب الاجتماعيـة التي تسود سلوك المصريين وعاداتهم عند اللقاء في الطريق ، وعنـد الزيارة في البيوت ، وعند العودة من السفر ، وفي مناسبات الافراح والمآتم ، ويسهب اسهابا ممتعا في تقديم هذه الصورة التي ماتزال واضحة في المجتمع الـريفي وان كانت قد بهتت وانطمست بعض معالمها وخاصة في مجتمع المدينة .. وهذا دليل على أن هذه الاداب الاجتماعية المصرية قد استأثرت بأهتمـام المستشرق الانجليزي الذي لا يجد مثيلا لها في المجتمع الاوربي ، حتى عندما كان هذا المجتمع محافظا على ما يسمى بتقاليد العصر الفيكتوري وأخلاقياته المتزمتة .. فكتب :

« هناك مثلا آداب اجتماعية يراعيها المصريون حتى في أبسط الامور فعندما يعطس الرجل يقول : الحمد لله ، فيقول كل من الحاضرين عندئذ ، ما عدا الخدم على حد قول ادوارد لين ، يرحمكم الله .. فيرد

عليهم : يهدينا ويهديكم الله ، أو بعبارة مماثلة مثل قولهم بعد الحلاقة أو الاستحمام : نعيما ، فيرد عليهم : أنعم الله عليكم ، وقولهم لمن يشترى ملابس جديدة أو يلبسها : مبروك ، فيجيب الله يبارك فيكم ، وقولهم للنائم عندما يستيقظ : صح النوم ، فيجيب : صح بدنكم ·· وهى عبارات اجتماعية لطيفة لايوجدمثلها فى المجتمث الانجليزى أو المجتمع الاوربى ··

ولهذا يقول المستشرق الانجليزى :

« ويجامل المصريون بعضهم بعضا الى أقصى حد ، ولتحيتهم وسلوكهم العام رقة ووقار خاصان ، ومهارة سلسلة تبدو انها فى طبيعتهم لاننا نلاحظها فى الفلاحين ايضا ·· ويتفاخر أهل المدن من الطبقتين الوسطى والعليا بحسن الادب ، ورشاقة المنهج ، وقوة الذكاء وطلاقة اللسان ·· الا انهم ليسوا أقل خلاعة فى أحاديثهم من مواطنيهم الاقل تربية ·· ويمتاز المصرى على اختلاف طبقاته بالبشاشة والانس » ·

## حرم الفراعنة الخنزير :

فاذا انتقلنا من الآداب الاجتماعية الى الامور الدينية فاننا نجد مشابهة كثيرة فى حياة المصريين القديمة ، وحياة المصريين المحدثين · ولا أريد أن أفيض هنا فى تقديم هذه الصورة المتشابهة فقد حفلت بهذا عدة كتب عن مصر القديمة وضعها هؤلاء الاساتذة الاجلاء الذين الذين كتبوا وترجموا عن الحضارة المصرية القديمة ، وفى مقدمتهم أحمد باشا كمال ، والدكتور سليم حسن والدكتور أحمد بدوى ، والدكتور محرم كمال ، والصحفى الكبير عبد القادر باشا حمزة ··

ولكن اقتصر على اشياء قليلة وردت فى ثنايا تاريخ هيرودوت عن مصر ، ووردت بالتفصيل فى كتاب ادوارد لين « المصريون المحدثون » ·

فمن الشائع أن تحريم أكل لحم الخنزير فى مصر يرجع الى الدين الاسلامى الذى حرم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله · ولكن الواقع ان المصريين القدماء اعتبروا الخنزير نجسا وحرموا أكل لحمه تحريما قاطعا ·· فيقول هيرودوت :

« والمصريون يعتبرون الخنزير نجسا ، ولذلك اذا مس مصرى خنزيرا اثناء مروره به ، ذهب فى الحال والقى بنفسه فى النهر دون ان يخلع ملابسه · كما ان رعاة الخنازير – ولو أنهم مصريون

بمولدهم ـ لايدخلون ، دون سائر المصريين ، أي معبد من جميع معابد مصر . ولا يرضى مخلوق أن يزوج أحد هؤلاء الرعاة من ابنته ،

مثل هذا واكثر منه يقوله المستشرق الانجليزى :

« ويحرص المصريون حرصا خاصا على تجنب كل ما قرر الدين قذارته ونجاسته .. واعتقد أنه يندر حمل مسلم على تناول قطعة من لحم الخنزير .. وقد ذهب رجل منذ أيام قليلة الىخباز ليشترى فطيرة ، فرآه يسحب من الفرن طبقا به لحم خنزير كان يشويه لافرنجي ، فاستدعى الرجل في الحال شرطيا من أقرب قسم للشرطة لانه يعتقد أنه من الممكن أن تكون الاطعمة الاخرى لامست اللحم النجس فتلوثت .. والزم الشرطى أن يقود الخباز الى الضابط ، فلم يجزع واحتج بجهله أن اللحم كان خنزيرا .. ولكن الضابط أعتبر الحادث مهما يستدعي رفعه الى ديوان الباشا ( محمد على ) .. فرأى رئيس الديوان أن الامر خطير يصعب الحكم فيه ، فأرسل المتهم الى المحكمة ، فاستفتى القاضى مفتي الديار .. فأفتى أن كل طعام لا يكون نجسا فى اصله ، تطهره النار مما يلوثه .. فيعتبر طاهرا كل طعام أنضج فى الفرن ولو لامس الخنزير .

« واستقدم الباشا من أوربا ، منذ مدة قصيرة ، لديوان حريمه طقما من الحشايا والوسائد حشيت بشعر الخيل ، ففتحت السيدات احدى الوسائد ليتحققن من المادة التى تجعلها وثيرة على هذا الشكل اللطيف ، فلما وجدنها من شعر الخنزير ، كما اعتقدن ، تقززن أشد التقزز ، وأصررن على طرح الديوان بأكمله ..

وما يذكره المستشرق الانجليزى يذكرنا بقصة الكوكاكولا عندما اجتاحت مصر في الاربعينات ، فحاول بعضهم محاربتها بنشر اشاعة أن مادة البيبسين التى تستخدم فى صناعة هذا الشراب تستخرج من معدة الخنزير .. وأذكر أن كثيرين امتنعوا حينذاك عن هذا الشراب الامريكى الى أن نجح تجاره فى تكذيب هذه الاشاعة .

وربما كان امتناع المسلمين عن أكل لحم الخنزير هو السبب فى ظاهرة كانت منتشرة فى أيام هذا المستشرق الانجليزى ، وهو أن أكثر الجزارين فى القاهرة كانوا من اليهود ، لان اليهودية تحرم أيضا أكل لحم الخنزير . ويحكى ادوارد لين قصة عالم من الازهر ذهب الى محمد على يشتكى من قيام الجزارين اليهود بذبح

الحيوان الذى يأكله المسلمون ، وسمع بهذا عالم ازهرى آخر فذهب الى محمد على وقال له : استدع رئيس الجزارين اليهود واسأله كيف يذبح الحيوان وماذا يقول عند ذبحه .. وجاء الجزار اليهـودى وقال للباشا : نحن نقول دائما مثل المسلمين «باسم الله ، الله أكبر» .. ولانذبح الحيوان بقطع رأسه ولكن بحز نحره .. فرفض الباشا الشكوى واستمر المسلمون يشترون اللحم من جزارات اليهود ..

● الفول المدمس

وما دمنا قد ذكرنا موضوع الطعام ، فلنذكر ما كتبه هيرودوت عن « الفول » .. وخاصة بعد أن صار الفول موضع مقالات بين صحف الكويت وصحف مصر فى هذه الايام ، بعد أن كتب أحد الصحفيين هناك يعير المصريين بأنهم يعيشون على أكل الفول ..

يقول هيرودوت فى كتابه :

« ولا يبذر المصريون الفول فى بلادهم مطلقا ، ولا يذوقون ما قد ينبت منه فجا أو مطبوخا .. أما الكهنة فلا يطيقون حتى رؤيته ، ويعتقدون أنه بقل نجس »

ويعقب الدكتور صقر خفاجة على هـذا بقوله : أغلب الظن أن يكون فى قول هيرودوت شيء من المبالغة ، وقد يكون الصواب فيما رواه ديودور الصقلى من ان أكل الفول كان محرما على بعض المصريين .. أى على الكهنة والطبقة العليا ، وقد يكون السبب فى هذا أن الفول من الاغذية عسرة الهضم ، وانه يفسد المعدة بما يثير فيها من الغازات .. ولم تكن زراعته « محرمة » فى مصر ، فقد وجدت حبوب منه فى بعض قبور المصريين !

ومن أين جاء الفول وانتشر فى مصر حتى صار طعاما نستسيغه جميعا فى وجبة الافطار ، ويعتمد عليه كثير منا فى وجبة الغـداء والعشاء ، لا أدرى .. ولعله جاء فى خلال الرحـلات والغزوات والهجرات بين مصر والمشرق ، وعندما كانت سيناء مخضرة بالخضر والبقول بما فيها الفول والعدس .. فقد قال سبحانه وتعـالى فى القرآن الكريم :

« واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطـوا مصرا فان لكم ما سألتم » .

# شعب صناعة الحضارة

اذا ذهبت الى استنبول وطفت بمساجدها الباذخة القائمة على ضفة البوسفور ، والمنتشرة فى أرجاء المدينة مطلة بمآذنها المتعالية الى السماء .. واذا دخلت مسجد السليمانية أو مسجد السلطان أحمد ، أو مسجد القبة الزرقاء وراعتك وبهرتك روعة العمارة وهيبة البناء ودقة الفن وجماله .. فأعرف ان الايدى المصرية هى التى عملت فى بناء هذه المساجد، والمآذن ، والمنابر ، والمحاريب ، بكل ما حملته هذه الايدى من مهارة وخبرة ودقة وذوق عظيم .

واذا شرقت وذهبت الى الهند وزرت مدينة أجرا ورأيت ضريح تاج محل فى النهار حينما تسطع الشمس على قبابه ، أو فى الليل حين تنعكس صورة البناء الرائع على صفحة النهر الهادىء .. وعندما تدخل هذا الضريح الهائل فتقرأ على جدرانه آيات من القرآن الكريم محفورة فى المرمر ، وتحيط بها الزهور بالوان شتى زاهية ، مرسومة بقطع من المرمر بلون الزهور والاغصان .. فأعرف ان الايدى المصرية هى التى عملت فى بناء هذا الضريح الرائع مثلما عملت فى اقامة المساجد والمآذن والاضرحة فى دلهى وأجرا وحيثما قام الحكم الاسلامى فى ارجاء الهند .

واذا طفت بكل ما حولنا من بلاد ، من فارس شرقا الى تونس غربا ،ورأيت روائع الفن الاسلامى من مساجد ومآذن ٠٠ومن أضرحة وقباب ٠٠ وأيضا من قصور السلاطين والامراء ، وما حوت من أثاث وآنية ومتاع ٠٠ فأعرف ان هذه الايدى المصرية قد عملت في أقامة وصناعة هذه الروائع ٠٠ وانها حملت الى أرجاء العالم الاسلامي شرقا وغربا كل ما اكتسبته واختزنته على مر الادهار من خبرة ومهارة وذوق في أبداع الحضارة ٠

فاذا مررت سريعا بصفحات التاريخ ووصلت الى عالم اليوم ، فستجد انها هى الايدى المصرية التى أقامت وعمرت هـــذه الاحياء والصفوف من العمائر الحديثة ٠٠ ومن البيوت الانيقة ٠٠ التى نراها الآن فى الكويت وفى الامارات وفى ليبيا وفى ارجاء كثيرة فى العالم العربى حيث تقف علامات بارزة على العمران والتقدم والرخاء ٠

انها ليست ايدى المصريين فحسب ، ولكنها ايضا عقول المصريين ، وما تحمل هذه وتلك من مهارة موروثة ، ومن علم وخبرة ، ومن فن وذوق ٠٠ فلم يعد دور مصر فى عصرنا هذا مقصورا على دورها القديم فى بناء العمائر والقصور والبيوت ٠٠ ولكنها تسهم فى بناء الانسان حضاريا ، فى المدارس والجامعات ٠٠ وفى قوانين الدولة واجهزة الحكومة ٠٠ وفى حياة الناس وتقدمهم ورفاهيتهم ٠٠ وتسهم فى تغيير وجه الحياة فى كل نحو من الانحاء : من بداوة الى حضارة ، ومن حياة القبيلة الى نظام الدولة ، ومن مهنة الكر والفر ، أو مهنة الرعي والصيد ، الى حرف العمل ، والانتاج ، وتهيئة الحياة المتحضرة والمترفة ٠

انها « العمالة المصرية » كما يسمونها هذه الايام ، أو هى « صناعة الحضارة » كما يرويها التاريخ منذ السلطان سليم ، وما قبل السلطان سليم ، وحتى يومنا هذا ٠

## ملحمة الشعب المصرى ‥ فى كتاب

أكتب هذه الكلمات بعد أن أعدت قراءة كتاب « سندباد مصري » الذى وضعه الدكتور حسين فوزى ، وجمع فيه صورا من « ملحمة » الشعب المصرى ·

وقبل أن نمضي معا في قراءة صفحات ، أو فقرات ، من هذا الكتاب البديع اريد ان يعرف القارىء من هو حسين فوزى صاحب « سندباد مصرى » ·

كلنا يعرف الدكتور حسين فوزى اديبا فنانا ، يطوف بنا نحن الذين نقرؤه ونستمتع بما نقرؤه ونستفيد فى عالم الموسيقى الكلاسيكية ، وعالم الفن الاوربى ، وانحاء كثيرة من الفكر والادب الحديث ·

كثير منا قرأ كتابه عن « الموسيقى السيمفونية » أو قرأ كتابه القديم « سندباد عصرى » وسندبادياته الاخرى · وربما كان فينا من يعرف ان الاديب المبدع عالم فى علم البحار ، ويعرف ان رحلته الى المحيط الهندى هى رحلة للبحث العلمى فى اغوار البحار وفى احياء الماء ! ·

أما حسين فوزى مؤلف « سندباد مصرى » فانسان آخر ‥ انسان مصرى أولا وقبل كل شيء !

لم تطمس اوربا ، بحياتها وفنها وموسيقاها ، ولا بنظراتها العلمية الى الامور ، طبيعته المصرية الاصيلة ‥ بل لعلها أكدت فيه هذه الطبيعة واذكت مشاعره المصرية !

ولعل من أسباب هذا انه اقترنت مرحلة الطفولة والشباب فى حياته ، بمرحلة تحول وتطور عميق فى حياة مصر ، مثله فى هذا مثل صديقه الاستاذ توفيق الحكيم · فتفتحت المدارك ، والمشاعر ، الى مالا تتفتح عليه عندما تكون الحياة راكدة آسنة · ليس فيها موج يدفع الى الامام أو حتى الى الوراء ·

يقول حسين فوزى فى مقدمة كتابه :

« والحق اني منذ زمان طويل اطمح فى وضع كتاب على هامش التاريخ أصور فيه الحياة المصرية منذ نشأتها صورة صادقة لما اختلجت به نفسي منذ تيقظ في الشعور والادراك ، سواء أمام النيل وفوق واديه الخصب ، أو فى عرض البحر مقبلا من البحر الاحمر بعد رحلة طويلة بالمحيط الهندي ، عابرا قناة السويس الى بحرنا الابيض ، أو جوابا على سطح بحيرات الدلتا الواسعة ، أو متنقلا من بحيرة قارون ومديرية الفيوم ، أو مخترقا الصحراء الى الواحات النائية ، أو مختليا بآثار اجدادي في المتاحف هنا ، وفي الخارج ، أو مرتادا اطلال بلادي القائمة فيما بين الشلال والدلتا : أطلال العصر القديم ، والحقبة اليونانية الرومانية ، وآثار العهد القبطى ، والعصور الاسلامية .

« أحسست في هذه التجارب بالوحـــدة الكامنة خلف كل تلك الحضارات المتعاقبة ، وفي السراء والبأساء .. الوحدة القوية المتماسكة التي جعلتني أشعر بأنني ابن اعرق الشعوب طرا .. تلمست تلك الوحدة فعرفتها في حقيقتها الانسانية ، عرفتها في المصرى فردا وشعبا ، مهما تعدد حكامه ، وتداولته الاحن والارزاء .

فكتابي هذا صور من ملحمة هذا الشعب الذى أفخر بانني واحد من احاده » .

لقد قرأت هذه « الملحمة » التي عرضها كاتبنا الكبير فى كتـــابه البديع اكثر من مرة .. وأشهد انني استمتعت بما قرأت .. ولكنني لا استطيع أن أقول انني « استرحت » عندما قرأت «سندباد مصرى» لأول الامر وانا فى الخارج .. ولا استطيع ان اقول انني « أستريح » وانا أنظر فيه من حين الى حين .

والدكتور حسين فوزى يختم كتابه بعبارات مؤثرة فيقول :

« اردت لهذا الكتاب ان يكون ملحمة للشعب المصرى ، فاذا هو فى أكثر من موضع مرثية طويلة لما عاناه على مدى الازمان ، واذا بى ، وانا اؤكد قوة هذا الشعب على المقاومة والصراع والبقاء ، واشير الى ما اداه من خدمات للحضارة أتوكأ على آلامه وحزانته » .

● **يوم الجمعة الحزينة ..**

انها سلسلة من الالام ، لا نعرف اولها ولا آخرها .. ولكن كتاب « سندباد مصرى » يبدأ حيثما اتفق ، بصفحة عنوانها « الجمعـــة الحزينة » .. انه يوم جمعة فى نهـاية عام ٩٢٢ هجرية ( ١٥١٨ ميلادية ) فيقول :

« وختم ائمة المساجد بمصر والقاهرة خطبهم بهذا الدعاء : انصر اللهم السلطان ابن الســـلطان ، ملك البرين والبحرين ، وكاسر

الجيشين ، وسلطان العراقين ، وامام الحرمين الشريفين الملك المظفر سليم شاه ٠٠ اللهم انصره نصرا عزيزا ، وافتح له فتحا مبينا ، يامالك الدنيا والاخرة ، يارب العالمين » ٠

والسلطان سليم هو السلطان سليم العثماني المعروف باسم سليم الفــاتح ٠٠

فتح مصر واستولى في نصف عام كما يقول المؤلف «على امبراطورية واسعة ، هي تلك الدولة الكبيرة التي أقامها المماليك في مصر قبــل ان يفد سليم بثلاثة قرون ،وامتدت من اليمن جنوبا حتى نهر الفرات وجبال طوروس شمالا ، وعلى شاطىء بحر الروم من خليج الاسكندرية حتى بلاد برقة ، وعلى ضفاف النيل حتى اعالي النوبة »

وفي اثناء اقامته القصيرة في مصر ،تفرج سليم على الاهرام وتعجب من بنائها ، وغسل وجهه من ماء بئر البلسان بالمطرية ، وما أظنه ــ هذا ما يقوله المؤلف ــ عنى بالمسلة ، أو بقصة استراحة يوسف النجار ومريم العذراء وطفلها في ظلال الجميزة الالفية ٠

وسافر الى الاسكندرية ليأمر بحبس الفين من المصريين من رجال الحرف والصناعات ، وكبار المباشرين والتجار ، الى جانب عدد من القضاة والاعيان والامراء والمقدمين ٠٠ حبسهم في أبراج الاسكندرية وخاناتها ، انتظارا لقيام المراكب بهم الى القسطنطينية ٠

وكان قد نزع من بيوت مصر والقاهرة اثمن ما فيهــا من منقول وثابت ،حتى الاخشاب والبلاط والرخام والاسقف الموزيكا والاعمدة السماقية بأيوان القلعة ، ومجموعة المصاحف والمخطوطات والمشاكى والكراسي النحاسية والمشربيات والشمعدانات والمنابر ٠٠ وهذه هي الحرب المخربة ، وذلكم كان الغزو الاكبر ٠٠ ان يعود سليم وأجناده العثمانية محملين بالاسلاب الغالية ٠٠ نماذج اصيلة لحضارة مشرقة »

## على باب زويلة

وفرغ السلطان سليم من فتح مصر والاستيلاء عليها في شــهور قليلة ،وراح يمضي وقت راحته في بيته في الروضة تجاه مقياس النيل في لعب الشطرنج أو في مشاهدة خيال الظل ٠٠ وكان المشهد المحبب له في خيال الظل هو مشهد المشنقة !

يقول مؤلف « سندباد مصري » :

« جلس الخنكار سليم شاه يحيط به رهط من المرد ، مع بعض امرائه الانكشارية والاصباحية يتسامرون ويتحادثون ، وقد مدت بينهم الاسمطة يتخاطفونها كالذئاب ٠٠ ثم نصبت لهم شاشة بيضاء في صدر الايوان ، وقف خلفهم واحد من المخايلين ، بعد ان اطفأ الانوار

الا مصباحا كبيرا خلف الشاشة ، تلعب عليها ظلال تصاوير من الورق، ترسم رحبة باب زويلة ، تحيط بها اجناد غرباء ·

« ويخرج من البوابة رجل يركب فيلا ، وربما جملا ، ويترجل مرفوع الرأس طويل اللحية ··ويتسلمه المشاعلية ليضعوا الحبل في عنقه ، ويشدوا الحبل المعلق بقاعدة برج البوابة ، فينقطع الحبل بالمشنوق ·· ويعود المشاعلية الى وضع الخية مرة أخرى حول عنق الرجل ، وينقطع الحبل مرة ثانية ·· وفى الثالثة يتدلى الرجل ، وتستدير لحيته الى أعلى ، وتلعب سيقانه فى الهواء هنيهة ، ثم يسكن حراكه » ·

والمخايل يلقى فى أثناء هذا العرض السينمائى بأزجال وفكاهات يضحك الصبيان المرد من فحشها وسلاطتها ، ويضحك العثمانيون دون أن يفهموا حرفا ، والسلطان منشرح الصدر لهذه المخايلة ، فينعم على المخايل بثمانين دينارا ، وبقفطان من المخمل المذهب ، ويقول له : تعال معنا الى اسطنبول حتى يتفرج ابنى على ذلك ·· يتفرج على عملية شنق طومان باى ، زعيم المماليك !

وهؤلاء المماليك هم الذين « تصدوا » لمقاومة السلطان سليم عندما جاء يغزو مصر ·· ولكن لماذا يقاومون ويقاتلون ؟ ·· هل مصر وطنهم ؟ ·· وهل يضحون بحياتهم مقابل ثلاثين دينارا أعطاها السلطان الغورى لكل مملوك ؟ ·· فلما طالبهم بالقتال قالوا له : ان كنت تعمل سلطانا فامش على طريقة من تقدمك من الملوك — أى ادفع لنا مثلما كانوا يدفعون — وان رحت فلعنة الله عليك ، وغيرك يجىء ويعمل سلطانا !

## حرفتكم البنه وحرفتنا الحرب

هذه كما يقول الدكتور حسين فوزى كانت عدة مصر لملاقاة السلطان العثمانى ، وعساكره كالجراد المنتشر ، ومدفعيته تعتمد على أحدث ما كان يصنع منها فى ذلك الزمان · أى أمل فى فوز الاجناد الجراكسة وهذا روحهم ؟ · وكيف تدفع مصر عداتها وأبناؤها لا يعرفون من أمر الحرب شيئا ؟ نسوا بمضى الزمن صنعة الجندية ، منذ غزاهم الفرس ، بل قبل ذلك فى أواخر عهد الاسرات الفرعونية ؟

وهكذا دخل السلطان سليم مصر دون حرب حقيقية مع المصريين ·· مثلما دخلها من قبل الاسكندر المقدونى ، وعمرو بن العاص ، وسلسلة طويلة من الغزاة والفاتحين !

وهنا يقول مؤلف « سندباد مصرى » فى عبارات واضحة مايفسر هذه الصورة المتكررة للشعب المصرى وحكامه خلال دهر طويل من الزمن امتد منذ عصر عهد قمبيز الفـــارسى حتى مطلع العصر الحديث ..

« نحن الفرس ، نحن المقدونيين ، نحن الرومان ، نحن الروم نحن العرب .. المغاربة ، الكرد ، أبناء مزغـــانة وكردستان .. نتوكل بأمر الحرب والضرب ، ونتولى عنكم أيها المصريون صناعة الحرب ، لان صناعتكم يا أهل مصر هى احيـــاء موات الارض ، وصناعتنا القتل والنهب والسلب ، والكر والفر ، والدفاع والغزو .. تحرثون وتبذرون وتحصدون ، رنخـــرب وندمر ونسطو .. حرفتكم بناء القصور والمعابد والمدارس والمساجد والخوانق والترب .. ونسيج الحرير والكتان ، والتكفيت ، والتـذهيب والنقش ، وحرفتنا الحكم ، والظلم والاستيلاء .. صناعتكم ــ يا أولاد مصر ــ هى الحضارة والتعمير .. وبس .. »

●●●

وأتوقف قليلا عند كلمة ( وبس ) حتى يخف وقع العبـــارات السابقة على أسماعنا ومشاعرنا ! وهذه الكلمة هى احدى الكلمات والعبارات المصرية ، أو العربية العامية ، التى تعترضنا فى أثناء قراءة الدكتور حسين فوزى وطوافه بنا فى عالم الفن والفكر .. فبينما يكتب متعمقا فى الموسيقى حتى يطير بنا الى سماء السيمفونية الخامسة لبيتهوفن ، اذ به يقول : ( يا أخى فلقتنا بالسيمفونية الخامسة بتاعتك ، هو احنا حنتجوزها ) ! .. وكتابه ( سندباد مصرى ) .. الذى يطوف بنا فى تاريخ مصر مستشهدا بعشرات من المؤرخين المصريين والعرب والاوروبيين، يكتب فى ختامه : توتة توتة، فرغت الحدوتة ، وادينى كنت عندهم وجيت ، وان ما كانشى طاقيتى مخروقة ، لجبت لكم معايا فتة ومسلوقة ) .

●●●

ولنعد الآن الى أن من حكموا مصر من الاجانب احتكروا صناعة الحرب والقتال ، ولم يتركوا لنا الا صناعة الحضارة والتعمير .. وهى ناحية تعرض لها كل من كتبوا عن الطبيعة المصرية ، فأكتفى بأن أستشهد بأقوال اثنين من الكتاب والمفكرين .

أولهما العقاد وهو يقول :

والامة المصرية ليست أمة بداوة تتوثب الى الحـــرب لانها باب الرزق وطريق السلامة من الجار المعتدى أو الجار المخيف .. ( أظن

أن العقاد يعنى بهذا الحرب الوقائية ) .. ولكنهـــا أمة حضارة مستقرة ومعيشة منتظمة تلجأ الى الحروب حين تلجأ اليها لانهـــا ضرورة لا محيص عنها ، ونكبة لا تستهين بها الا اتقاء لنكبة أكبر منها ، وأصعب عاقبة من عاقبتها .. وهى لا تطيع حـــكامها كما يطيع البدوى زعيمه : الى الحرب يا رجال فاذا الرجال كلهم على أهبة القتال ! .. فاذا دعاهم الحاكم الى حرب لاتعنيها فذلك شأنه وليس شأنها . وتلك خسارته وليس بخسارتها . أما اذا أصيبت فى عقائدها وموروثاتها ، أو ظهر لها الجور على أرزاقها ومرافقها فهناك يستعصى قيادها كأشد ما يستعصى قياد أمة ، وهناك تصمد للحرب كما يصمد لها المقاتل المجبول عليها .. ثم يقول العقاد : وقد حارب المصريون في جيوشهم المنظمة ، ولقوا فى حروبهم أعداء ذوى بأس .. فكانوا مثلا فى الشجاعة والنظام ، ولم يقل عدو قتال ، ولا عدو جنس ، انهم نكلوا عن مواقف الثبات والاقدام ..

وثانيهما الدكتور جمال حمدان الذى كان أكثر تأكيدا على هذه الحقيقة وتوضيحا لابعـــادها .. فيقول .. ( فحتى فى مثل تلك الفترات التى احتكر فيهـــا الاجانب السلام ، كانت حروب مصر وانتصاراتها في الداخل والخارج تتم بجيش جسمه الاساسى من المصريين وقوامه الاول الفـــلاح المصرى كمـــا حدث أيام الايوبية والمماليك مع الصليبيين ) .. ويقول : ( والحقيقة أن مصر كانت دائما شعبا محاربا بقدر ما كانت شعبا بناء ، وكان المصرى قديما وحديثا هو الانسان المحارب ، كما كان الانسان الصانع ) .. ولكن الحرب عند المصريين هى ( الدفاع ) بأوسع ما تعنيه هذه الكلمة وليست ( الهجوم ) الذى تحترفه بعض الشعوب .. فيقول جمال حمدان : ( نعم الدفاع ) .. فمصر كانت تختلف عن شعوب الرعاة والبدو وأنصاف البدو والرحل .. فهى غنية وهم بيئات فقيرة .. فهم قد يطمعون فيها أو ما يشبهها من بلاد غنية ، أما مصر فلا تجد فى فقرهم ما يغريها أو يدفعهم للاستيلاء عليهـــا . فهم محاربون باليدين ، ولكن مصر بالضرورة تبنى بيد وتحارب بالاخرى .. ومن هنا فان مصر كانت دائما شعبا محاربا ولكن دون أن تكون دولة محترفة حرب .. لانها محارب مدافع أساسا ، لا محارب معتد ) !

# ويجري الإيمان في عروقهم ..
# كما يجري النيل في أرضهم

وهذا كتاب آخر عن « الشخصية المصرية » .

كتاب وضعته دكتورة نعمات أحمد فؤاد التى عرفها جمهرة الناس عن طريق حملتها المخلصة لحماية « هضبة الاهرام » .. تلك الهضبة التى اتخــذها الفراعنة عندما راحوا فى فى عهد أسرهم الاولى يقيمون المعابد والقبور والهياكل الشامخة المهيبة ولعلها تكتنز فى باطنها الفسيح تراثا وآثارا خلفهـا أولئك المصريون العظــام الذين وضـــعوا أسس الحضارة والديانة والدولة والمجتمع الانســـانى حين كانوا يرفعون احجار الاهرام وحين كانوا ينحتون ملامح أبى الهول .

وقضية هضبة الاهرام التي دافعت عنها نعمات أحمد فؤاد هى احدى وقفاتها بالحب والتــأمل والتفكير فى مصر قديما وحديثا ، فان الكاتبة الاديبة واقفة دائما عند مصر ، تتغنى بنيلها وحقلها وسمائها .. وتردد تاريخها وقصة حضارتها .. وتلمس معابدها وكنائسها ومساجدها .. وتعكف على الكتابة عن شخصيات مصرية صميمة : أم كلثوم ، والعقـاد والمازنى وتلمس هذا كله فى كتابها « شخصية مصر » الذى نطوف ببعض أجزائه وصفحاته وخاصة تلك الفصول الحافلة عن مصر قبل الاديان وبعد الاديان .

انتقل المصريون ، او قل الغالبية من أهل مصر .
من الديانة المصرية القديمة الى الدين المسيحى ،
ثم الى الدين الاسلامى .

وقد نشأت الديانة المصرية القديمة فى أرض مصر ، فى صعيدها القبلى وفى سهلها البحرى .

ونشأ الدين المسيحى فى فلسطين ، وجـاء الى مصر عبر روما وعبر بيزنطة .

ونشأ الدين الاسلامى فى الجزيرة العربية وجاء الى مصر عبر الشام وفلسطين .

وهكذا غير المصريون ، أو الغالبية منهم ، دينهم عبر التـاريخ الطويل مرتين : مرة حين اعتنقوا المسيحية .. ومرة حين اعتنقوا الاسلام .. وقد فعلوا هذا بعد تفكير وتأمل وتمحيص للدين الوافد فى المرة الاولى وفى المرة الثانية ، فلما تبين لهم أن هذا الدين ليس نشازا عن طبيعتهم ، ولا يصدمهم فى جـوهر ايمانهم ، استجابوا للدين الجديد ، واقبلوا عليه ، وتحمسوا دفاعا عنه .. بالرأى ، والعقيدة ، بل والاستشهاد حين وجب ..

لم تفرض المسـيحية على المصريين ، بل اعتنقوها وعذبوا فى سبيلها ، واريقت دماؤهم بسيوف الرومان وأسودهم فى ملاعب الاسكندرية وعرفت مصر فى تلك المرحلة ( عصر الشهداء ) .

وحتى عندما انتقل قيصر الرومان الى المسيحية واتخذها دينـا للدولة ، استمر اضطهاد الاقباط فى مصر ، بدعوى أنهم « مصروا » المسيحية وجعلوا من القبطية طبعة مصرية من الدين المسيحى .. ففى خضم الصراع فى بيزنطة ، بين أصـحاب الطبيعة الواحـدة وأصحاب الطبيعتين ، أصاب الاقباط فى مصر على أيدى المسيحيين الرومان بلاء شديد ، فاعتصموا بدينهم فى الاديرة فى الصحراء ، ولم يبق فى كثير من مدن مصر وقراها كنيسة قبطية ولا قسيس..

حدث هذا على أيدى الرومان حتى بعد أن اتخـذوا المسيحية دينا رسميا للامبراطورية !

ولم يفرض الاسلام على المصريين ، فقد دخل العرب بأعداد قليلة لا تستطيع أن تفرض الاسلام قهرا ، ومضى قرن طويل من الزمان قبل أن تقبل غالبية المصريين على الاسلام ٠٠

لم يفرض الاسلام على أهل مصر ، فقد دخل العرب مصر يحملون معهم تحية عن نبى الاسلام عليه الصلاة والسلام، وتقول هذه التحية المأثورة « استوصوا بالقبط خيرا فان لهم ذمة ورحما » ٠

**عمرو بن العاص**

وكان أول حاكم اسلامى لمصر عمرو بن العاص ، وكان عمرو حاكما صالحا مصلحا ، مثلما كان قائدا قديرا وجنديا باسلا ٠٠

استهل فتحه بأن استقبل بطريرك الاقباط بنيامين الذى كان معتصما فى دير فى أقصى الصعيد ، أوى اليه عشر سنوات أيام الرومان ، وعقد معه معاهدة سلام ٠٠

ومضى يحكم مصر بروح جعلت يوحنا النقيوسى ، أحد كبار رجال الاكليروس القبطى يسجل فى تاريخه هذه الشهادة بنصها :

« احترم عمرو أملاك الكنيسة ، ولم يقترف عملا يعاب عليه ، فعاش أهل مصر عهد السلام الدينى ٠ ورأوا اعادة انشاء الكنيسة الوطنية وأديرة النطرون ، ودير انبا مقار ٠ وجاء الرهبان أفواجا يؤكدون اخلاصهم للقائد العربى » ٠

وخفف عمرو بن العاص الضرائب التى كان يفرضها الرومان على المصريين وأدخل ما نسميه الآن « العدالة الضريبية » ٠٠ فعلى الغنى أربعة دنانير ، وعلى الفقير ديناران ٠٠

ويرى الخليفة عمر بن الخطاب أن دخل مصر أقل كثيرا مما كان يسمع عنه، ويشك في أن عمرو بن العاص يأخذ لنفسه جانبا من الدخل ٠٠ وتدور بينهما رسائل تدل على أن الانسان اذا خاف الله كما كان يخافه عمرو ، فلن يخاف أحدا ولو كان أمير المؤمنين ٠٠ وتدل على أن الحاكم اذا استقر فى قلبه أنه مسئول عن رعيته أمام الله كما استقر هذا الايمان فى قلب عمر بن الخطاب ، فلن يتردد فى أن يحاسب حسابا عسيرا رجلا عظيم الشأن ، رفيع المكانة ، مثل عمرو ابن العاص الذى فتح مصر ، ومن قبل هذا مشى مصـه حين دخل القدس ٠

يكتب عمر بن الخطاب رسائل يستجوب فيها عمرو بن العاص وينذره ، فيرد عليه عمرو فى حـزم بأنه ينفق أكثر ما يجبيه من الضرائب على شـق الترع ، وبناء القناطر ، وتعمير البـلاد ٠٠

وانه لن يزيد الضرائب بل يخففها .. لكيلا يهجر الناس حقولهم .. وحتى لايكتفى من يبقى منهم فى الارض الخصيبة بانتاج ما يحفظ له رمق الحياة ، دون أن يفيض منه ما يدفعه ضريبة تنفق على مزيد من الانتاج والاصلاح ..

ثم يتولى الامر ابنه عبد الله الذى ورث عن أبيه حب مصر وأهلها .. كان يقول : « أهل مصر أكرم الاعاجم كلهم ، وأسمحهم يدا ، وافضلهم عنصرا ، وأقربهم رحما بالعرب عامة ، وبقريش خاصة » .

كلمات جميلة ، وصحيحة ، قالها عبد الله بن عمرو بن العاص ..

وهذا ما كان عليه الامر عندما دخل العرب مصر ، وظل هكذا زهاء قرن من الزمان .. أما ما حدث بعد هذا فى عهد الخليفة المأمون وما وقع فيه من عسف بالمصريين ، فمرجعه أن أهل مصر ارادوا أن يستغلوا فرصة الخلاف بينه وبين أخيه الامين ، وأن يعلنوا انفصال مصر عن الخلافة العباسية فى بغداد .. ورأوا أن يدخلوا فى هذا الخلاف الى جانب الامين ، فلم يحالفه الحظ وانهزم وآلت الخلافة الى المأمون .. فلم يكن غريبا أن يأتى الى مصر وينزل العقاب بمن وقفوا مع خصمه ، وأرادوا الانفصال عن الخلافة الاسلامية !

ورغم هذا فلنقرأ من كتاب حسين فوزى « سندباد مصرى » هذه الصفحة من تاريخ المأمون وهو فى مصر ، بعد أن خمدت الفتنة وهدأت الاحوال ، فأخذ يطوف بأرجاء البلاد ليطمئن الناس ويزيل مخاوفهم .

« مر المأمون بضيعة تسمى « طاء النمل » فلم يدخلها لحقارتها . وجاءته عجوز اسمها ماريا ، هى صاحبة الضيعة ، وأخذت تصيح عليه ، فوقف لها وسألها عما تريد ، فقالت : « يا أمير المؤمنين ، نزلت فى كل ضيعة وتجاوزت ضيعتى ، فأتوسل اليك أن تشرفنى بحلولك فى ضيعتى ، كى لاتشمت بى الاعداء » ، فأجابها المأمون الى طلبها ، وقدمت له ولابنيه المعتصم والعباس ومن معهم من فاخر الطعام شيئا كثيرا ، فلما أصبح الصباح وقد اعتزم الرحيل ، حضرت اليه ومعها عشر وصيفات فى يد كل واحدة طبق ، فقال المأمون لمن معه : « جاءتكم القبطية بهدية ريفية » . واذا فى كل طبق كيس من ذهب ، فأمرها باعادة الهدية ..فقالت له : لاتكسر قلوبنا ولا تحتقرنا يا أمير المؤمنين ، فلم يسعه الا اجابة طلبها .. ثم سألها : « من أين لك كل هذا ؟ » فأجابت : « يا أمير المؤمنين : من هذا .. » وأشارت الى الارض ، ثم انحنت فتناولت حفنة من الطين رفعتها فى وجه المأمون لتقول : « من هذا .. ثم من عدلك يا أمير المؤمنين » .

« تلك كلمة الشعب المصرى لأى حاكم من حكامه : لا أطلب منك الا أن تجرى فى أحكامك بين الناس بالعدل ، وان ترعى شئونهم بالرفق .. ثم افعل ما بدا لك بعد ذلك ، مادمت تتركنى فى وادى الخصيب » .

● المئذنة .. والمسلة

خلاصة هذا التاريخ الطويل أن المصريين ، أو قل الغالبية الكبرى منهم ، انتقلوا من الديانة المصرية الى الدين المسيحى الى الدين الاسلامى فى تسلسل طبيعى ، وتخلله الاضطهاد فى أيام الرومان، وتخلله الضغط أيام المأمون ، ولكن لم يشبه التعصب والتمزق والفتنة بين المصريين أنفسهم .. لان مصر ، كما تقول الدكتورة نعمات أحمد فؤاد « مؤمنة فى نقاء قبل الاديان ، وبعد الاديان » ، وتقول أيضا : « ان الحس الدينى الذى يحتويه كيان المصرى واحد، سواء فى هذا أخناتون ، وسانت أنطونيوس ، وابن الفارض » .

وتقول الاديبة المولهة بآثار مصر ، فرعونية وقبطية واسلامية :

« لقد أجمع أساتذة الفنون الذين رأوا جامع السلطان حسن على أنه فن فرعونى ، ولو أنه أثر اسلامى ..

« ان القبة هى الترجمة الاسلامية للهرم ..

« القبة هى هرم ترفق المسلم المصرى فى بنائه ، من رفق الدين الجديد ، فاستدار الخط بعد صلابة وثبات ..

« والمئذنة هى الصورة الاسلامية للمسلة .. ان داخل كل مئذنة مسلة فى الشكل والروح » .

ثم تمضى فتجد وجها للشبه بين أبرز ظاهرة فى العصر القبطى وهى الرهبنة ، وأبرز ما اسهمت به مصر فى الفكر الاسلامى وهو التصوف فتقول :

« الرهبنة تصوف المسيحية ..

« والتصوف رهبنة لاسلام » ..

ثم تلخص تاريخ مصر فى أربع عبارات :

خلاصة المصرى القديم : حضارة ..

خلاصة المصرى المسيحى : تجرد وشهادة ..

خلاصة المصرى المسلم : جهاد وخلوص لله ..

خلاصة المصرى المعاصر : اسلوب تفكير ، تتوافق فيه الوسيلة والغاية ..

●●●

ان الكاتبة الاديبة تكتب هذه الكلمات الشاعرية بعد أن تقدم لمحات من مصر فى مراحلها الدينية وتحاول أن تقدم من خلال هذه

اللمحات تيارا من الايمان : الايمان الذى لايتغير جوهره ، ولكنه ارتدى ملابس مختلفة من الاديان .

فمثلا :

× كانت مصر القديمة تقول « اطع الاله الذى في قلبك » ، اذن الاله الحقيقى ليس آمون أو رع .. ان هى الا أسماء ترمز الى الاله الحقيقى .

× كان الدعاء المأثور فى عهد أمنحتب الثالث :

« أيها الموجد الذى لا موجد له ..

« أيها الواحد الاوحد الذى يطوى الابد ..

« أنت الام البار للألهة والبشر ..

« والصانع الدءوب الخالد فى آثاره التى لا يحيط بها حصر .

« والراعى ذو القوة والبأس يرعى رعيته » .

فهل كانت مصر وثنية وهى تترنم بهذا الدعاء ؟

× وتأتي الديانة اليهـــودية .. فيرى المؤرخون أن كثيرا من شعائرها مأخوذ من مصر القديمة ، وكذلك المعابد اليهودية اقتبست من المعابد المصرية ، فالأسدان القــائمان على عرش ســـليمان ، والعمودان البارزان القائمان كالمسلتين أمام المدخل ، يحملان طابعا مصريا واضحا .. بل ان الوصايا العشر قد سبقتها حكم ووصايا أخلاقية مصرية بألف سنة .

× وكما استمدت اليهودية من مصر في العهد القديم ، استمدت المسيحية من مصر في العهد الحديث .. وجاء المسيح الى أرض مصر ليجد فيها مأوى يقيه وأمه العذراء من بطش هيرودوس .. وفى القرآن الكريم « **وجعلنا ابن مريم وامه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين** » ..

ومن المؤرخين من يذكر « أن ايمـــان مصر القديمة بالثالوث : ايزيس وأوزوريس وحورس ، كان قبل قول المسيحية بالاب والابن والروح القدس .

ثم أقبل على مصر الحوارى مرقص وكتب فيها انجيله الذى يعد من أبلغ الاناجيل أسلوبا وأوفرها حكمة .

× وعندما جاء الاسلام شربته مصر ، ونمت به ونمته .. فلم يمح شخصيتها بل أضاف اليها عمقا جديدا .. وأضاف لها فضلا جديدا يوم حملت مسئوليته فى السلم والحرب ، فدافعت عنه فى مواقعه الكبرى ، وحمت حضارته التى تهددها هولاكو والصليبيون، فوق ما عملته على أرضها برصيدها الكبير فى صناعة الحضارة .

× وصفحتها الاسلامية مشرقة بالولاء والوفاء .. فهل قتل أهل

مصر أو عذبوا أحدا من آل البيت ، أو من أولياء الله أو من علماء الاسلام وفقهائه ، مثلما حدث في بلاد أخرى من بلاد المسلمين ؟

ان الكاتبة الفاضلة تذكر هذه الواقعة :

« الامام الحسين بن علي ، قابله في الطـريق الى كربلاء رجل يعرفه ، فسأله الامام :

ـ كيف حال الناس ؟

فقال :

ـ قلوبهم معك وسيوفهم عليك ·

وانهالت السيوف على الحسين ، وقتل في كربلاء ·

« ثم انقض زبانية يزيد على طفل الحسين زين العابدين ، وكان مريضا ، يريدون أن يفتكوا به ، فاحتوته عمته السيدة زينب في حجرها وصرخت فيهم : اقتلوني أنا أولا ··

« فارتدوا يجللهم الخزي والعار ·

« وعاش زين العابدين ·· ليعيش ذكر أبناء علي ويقوم لهم ملك ودولة ، بل عاشت باسمهم في التاريخ الاسلامي الدول والملوك ·

« أما السيدة زينب بكل ما تمثـله من معـاني الفداء والحماية والحنان ·· بكل ما تمثله من معاني الحق وشجاعة الرأي والموقف والضمير ·

« السيدة زينب هذه ، أهانها الخليفة يزيد بن معاوية في حضرته، وأخرجها من دولته في الشام والعراق ، فاستقبلتها مصر ، واليها وشعبها ، عند حدود الشرقية ·· وتنـــازل الوالي عن قصره لها ، وأنزلها فيه ، وهو ضريحها الآن ·

« ترى لو احتمى الحسين بمصر فهل كان يلحقه حيف ، أو يعلوه سيف » ·

« سؤال يلح على خاطري بين الحين والحين » ·

●●●

تلك صور من « أرضية » مصر ·· أو قل من « سماوية » مصر ·· نرى فيها تيارا واحدا من الايمان ومن التدين يتدفق في عروق المصريين عبر العصور والاجيال مثلما يتدفق النيل دائما والى الابد في أرضها ووديها بالخير والبركة والنماء ··

هذا النيل يكسو الارض خضرة وجمالا ، فتخرج الرزق والخير والايمان ·

وهذا الايمان لابد أنه يملأ قلوبنا منذ القدم ، ويعمرها بالتدين، وبالتعاطف والتسامح ، ويثبت فيها اعتقادا مصريا راسخا بأن الدين لله ، والوطن للجميع ·

# عرفنا التّدين .. ولم نعرف التعصّب



نمضي مرة أخرى مع دكتورة نعمات أحمد فؤاد في الحديث عن الدين والوطن ٠٠ أو عن القومية والدين ٠٠ أو بعبارة أوضح عن قضية الوحدة الوطنية بين المصريين : مسلمين وأقباطا ٠

أن الكاتبة الاديبة تناقش هـــذه القضية بكل حرارة ٠٠ وهي تستمد هـــذه الحرارة من واقع التاريخ وأسانيده ، ومن تصورها الذى يبلغ حد اليقين أن هذه الوحدة الوطنية هي احدي الحقائق الثابتة في تاريخ مصر ٠٠ ولهذا أكتفي أن أقدم ما كتبت بكل مافيه من حرارة ، ومن تأكيد فلا أضيف اليه شيئا ولا أنقص منه الا قليلا لا يؤثر في سياق القضية التي طرحتهـــا ، وناقشتها ، وترافعت فيها ٠٠ حتى كان هذا الفصل الذى سمته « حقائق تحرص عليها »٠ مزيجا من الكتابة والخطابة ٠٠ فتقول :

« فلا يخلط كائن بين الدين والجنســـية ، كما والى في الماضى المسلمون ( بعض منهم ) الاتراك ، والى الاقبـــاط ( بعض منهم ) الانجليز ٠٠ لا عن خيانة من الطرفين ولكن عن سطحية في التفكير والوطنية ، وما منع الاسلام تركيا ، ولا منعت المسيحية انجلترا ، أن تظلم مصر كلها باستعمارها ، ثم باستغلالها ، وتعويقها وقهرها ٠٠

« الدين علاقة خاصة بين الله والانسان ٠

« ولكن الوطن علاقة عامة أخطر أثرا ، لان الله غنى عن صلواتنا تحت جميع الاسماء ،ولكن الوطن حياته بحياتنا ، وحياتنا بحياته، مقترنة ومطرده علوا وانخفاضا ٠

« الاديان جاءت بعد الانسان ، ونحن مصريون قبل الاديان ، والى آخر الزمان »

وتمضي دكتورة نعمات فؤاد في عرض القضية فتقول :

« المسيحية جاءت من فلسطين

« والاسلام جاء من الجزيرة العربية

« وليس الاقباط بالمسيحية فلسطينيين ، بل هم مصريون اعتنقوا المسيحية .

وليس المسلمون بالاسلام عربا ، بل هم مصريون اعتنقوا الاسلام .

« وكما نشرت مصر المسيحية واضافت اليها كما لم يفعل أحد ، نشرت مصر الاسلام ومكنت له كما لم يفعل أحد

وبما تمثل المسيحية من وقفة مصر وموقفها ، ومن رأيها وشخصيتها ، نعتز بالمسيحية مسلمين وأقباطا لاننا مصريون .

« وبما يمثل الاسلام من سماحة مصر وتفتحها ، من احساسها بذاتها حتى لا تخشى الجديد ، لانها بالتاريخ الطويل تعرف أن لها في كل مسرح مكانها ومكانتها .. بهذا ، ولهذا ، نعتز بالاسلام اقباطا ومسلمين لاننا مصريون

« وامتدادا لهذا ، حين تمد مصر للعروبة يدا داعية ومستجيبة لما يخدم هذا من مصالحها ويعزز دورها ويساندها ، لا أملاء من فرد ، أو تحقيقا لطموح شخصي ، أو اندفاعة مريضة ، فأن العروبة هنا ، بما تمثل من رأي مصر نفسها ، نعتز بها اقباطا ومسلمين لاننا مصريون »

●●●

بعد هذه العبارات الحارة القاطعة . تناقش الكاتبة الاديبة المسلمين والاقباط ، أو تناقش من يخوض في هذا الحديث ، ويثير هذه القضية من الفريقين :

تناقش المسلمين فتقول :

« ليس المصريون بالاسلام عربا بل هم مصريون اعتنقوا الاسلام .
ولا يسيء هذا العرب بل يشرفهم ، فلئن نكون مصريين اسلمنا خير من أن نكون أعدادا من العرب في مصر ..

« ما الجديد في هذا بالنسبة اليهم ؟ .. وما معنى خروجهم بالاسلام من الجزيرة العربية وتجاوزهم به الحدود اذن ؟ .. هل لم يؤمن به أحد غير العرب ؟ .. وما معنى « بعثت الى الناس

كافة ؟ « وأين عالمية الاسلام اذن ؟ .. ان لم يكن أهل البلاد المفتوحة أسلموا ، فهودين محلي خاص »

●●●

ثم تناقش الاقباط فتقول :

« والقائلون من الاقباط بأن المسلمين المصريين دخلاء ، ظنا منهم بسذاجة أن هذا يتيح لهم أن ينفردوا بمجد القدماء أو بشرف الانتساب الى مصر . لهؤلاء أقول :

« هل يشرفهم أن يكون الدخلاء ، كما يقولون ، يشكلون أغلبية، والاصلاء هم الاقلية ؟ .. أما حين يكون المسلمون مصريين مثلهم فان كل فضل للاغلبية أو للاقلية هو كسب للجميع باعتبارنا كلا واحدا يكمل بعضه بعضا . أمنا مصر وأبونا النيل ، وبينهما تتفاوت الاخوه وقد يختلفون،ولكن عندها يلتقون،واليها ينتسبون.

●●●

« وكيف يجوز في الفهم أن يزيح الفاتحون أهل البلاد ، ولاسيما اذا كان أهل البلاد أقدم تاريخا وحضارة ؟

« أن جيش الفتح فى قول كان أربعة آلاف ، وفى قول ثمانية آلاف ، وفى قول ثالث أنه بلغ بعد الامدادات أثنى عشر الفا .. ويمتد آخرون بالامدادات الى ثلاثين الفا

« وأهل البلاد فى قول ثمانية ملايين ، وفى قول عشرة ملايين ، وفى قول اثنا عشر مليونا .

« فلو أخذنا بأكثر الاعداد بالنسبة للفاتحين ، وبأقل الاعداد بالنسبة للاصليين

« فهل من المعقول ، أو حتى من اللامعقول المخبول ، أن ثلاثين ألفا يضاف اليهم من لحق بهم من قبائلهم ولو كانوا أضعافا أن يمسحوا بلدا .. وأى بلد ؟ .. بلد كمصر ! .. ويصبحوا هم أصحابه أو أغلبيته ؟

« حتى اذا تجاوزنا ان الهجرات والقبائل كانت مقترنة بشخص الوالى تخرج بخروجه ، وان صلاح الدين الايوبى ضيق على بقايا القبائل العربية واضطرها الى هجرة جديدة الى شمال افريقيا ـ حتى اذا تجاوزنا هذا كله وأسقطناه ، هل من المعقول ان الآلاف

تناسلوا فصاروا ملايين ، وعقم الملايين وصاروا آلافا أو مليونا أو بضعة ملايين وفقا لآخر احصاء ؟ ..

« أى منطق هذا ؟ ولمصلحة من ؟ . »

●●●

الى جانب هذه الكلمـــات تذكر المؤلفـة الفاضـــلة شيئا عن الواقع العلمى ، الذى يؤكـد ، على أية حـــال ، أن المســلمين والمسيحيين فى بلادنا سواء فى تكوين السلالة القومية ، وانه لافرق بين هؤلاء وهؤلاء فى الاصالة والقدم عند الانتساب الى أرض مصر وبيئتها .. وفى هذا يقول الدكتور سـليمان حزين فى بحث عن « سكان مصر ودراسة تاريخهم الجنسى » ان الطابع الجنسى العـام للمصريين قد وجد واتخذ صـــورته المميزة قبل أن يكون هنـاك أقباط ومسلمون .

●●●

هذا عن التاريخ القديم ، فاذا تخطينا الزمن الى العصر الحديث ، واجهنا ظاهرة التدخل الاجنبى بدعوى ما يسمى بحماية الاقليات ، حماية الاقلية القبطية من الاكثرية المسلمة فى مصر ، والاقلية المسلمة من الاكثرية الهندوكية فى الهند .. بل قد تكون الاكثرية والاقلية من دين واحد ولـكن على مذاهب مختلفة ، فيتـدخل الاجنبى الذى يدين بدين آخر ليحمى اتباع مذهب اسـلامى من أتبـــاع مذهب اسلامى آخر .. فقد عمق التدخل الاوربى الخلاف بين سنية الشمال وشيعة الجنوب فى العراق تفتيتا وتمزيقـا للوحـدة الوطنية فى الرافدين ، وحاول النفوذ الاجنبى أن يخرج ايران من نطاق العالم الاسلامى ، فهى شيعية قبل ان تكون اسـلامية .. وليس هـذا بجديد ، فحتى الصليبية تذرعت لا بحماية المسيحيين من المسلمين السلاجقة فى الاراضى المقدسة ، بل وأيضا بحمـــاية الشيعة من السنيين .. وانخدع بهذا طبعا فريق من الشـــيعة ، فلما انتصر صلاح الدين انتقم من الشيعة ونكل بهم فى مصر والشام ، فرأوا مرحلة أخرى من مراحل الاضطهاد !

ومع هذا فقد كانت الروح الوطنية تتغلب دائما على الفتنة الوطنية فى مصر .. حدث هذا فى أجلى مظاهرة أيام ثورة ١٩١٩ ، وحدث من قبل أيام الثورة العرابية ، وحدث ايضا حتى فيما بين الثورتين أيام الاحتلال البريطانى ..

●●●

نعود الى الدكتورة نعمات فؤاد فنجدها تكتب :

« أني اقرأ الآن في «الاستاذ» ـ وهي الجريدة التي كان يصدرها خطيب الثورة العرابية عبد الله النديم ـ فأجده يقول : حتى في الحروب الصليبية التي تحرك لها عالم أوربا برمته ، وامتدت قرنين، وكان لمصر فيها الشأن الاكبر واليد القوية ، لم يسمح أن مسلما تعدى على قبطي مع اشتعال نيران الحروب . وقد امتد ذلك حتى في زمن الحركة الاخيرة ـ يقصد الثورة العرابية ـ التي كانت مظنة لحدوث فتنة بين المسلمين والاقباط ، فانه لم يسمع بتعدي احد الفريقين على الاخر ، وعلى الخصوص في بلاد الصعيد التي يسكنها معظم الاقباط . وهذا كله دليل على ان التسوية بين المحكومين تكون الجامعة الوطنية »

« ويقول عبد الله نديم في موضع آخر :

« ومع كون الاقباط عاشوا دهرا طويلا وهم أصحاب مشيئة واحدة ، يأتمرون بأمر رئيسهم الديني وينتهون بنهية ، فانهم لم يجتمعوا يوما لتفريق عصا الجامعة الوطنية ، ولا لشق ثوب الائتلاف ، ولا تنافروا مع المسلمين بسبب من الاسباب دينيا أو دنيويا »

● ● ●

وتذكر المؤلفة وقائع شتى تتحدث عن هذه الوحدة الوطنية التي تجمع بين المصريين على اختلاف الدين ، ونذكر من هذا أمرين :

فقبل الاحتلال البريطاني بسنة واحدة انشأ بطرس باشا غالي الجمعية الخيرية القبطية سنة ١٨٨١ فخطب في الافتتاح الشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الله النديم .

وقد دافع الدكتور هيكل عن بطرس غالي في كتابه « تراجم مصرية وغربية » دفاعا جاوز حد الانصاف الى التعاطف حتى في حديثه عن « اتفاقية السودان » التي اراد خصوم بطرس باشا ان يحملوه وحده وزر هذه الاتفاقية .

وفي أثناء الاحتلال البريطاني فعل الانجليز ما فعلوا للوقيعة بين المسلمين والاقباط .. ونجحوا ولاشك في بعض المواقع وبعض الظروف .. ومع هذا فقد اضطر كرومر ان يعترف في كتابه « مصر الحديثة » بالحقيقة الثابتة ، وهي أن القبطي والمسلم انسان واحد هو في النهاية الانسان المصري .. اني أترجم حرفيا ما قاله كرومر في كتابه « القبطي من قمة رأسه الى أخمص قدمه ، في السلوك واللغة والروح مسلم وان لم يدر كيف ، فالقبطيات تتشبه بالمسلمات ، والاطفال يشبون على وجه واحد ، وعادات الزواج

والمآتم تشبه ما عند المسلمين » .. ويرجع كرومر هذا ، لا الى التآلف بين العنصرين ، بل لان الاقلية تقتبس العادات من الاكثرية، ويستدل على هذا بأن المسلمين فى الهند يقتبسون العادات من الهندوس ..

●●●

ولايمكن أن يمر هذا الموضوع دون ان تمر بنا الدكتورة نعمات فؤاد ، المولهة بالفن المصرى ، والغناء المصرى ، والموسيقى المصرية

وفى الفن المصرى تعانق الاسلام والمسيحية لانهما معا ينبعان من « الفن المصرى القديم » .. وترى هذا التعانق على أوراق البردى وفى زخرفة الخشب .. فالمتحف الاسلامى الكبير فى القاهرة يضم كثيرا مما يجمع بين الزخارف القبطية والكتابة العربية .

★ واستعان العرب بقبط مصر فى بناء المساجد فى مصر وخارج مصر ايضا .. واستعانوا بهم فى بناء مسجد دمشق والمسجد الاقصى وقصر أمير المؤمنين هناك .

★ وأول محراب مجوف فى الاسلام بناه أقباط مصر وفنار الاسكندرية الذى بهر العرب هو الاصل الفنى للمئذنة .

★ حتى فى علوم اللغة والدين .. فنحن نسمع عن تلاوة القرآن الكريم حسب قراءة «ورش» .. وورش هذا هو مصرى قبطى ذاعت شهرته فى علم القراءات ، وتتلمذ عليه مسلمون يرتلون القرآن الكريم ..

●●●

وأخيرا نقتبس كلمات وأبياتا من بعض كتابنا وشعرائنا .

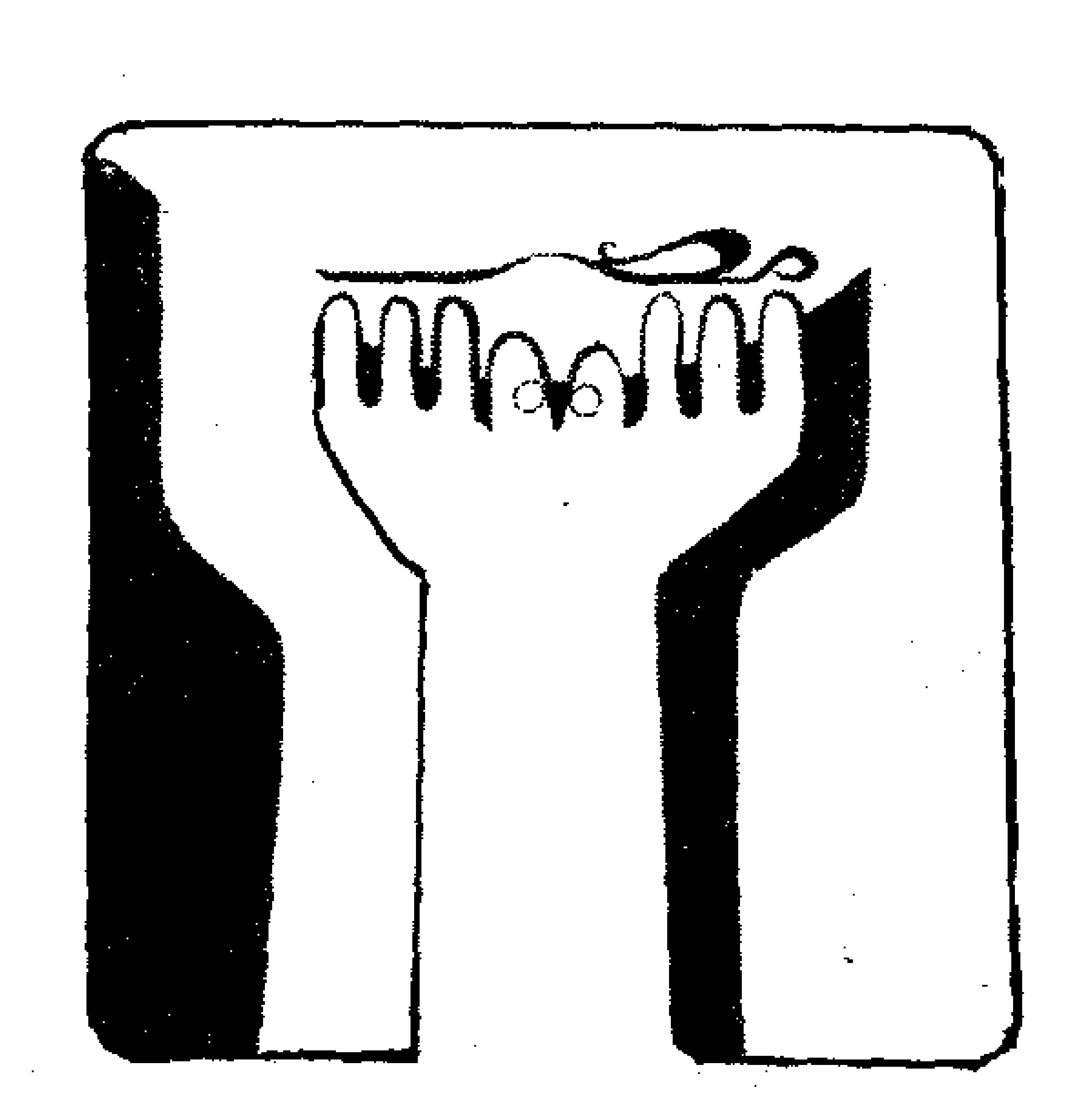
« لقد عرفت مصر حياة التدين ، ولكنها لم تعرف التعصب فى الدين أو الضغن بسببه ، فسلم الدين فيها ، كما يقول العقاد، من لوثة العصبية العمياء وقسوة الهمجية الرعناء ، وسلم تاريخ مصر كله من المذابح الطائفية الا أن يتسلل اليها من طائفة غريبة أو نحلة دخيلة ..

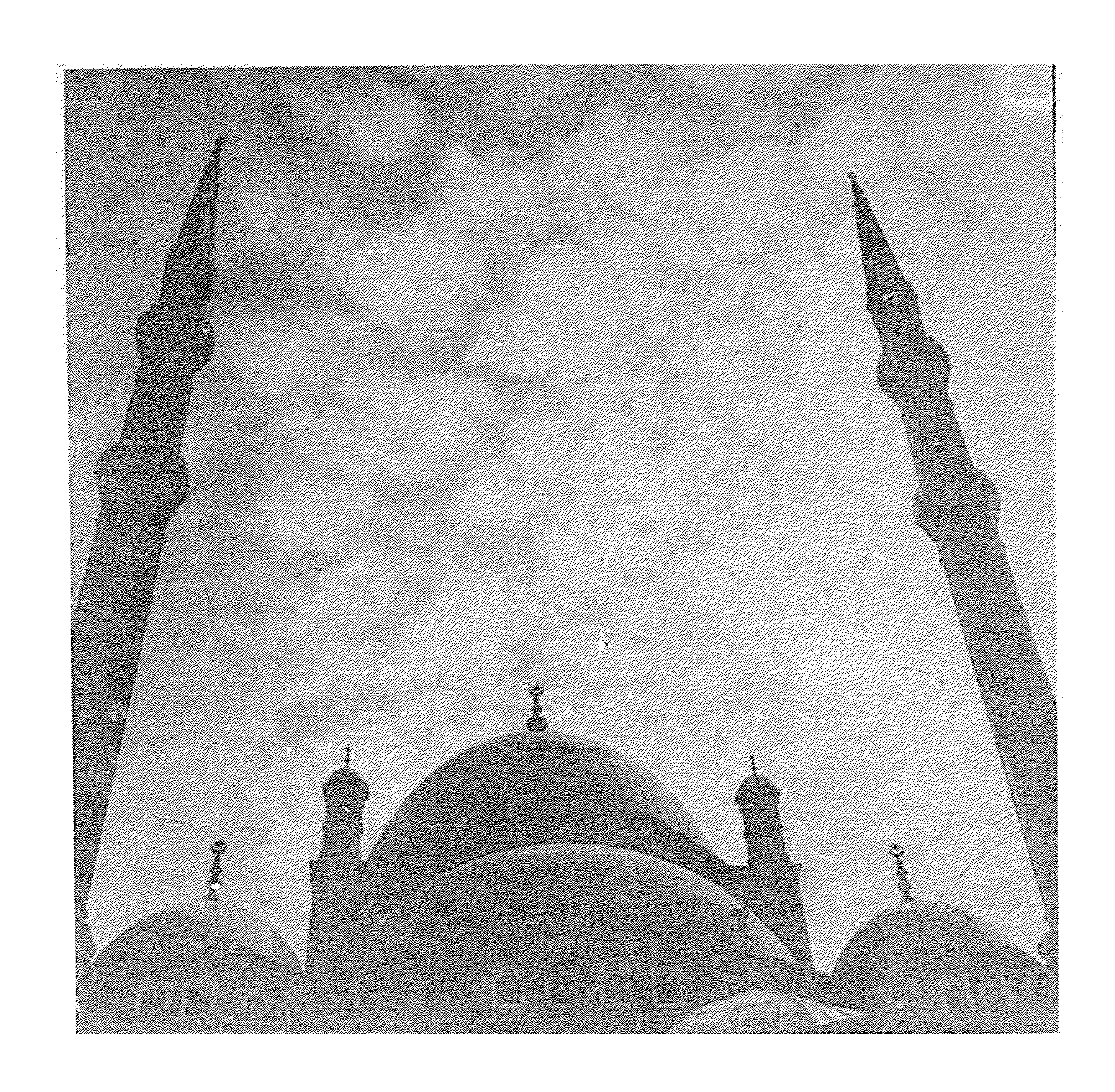
« الكل يؤلف وحدة وطنية على درجة نادرة من التماسك فى الوطن العربى .. فان مصر ، كما يقول الدكتور جمال حمدان هى البلد العربى الوحيد الذى لايعرف القبائل ولا القبلية ولا مشاكلها السياسية والاجتماعية التقليدية . ولهذا فان مصر بتجانسها ووحدتها تتحرك ككتلة واحدة عادة دون أن تعرف الانقسامات والشظايا التى تفكك كثيرا من الشقيقات العربية ، مما يمنح مصر

ثقلا فعالا ووقعا يزيد عن ثقل علة وحدات صغيرة لها نفس مجموع حجمها ٠٠ ولهذا فان الاستقرار السياسى سمة واضحة تتـــابين بسهولة مع أحوال المشرق العربى مثلا ٠٠ وفى النتيجة فأن مصر أقوى قوة فى العرب مرتين ، مرة بمطلق حجمها ، ومرة بتجانسها المطلق » ٠

فان أرادت فئة ، أو أرادت طائفة ، ان تعبث بهـذا التجـانس وهذه الوحدة فلتتنح جانبا ، ولننشد معا أبياتا كتبهـــا الشاعر المصرى ولى الدين يكن :

| | |
|---|---|
| أبني المسيح وأحمد انتبهوا | ودعوا رجالا منكم هجعوا |
| أرواحكم من بعضها قطـع | وجسومكم من بعضها قطع |
| لا تحسبن خـــلافكم ورعا | أن ائتلافـكم هو الـورع |





# مصر الإسلامية

مصر الاسلامية هو الموضوع الذى أحسست بمشـــاعرى وعاطفتى أن من الواجب على أن أقر أو أكتب فيه هـذه الايام وأحسست أيضا أن كل قارىء يريد أن يقرأ الآن فى هـذا الموضوع ، فيستعيد مرة أخرى ما قرأ ويتذكر ما سـبق أن سمع .. أحسست أنه لابد من تذكرة ، فان الذكرى تنفع المؤمنين .

وسوف تنفع يوما من الايام هـــؤلاء الذين أسرفوا على أنفسهم ظلما حين اتخذوا قرارا يتوهمون فيـــه أنه يسلب مصر أعز ما تعتز به : وهى أنهـــا قلب العـــالم الاسلامى وعقله ، وانها معلمه ورائده ، وانها عضده القوى وسـاعده ، ومنها خرج الذين صدوا عن العالم الاسلامى كل غزوة همجية وكل عدوان آثم .

ولا يعلم الا الله الى أين كانت تنكمش وتتقلص حدود العالم الاسلامى لو لم يكن هناك جند مصر وهم خـير أجناد الارض كما قال رسول الله .

ولا يعلم الا الله ماذا كان يفتقد المسلمون اليوم فى شريعتهم وفى دعوتهم ، وفي اتساع آفاق معرفتهم وتفكيرهم ، لو لم تكن مصر .. بأزهرها ، وشيوخه ، وطلابه ، ولو لم تكن مصر بمفكريها وكتابها ومصلحيها ، يحملون دعوة مصر الاسلامية التى طبقت منذ ألف سنة وحتى اليوم ، آفاق العالم !

ولا يعلم الا الله الى أى مدى يخسر المسلمون ، علمـا وقوة ووقارا بغير مصر الاسلامية .. والى أى مدى يكسب المسلمون علما وشرفا وكرامة ما بقيت مصر تتقدمهم وتقودهم ..

ومهما يكن ، ومهما يحدث ، فستظل مصر فى صدر العالم الاسلامى وستظل مصر تتقدم صفوف المسلمين المؤمنين .

● اشـــارة الى قرار « المؤتمر الاسلامى » بتعليق عضوية مصر

من مصـــادفات التاريخ أن البيت العتيق بناه ابراهيم ومعه ابنه اسماعيل ٠٠ ابنه من هاجر المصرية ٠

ثم جدد بناؤه على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، ثم عنى به بعض خلفاء العباسيين بعض العناية ٠

ثم قامت عليه مصر بعد ذلك ٠ فبنته فى عهد الظاهر بيبرس ، وأنفقت عليه مالا جزيلا بل قام السـلطان بيبرس يبنى بيديه مع البنائين ثم تصدع بنيانه أيام الاتراك العثمانيين ، فقـام المصريون على بنائه ، وأرسل والى مصر كل مايلزم لهذا البناء ، وبعث بالبنائين وأدوات البناء ٠

ثم أعيد بناؤه على أيدى المصريين أيام محمد على ٠

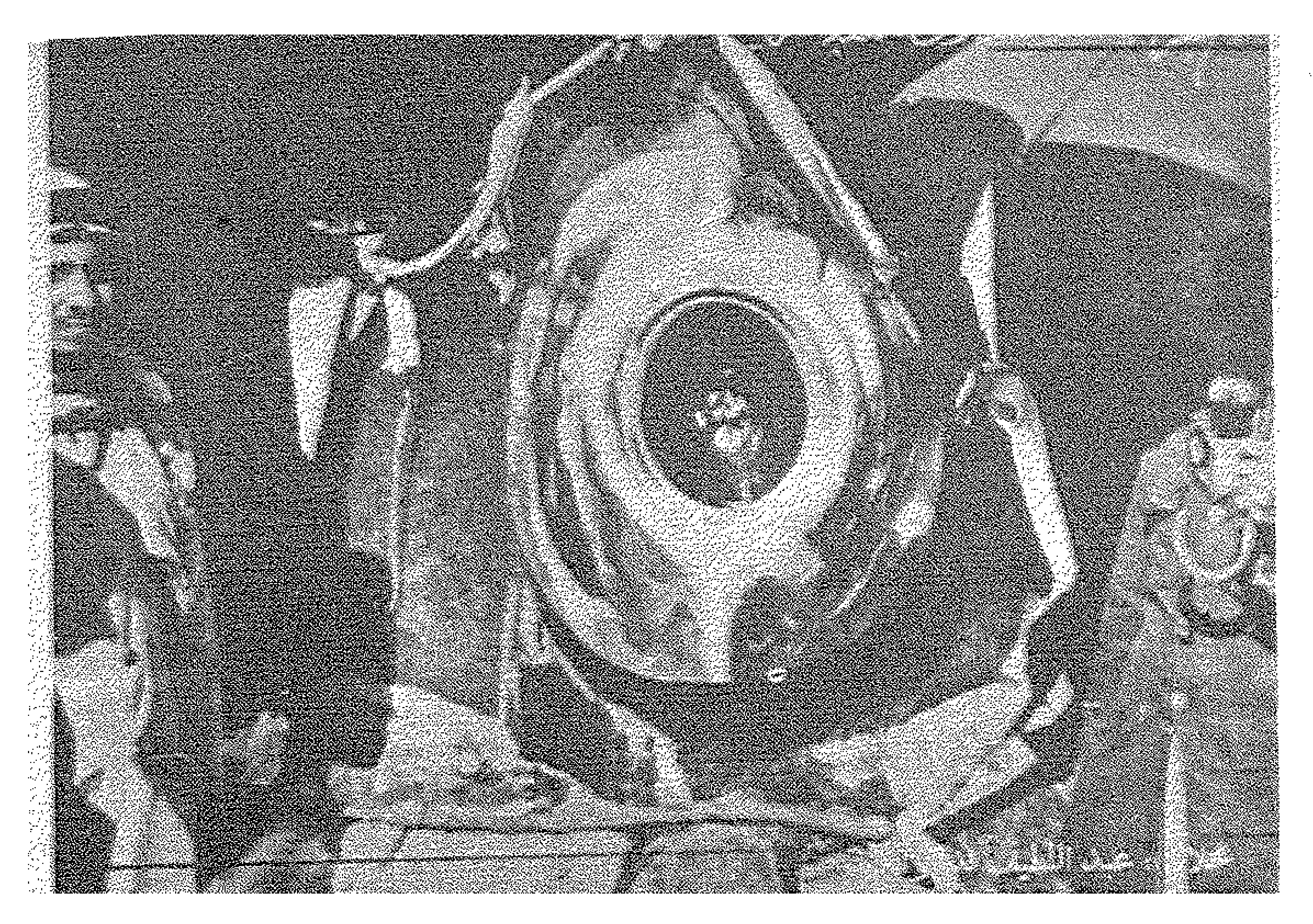
وحتى هذه المرة الاخيرة التى قامت المملكة العربية السعودية فيها ببناء ذلك البيت الاكرم ، قام البناء على تصميم وضعه مصرى ، ورسم فى القاهرة ، ونفذ فى الحجاز على أيدى مهندسين وبنائين مصريين

## ● مصر ٠٠ والشام ٠٠ والحجـاز

**هـذا التاريخ الذى يذكره الدكتور حسـين مؤنس فى كتابه « مصر ورسـالتها » هو رمز ودلالة على دور مصر فى الحفاظ على مقدسات المسلمين ، وهو جـزء من دور مصر الاكبر فى الدفاع عن كيان العالم الاسلامى ، وعن تراث الثقافة والحضارة الاسلامية ٠**

فليس دور مصر هذا دور بناء وعمارة فحسب بل هو دور المسئول عن أقدس مقدسات المسلمين ، منذ عهد بعيد جدا يرجع الى ألف سنة أو يزيد ، حين كانت مصر تدير أمور الحجاز ، ويخطبون لحاكم مصر على منابر الحجاز !

وقد صار الحجاز مع مصر لكى ينجو أهله من بغى حكام بغداد وظلمهم فى عهد العباسيين ٠٠ ففى سنة ١٤١ هجرية ذهب مبعوث الخليفة العباسى الى المدينة وخطب فى أهلها قائلا :



القرامطة سرقوا الحجر الأسود .. ولكن خوفا من
حاكم مصر ردوه .. واستهانوا بأمر الخليفة العباسي

« يا أهل المدينة ! أنا الافعى بن الأفعى ! أنا عثمان بن حيان .. المبيد خضراءكم ، المفنى رجالكم .. والله لأدعنها بلقعا لا ينبح فيها كلب ! »

خطبة بليغة يلقيها مسلم من بغداد ، على المسلمين في مدينة الرسول .. !

واستاء أهل الحجاز وبدأوا يتهامسون سرا في الثورة على حكم الخليفة العباسي في بغداد .. واندس بينهم كثير من « العلويين » الذين فروا الى الحجاز وجعلوه مقرا للفتنة والثورة على خصومهم في بغداد .. وقامت المناوشات بين هؤلاء وهؤلاء ، وأرسل الخليفة عدة حملات لتأديب الثائرين ، وقضوا في خلال القتال على كثير من معالم العمران في الحجاز .

وضعف أمر العباسيين ، فقامت في الحجاز حركة ترمى الى الاستقلال عن الخلافة العباسية .. وانتهزت هذه الفرصة احدى الفرق الشيعية ، وهم القرامطة ، فهاجموا الحجاز من بلاد البحرين وأقاموا هناك دولة شيعية .. وكان خطباء المساجد هذه المرة يخطبون لعبد الله المهدى خليفة الفاطميين في المغرب !

ونمضى مع مؤرخنا الاسلامى الكبير الدكتور حسين مؤنس فنجد أن القرامطة انهزموا بعد أن حكموا الحجاز عشر سنوات ، وعاد الحجاز الى حوزة الخليفة العباسى .. ولكن حكومته كانت ضعيفة

متآكلة تسيطر عليها عناصر الترك والديلم ، وتغرق الدولة الاسلامية في بحــر من الفتن والاطمــاع ، فكان هم الخليفة أن يحافظ على سلطانه في العراق ، وأن يترك الحجاز لحاكم أقوى منه هو حليفه حاكم مصر ٠

وكان الحجاز بلدا بعيدا ثقيل التكاليف ،وكان اصلاح أحواله بعد تلك الفتن والتقلبات يتطلب مالا ، ثم ان رعاية الحجاج تتطلب عناية ونفقة ٠٠ فبدا لخلفاء بنى العباس أن الحل المعقول لمشكلة الحجاز هو أن يضموه الى مصر ، ويعهدوا فى ادارة أموره الى الاخشيد الذى أقام دولة قوية فى مصر ، وأرغم العباسـيين على محالفته والاعتماد عليه فأسندوا اليه ولاية مكة والمدينة ٠٠ وبذلك أصـبحت الدولة المصرية تشمل مصر والشام والحجاز ٠

ومنذ ذلك الحين ارتبطت أمور مصر وأمور الحجاز ، وهو ارتباط دام طوال العصور الوسطى ، عدا فترات متقطعة انفصـل الحجاز خلالها عن مصر ٠٠ وفى خلال هذا التاريخ الطويل الذى امتد حتى قامت « المملكة العربية السعودية » كانت مصر تعتبر نفسها مسئولة عن الحرمين الشريفين وأهلهما ، واتسعت حـدود مصر الشرقيه ، فضمت معظم الاجزاء المأهولة من الجزيرة العربية ، وظل الامر هكذا حتى عندما كانت كل من مصر والحجاز تحت السيادة الاســمية للخليفة التركى ٠ ظلت مصر هى المسئولة عن مهبط الوحى ، وكان الحاكم المصرى مكلفا بأن يعنى بأمر الحجيج ، ويقوم على المســجد الحرام ومسجد الرسول ومزارات المسلمين ٠

## ● سرقوا الحجر الاسود

ولم تقف حـدود مصر السياسية فى جزيرة العرب عند الحجاز ، بل وصلت الى عمان وبلاد البحرين ، وكانت هذه البلاد تحت حكم القرامطة ٠٠ وحدث أن تسلل بعض القرامطة الى الحجـاز بعد أن أخرجوا منه ، وسرقوا الحجر الاسود من الكعبة ، ونقلوه الى البحرين

فعلة شـنعاء فى نظر المسلمين ، وفعـلة تنال من هيبة خليفة المسلمين ، فحاول هذا الخليفة العباسى المتضيد ، أن يقنع القرامطة بإعادة الحجر الاسود ، فرفضوا ٠٠ فعرض عليهم خمسين الف دينار مقابل رد الحجر ، فرفضوا استهانة بالخليفة العباسى فى بغداد ٠

ولكن حاكم مصر ، الخليفة الفاطمى المنصور ، ارسل من القاهرة يطلب من القرامطة اعادة الحجر الاسود ، فسرعان ما فعلوا وردوا الحجر الى مكانه فى الكعبة ٠

يروى الدكتور حسين مؤنس هـذه الوقائع وغيرها عن امتـداد حدود مصر من ناحية الشرق حتى شملت الحجـاز ومناطق الخليج ثم يقول : « أنا لا أتحدث عن هذه الحدود السياسية لذاتها ، فهى بنفسها لا تعنى شيئا ، وانما المهم عندى أنها ترسم لنا خطوطا ـ ولو تقريبية ـ للحدود الحضارية ،وهى لباب التاريخ ولحمة النسب بين الامم » .

ثم يذكر أن مصر أرسلت ، فى ذلك العهد الفاطمى ، رســـولا خرج من عمان وذهب الى الهند ، ويقـــول : « واذا كانت الدعوة الفاطمية هى الصورة التى أخذتها الثقافة المصرية الرسمية فى ذلك الحين ، فمعنى ذلك أن حدودنا الثقافية وصلت الى الخليج الفارسى والى المحيط الهندى ، وان وطننا المصرى كان فى العصور الوسطى فعلا مركز اشعاع ثقافى بعيد المدى شرقا وغربا وجنوبا .

« وقد تجدد ذلك الاشعاع الثقافى المصرى المشرقى فى العصر الحديث عندما وصلت حاميات مصرية الى الخليج الفارسى ، وأعلنت سلطان مصر هناك أيام محمد على .

« وكأننا لا نفعل اليوم جديدا اذ نبعث بأبناء مصر من الاساتذة والمعلمين ليقـــوموا بالتعليم فى دول الجزيرة العربية حتى الخليج العربى .. فهذه رسالة حقيقية لمصر ، قامت بها فى العصور الوسطى وتواصلها فى العصر الحديث » .

● حفظنا التراث ووعاءه

ويمضى استاذ التاريخ الاسلامى فيذكر أن نفوذ مصر السياسى امتد الى آفاق بعيدة عن مصر .. فشمل الشام كله ، وامتد حتى أرمينيا ، وامتد جنوبا الى ما وراء الحجاز فشـــمل اليمن ، وامتد نفـوذها الى بلاد الخليج جميعها التى كانت تتألف جميعا من عمان والبحرين .. وقد وقفت طويلا عنـــد هـــذه النحاحية ، لأن الشائع المعروف هو أن النتيجة الاولى للفتح العربى هى سيادة بلاد العرب على مصر ، والواقع خلاف ذلك .. فقد سيطرت الخلافات الشرقية ما بين راشدية وأموية وعباسية ، على مصر قرنين ونصفا فحسب ، ومنذ قامت الدولة الطولونية سنة ٢٥٤ هجـــرية بدأت مصر تمتد شرقا فى ظلال الاسلام ، ومدت حـــدودها فى معظم تاريخها خلال العصور الوسطى الى الفرات ، بل اقيمت الخطبة باسم خليفة مصر فى بغداد يوما ما !

« وهذه الامتدادات الشرقية المصرية لم تكن سياسية فحسب ، بل كانت ثقافية أيضا ، لان مصر كانت قد تحولت الى قاعدة الثقافة

العربية ، والعلم الاســلامى . فكانت تنشر علمها فى كل ناحية وصلت اليها . وهى قد أزالت الحدود السياسية بينها وبين الشام والحجاز واليمن ، فأصبح رجال العلم من أهل تلك البلاد يفدون الى مصر ليتعلموا أو ليعلموا ، وكلما تقدم الزمن وتزايدت الاخطار على البلاد المشرقية فى العراق والشام وجزيرة العرب ، تحولت مصر الى ملجأ للعـــالم الاسلامى كله ، وفر أصحاب الكتب بكتبهم الى بلادنا .

« فلا غرابة ــ والحالة هذه ــ انك تجد ما يزيد على ثلث المخطوطات العربية فى مصر وحدها ، والباقى موزع على بقية بلاد العالم شرقا وغربا . ومصر لم تحصل على ذخائر الاسلام هذه بناء على سياسة خاصة رسمها حكامها ، ولا تنفيذا لخطة بعيدة المدى ، كهذه الخطط التى ترسمها الدول أو الجامعات اليوم ، وانما جمع المصريون ذلك كله مدفوعين باحساس عميق خامر نفوسهم ،وهو أنهم قوام على هذه الثقافة الاسلامية كلها ، وان الحفاظ على تلك الكنوز انما هو جزء من رسالة بلدهم الخالدة .

« ولعل أوضح دليـــل على ذلك ان كل المخطوطات العربية التى توجد اليوم فى مكتبات أوروبا وأمريكا قد اشتريت خارج مصر ، وان تجار المخطوطات وبعثات أرســلها أهل الغــرب ليعثروا على المخطوطات ، لم يشتروا من مصر الا قليــلا جــدا وأمامك فهارس المخطوطات فى مكتبات أوروبا وأمريكا ، تستطيع أن تتبين منها أن المصريين لم يبيعوا شيئا من تراث المسلمين بمال ، وليس المصريون أغنى من غيرهم ممن باعوا المخطوطات العربية بالالوف ، ولكن المصرى يشعر فى قرارة نفسه أنه أمين على هذا التراث الاسلامى ، وهو قد يعوزه المال ، وتقسو عليه الايام ، فيبيع أثاث بيته ، ولكنه لا يبيع مخطوطا ! »

● **الصحابة .. المصريون**

هل يريد القارىء العربى مزيدا من دور مصر فى اقامه صرح الفكر الاسلامى ، وفى الحفاظ على تراث الاسلام العظيم ؟

هاك بعض ما يذكره الدكتور حسين مؤنس :

ان مائة وأربعين من صـحابة رســـول الله صلى الله عليه وسلم ، جاءوا الى مصر ، وكان المحدثون يلقبونهم بالمصريين ..

وعن هؤلاء الصحابة ، وعمن سمع منهم ، أخـــذ رواة الحديث النبوى الشريف ، فجـــاء الى مصر البخارى ، ومسلم ، وغيرهما ، لاستيفاء الاحاديث النبوية وتحقيقها واثباتها .

وعلى ورق البردى المصرى سجلت أول ماسجلت ، بعض الاحاديث النبوية الشريفة ٠٠ وما زالت اوراق البردى هذه بما حملت من كلمات كريمة فى بعض المتاحف الاوربية ٠

والذين كتبوا عن الفقه الاسلامى ، وعن الفلسفة الاسلامية ، وعن التصوف الاسلامى، كتبوا كثيرا عما وضع الامام الشافعى، وما ألف السيوطى ، وما فاض به ابن الفارض من اضافات واتجاهات خاصة نبتت من الطبيعة المصرية ، وما تميزت به من سماحة واتساع ، ومن العقلية المصرية التى تجمعت فيها وترسبت حضارات سابقة : مصرية واغريقية ورومانية ودينية الهية ٠

## ● أول أسطول اسلامى

ومع هذا كله فانه يبدو ان من حقنا فى هذه الايام الا نكتفى بالكلام عن دور مصر فى أقامة صرح الفكر الاسلامى ، وفى الحرص على تراث الاسلام ٠٠ بل يجب أن نتحدث ايضا ، عن دور مصر المادى ٠٠ العسكرى ٠٠ فى أقامة كيان الدولة الاسلامية ، والتصدى للغزوات الهمجية على العالم الاسلامى ٠٠

فلنقل كلمة فى هذا ٠٠ ولنقلها ٠٠ وفى تواضع ، لان التاريخ يعنينا ويكفينا ٠٠ يذكر لنا الدكتور حسين مؤنس :

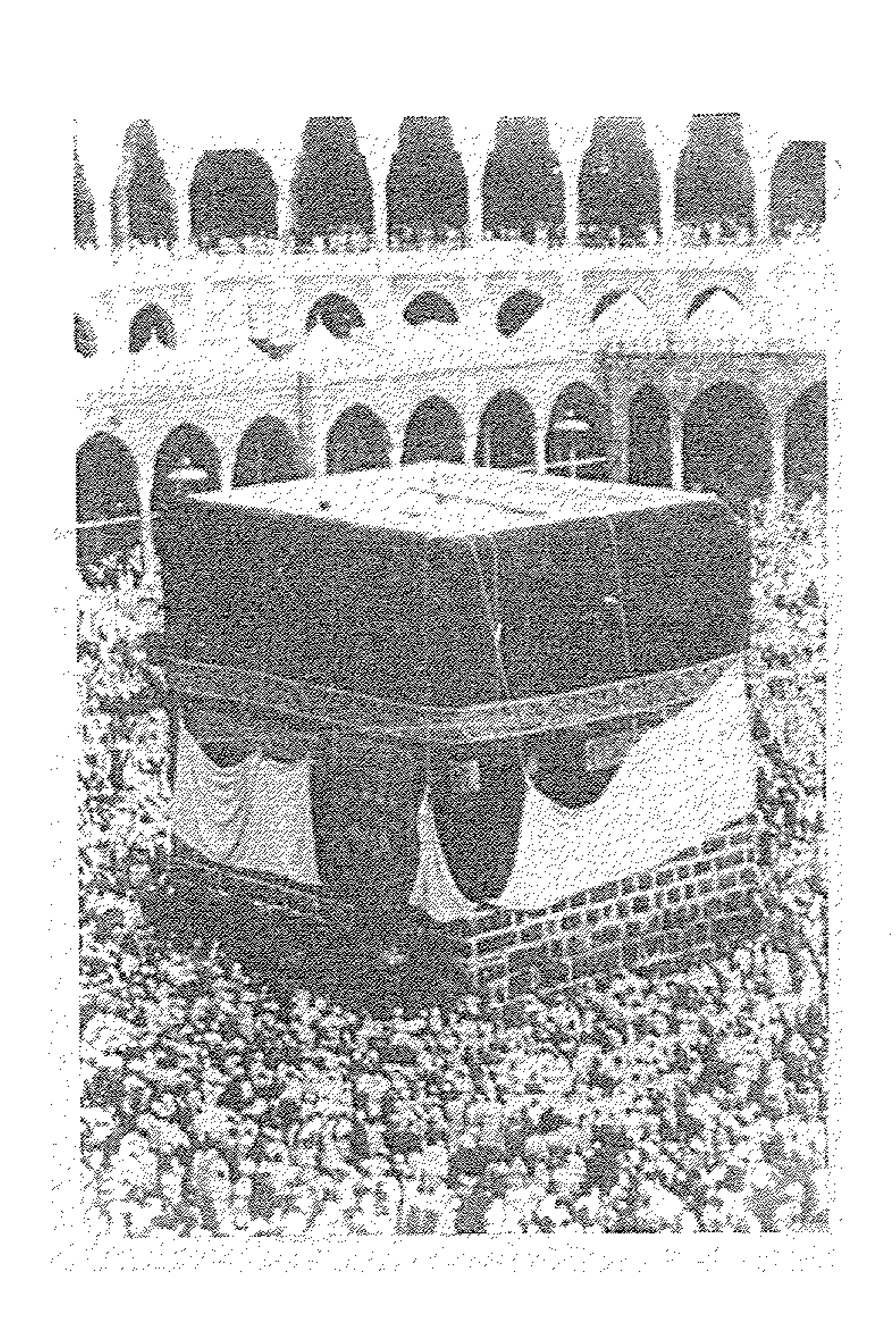
ان مصر بنت أول أسطول بحرى للاسلام والمسلمين ٠٠ وبنت هذا الاسطول فى العقود الاولى من التاريخ الهجرى ٠

كانت مصر تصنع السفن الحربية لاسطول الدولة الاموية ٠٠ وكان الجزء الاكبر من هذه السفن يصنع فى « دور الصناعة » أو ترسانات عند جزيرة الروضة ٠٠ ثم تسير فى النيل الى البحر ٠٠وبهذه السفن المصرية ، وبملاحيها من المصريين ، كسب المسلمون موقعة « ذات الصوارى » سنة ٣٤ هجرية وهى موقعة حاسمة انتزعت السيادة على الجزء الشرقى من البحر الابيض من البيزنطيين واسلمتها للمسلمين ، عدة قرون ٠

والملاحون المصريون هم الذين انشأوا ميناء تونس ٠٠ فعندما تهدم ميناء قرطاجنة خلال الحرب الطويلة واستقر الامر للمسلمين فى شمال افريقية ، أرسل حاكم تونس الى عبد الملك بن مروان ان يساعده على انشاء ميناء جديد للمسلمين ٠٠ فاتجه الخليفة الى مصر ٠٠ فارسلت الف بحار مصرى بعائلاتهم ، فانشأوا ميناء تونس، وبهذا سيطر المسلمون على الجزء الاوسط من البحر الابيض ايضا ٠

● انقذتهم مصر من التتار

وتمضى القرون ·· وتضعف الدول الاسلامية وتتفكك ·· ويبدو انها تسير نحو آلفناء ، لقد نزل بها القحط ، وانتشر الوباء واشتد بؤس الناس خلال النصف الاول من القرن السادس الهجرى ·· ! وفجأة تدب الصحة فى أوصال مصر ، وتأخذ المصريين حماسة دينية قومية لا حدود لها وذلك عندما اغار التتار على ديار المسلمين، واحتلوا بغداد وانطلقوا كالاعصار الى الشام وعاثوا فى تلك البلاد قتلا وتخريبا « وجرت الدماء فى الازقة » من مدن الشام كما يقول المؤرخون وعندئذ هبت مصر ، وارسلت جيشها يقاتل التتار ،وانزلت بهم الهزيمة ، فى معركة عين جالوت سنة ٦٥٨ هجرية ، واستولت على أسلحتهم وذخائرهم ، وحفظت العالم الاسلامى من جحافل التخريب والدمار ·



# مصـــر ..
# أهي من الشرق .. أم من الغرب ؟!

لم أتردد في اختيار موضوع من موضوعات هذه السلسلة مثلما ترددت في اختيار هذا الموضوع الذى أثاره الدكتـور طه حسين ، رحمه الله ، في كتـــابه « مستقبل الثقافة فى مصر » ..

أثار طه حسين هذا الموضوع أو هـذه القضية عن موقـع مصر الثقافي من الشرق والغرب ، ومضى بالجرأة التى تميز بها فى صدر حياته الفكرية ولازمته بعد هذا طويلا ،الى تقرير حازم بأن مصر تنتمي الى الغرب قديما وحديثا ، وبأن مصر يجب ان تنتمى الى الغرب فى المستقبل ، حضاريا وثقافيا .

أما علاقة مصر بالشرق فان طه حسين يرى أنها قد تكون موقعا جغرافيا ، وقد تكون مرحلة عابرة فى تاريخها ، وهى لا تزيد عن أن تكون صلة عاطفية لها جانب دينى .. فهى ليست أكثر من هذا ، وينبغى ألا تكون أكثر من هذا !

رأى جرىء جدا .. يقدمه صاحبه في ستين صفحة من كتاب « مستقبل الثقافة » يدافع فيه بكل حجة ودليل ، من التاريخ أن وجد فى التاريخ شيئا يسنده ، ومن الواقع ان وجد فى ظاهره أو حقيقته ما يؤيد وجهة نظره .. ويمضى فى الدفاع عن رأيه غير عابىء بما يصدم من آراء مستقرة فى الأذهان ،وبما يمس من مشاعر لها مكانها العميق في القلوب ..

وأستأذن فى أن أقول أننى شخصيا لا أتفق مع رأى الدكتور طه حسين الجازم بأن مصر قطعة من الغرب الثقافى ، وبأنه لا يليق بها أن تكون جزءا من الشرق الثقافى .. فاننى أقول بكل تواضع ، أننى أرى وأعتقد أن مصر يجب أن تكون جزءا من الغرب ومن الشرق معا ، ثقافيا وحضاريا واجتماعيا .. لانه ليس هناك شىء أسمه « غرب ثقافى » لا علاقة له بالشرق ، ولا « شرق ثقافى » لا علاقة له بالغرب ، ولكن هناك ثقافة وحضارة انسانية امتزج فيهما الشرق والغرب ، وأتصل الشمال والجنوب ، وتكون من هذا كله شىء واحد .. فيه الجوانب الطيبة التى ينبغى أن ننشدها ونسعى اليها ، وفيه الجوانب السيئة المرذولة التى يجب أن ننفر منها ونتفاداها ..

ومع هذا فلأقدم رأى الدكتور طه حسين .. فللرجل فى حياتنا وفى تفكيرنا تأثير بعيد .. وأيضا ليعرف جيل من أبنائنا وبناتنا كيف كانت مثل هذه الاراء الجريئة تطرح للمناقشة .. فتدور حولها الآراء موافقة وتأييدا ، أو معارضة وانكارا ، فيخلق هذا بيئة فكرية حافلة بكثير من التيارات والاتجاهات ، تتعارض وتتصادم حتى يتبين الرأى العام طريقه وأهدافه .

أستهل طه حسين كتابه « مستقبل الثقافة » بالحديث عن مصر التى أعيدت اليها الكرامة بتحقيق الاستقلال ، وردت اليها الحرية باحياء الدستور ، وتلقاها العالم فى « عصبة الامم » كما يتلقى الامم الحرة الكريمة ، فقد وضع الكتاب فى سنتى ١٩٣٧ و ١٩٣٨ عقب توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا مما غمر مصر حينذاك بموجة من الفرح والابتهاج ، ومن التطلع الى مستقبل مشرق بما فيه مستقبل الثقافة ..

سادت الشعب المصرى فى تلك السنوات حالة من الفرح والابتهاج ومن التفاؤل والامل شبيهة بتلك الحالة التى سادت الشعب المصرى

فى السنوات الاخيرة حين استقبل « مبادرة السلام » واستقبل معها الامل فى الرخاء ، ولكن المسئولين والمفكرين فيهم قالوا وكرروا ما قالوه انه لا سلام ولا رخاء بلاعمل ونشاط ، وبلا تفكير وتدبير لان الامم لا تنهض ولا تتقدم لان معاهدة قد وقعت ، أو لان مبادرة قد تمت .. ولهذا أرى أن أنقل ما كتبه طه حسين عن وصف الحالة النفسية التى سادتنا فى تلك الايام لانه ينطبق على الحالة النفسية التى سادتنا أخيرا .

« من الخير أن نغتبط بهذا ونبتهج له ، ولكن على الا نكتفى بالاغتباط والابتهاج ، وعلى ألا نشغل بالفرح عن النشاط ، والا يصرفنا الامل عن العمل ، وألا نقف أمام الاستقلال والحرية موقف المعجبين بهما المطمئنين اليهما ، انما نأخذهما كما تأخذهما الامم الراقية على انهما وسيلة الى الكمال ، وسبب من أسباب الرقى ، لا يكفان عن العمل وانما يدفعان اليه ،ولا يحدان الامل وانما يمدانه، ويزيدانه قوة وسعة وانبساطا .

« وما أعرف أنى أشفقت من شيء كما أشفق من الاستقلال بعد أن كسبناه ، ومن الحرية بعد أن ظفرنا بها ! .. أشفق منهما لانى أخشى أن يغرانا عن أنفسنا ، ويخيلا الينا اننا قد وصلنا الى اخر الطريق حين وصلنا اليهما ، مع أننا لم نزد على أن أبتدأنا بهما الطريق .

« وأشفق منهما لانهما يحملاننا تبعات جساما حقا ، أمام أنفسنا أولا ، وأمام العالم المتحضر ثانيا .

« أنا اخاف أشد الخوف ألا تقدر هذه التبعات ، أولا نقدرها حق قدرها . أخاف أن نقصر فى ذات أنفسنا ، فنهمل مرافقنا ، أو نأخذها فى غير حزم ولا جد ، فنتأخر ونحن خليقون أن نتقدم ، وننحط ونحن خليقون أن نرقى ، ويعود الاستقلال والحرية علينا بالشر ، وهما خليقان ألا يعودا علينا الا بالخير كل الخير .

« وأخاف أن نقصر فى ذات أنفسنا .. بينما هناك من الاوربيين عامة ، ومن أصدقائنا الانجليز خاصة ، رقباء يحصون علينا الكبيرة والصغيرة ، ويحاسبوننا على اليسير والعظيم : ولعلهم أن يكبروا من أغلاطنا ما نراه صغيرا ، وأن يعظموا من تقصيرنا ما نراه هينا ، وأن يقولوا : طالبوا بالاستقلال واتعبوا أنفسهم واتعبوا الناس فى المطالبة به ، حتى اذا انتهوا اليه لم يذوقوه ولم يسيغوه ولم يعرفوا كيف ينتفعون به

أخشى هذا كله ، وأريد كما يريد كل مصرى مثقف ، يحب وطنه ويحرص على كرامته، وحسن رأى الناس فيه أن تكون حياتنا الحديثة ملائمة لمجدنا القديم ، وان يكون نشاطنا الحديث محققا لرأينا في أنفسنا حين كنا نطلب الاستقلال ، ومحققا لرأى الامم المتحضرة حين رضيت لنا عن هذا الاستقلال ، وحين أظهـرت لنا ما أظهرت من الترحيب وحسن اللقاء في جنيف ( مقر عصبة الامم ) .

فليحرص كل مصرى ٠٠ على أن نأخذ أمورنا بالحزم والجد منذ اليوم ، وان نعرض عن الالفاظ التي لا تغنى ، الى الاعمال التى تغنى، وان نبدا فى قامة حياتنا الجديدة من العمل الصادق النافع على أساس متين

● ● ●

ويأخذ طه حسين أمر الثقافة بالحزم والجد ٠٠ وبأن تقوم على أساس متين ٠٠ فيطرح القضية متسائلا : أمصر من الشرق أم من الغرب ؟

« ولكن المسألة الخطيرة حقا ،والتي لابد أن نجليها لانفسنا تجلية تزيل عنهـا كل شك ، وتعصمها من كل لبس ، وتبرئها من كل ريب ، هي ان نعرف : مصر من الشرق أم من الغرب ؟ ٠ وانا لا أريد بالطبع الشرق الجغرافى والغرب الجغرافى ، وانما اريد الشرق الثقافى والغرب الثقافى ٠٠ وقد نستطيع أن نضع هذه المسألة وضعا واضحا قريبا يدنيها الى الاذهان ،وييسرها على الالباب : فهل العقل المصرى شرقى التصور والادراك والفهم والحكم على الاشياء ؟ ٠٠ هل هو غربى التصور والادراك والفهم والحكم على الاشياء ؟ ٠٠ وبعبارة موجزة جلية : ايهما أيسر على العقل المصرى : أن يفهم الرجل الصينى أو اليابانى ، أو أن يفهم الرجل الفرنسى أو الانجليزى ؟

« هذه هي المسألة التي لابد من توضيحها وتجليتها قبل أن نفكر في الاسس التى ينبغى أن نقيم عليهـــا ما ينبغى لنا من الثقـافة والتعليم ٠

« ويخيل الى أن أيسر الوسائل الى توضيح هذه المسألة وتجليتها انما هو الرجوع الى تاريخ العقل المصرى منذ أقدم عصوره ،ثم مسايرة هذا العقل فى تاريخه الطويل الشاق الملتوى الى الآن » ٠

ولنتجاوز عن حكاية « الصين واليابان » التى ذهب اليها الدكتور طه حسين ٠٠ فعندما نتحدث عن الشرق ثقافيا وحضاريا لانذهب الى اقصى آسيا ، وانما نتحدث عن الشرق الذى ارتبطنا به تاريخا، ودينا ، ولغة ، وثقافة ، أربعة عشر قـرنا أو تزيد ٠٠ وطه حسين

لاينكر هذا ولكن يضيف اليه شيئا آخر فيقول « ان العقل المصرى قد اتصل من جهة ، بأقطار الشرق القريب أتصالا منظما مؤثرا فى حياته ومتأثرا بها ، واتصل من جهة اخرى ، بالعقل اليونانى منذ عصوره الاولى اتصال تعاون ،وتوافق ،وتبادل مستمر منظم للمنافع، فى الفن والسياسة والاقتصاد » .. ثم لايلبث ان يضيق دائرة الاتصال من جهة هذا الشرق القريب فلا يذهب به بعيدا الى الجزيرة العربية وانما يحصره فى منطقة البحر الابيض فيقول : « أن العقل المصرى منذ عصوره الاولى عقل ان تأثر بشىء فانما يتأثر بالبحر الابيض المتوسط ، وان تبادل المنافع على اختلافها فانما يتبادلها مع شعوب البحر الابيض المتوسط ..

أما ما وراء الشاطىء الشرقى للبحر الابيض ، أى ماوراء شواطىء الشام ، فان مابينه وبين مصر من صلات ، حتى لو كانت صلات دينية أو لغوية ،فانها لاتصلح أساسا للحياة وللتقدم . فيقول فى عبارات واضحة كل الوضوح :

« ومن المحقق أن تطور الحياة الانسانية قد قضى منذ عهد بعيد بان وحدة الدين ،ووحدة اللغة ،لاتصلحان اساسا للوحدة السياسية ولا قواما لتكوين الدول .

« فالمسلمون أنفسهم منذ عهد بعيد قد عدلوا عن اتخاذ الوحدة الدينية واللغوية أساسا للملك وقواما للدولة . وليس المهم ان يكون هذا حسنا أو قبيحا ، وانما المهم ان يكون حقيقة واقعة . وما اظن احدا يجادل فى أن المسلمين قد أقاموا سياستهم على المنافع العملية وعدلوا عن اقامتها على الوحدة الدينية واللغوية والجنسية ايضا ،قبل ان ينقضى القرن الثانى للهجرة حين كانت الدولة الاموية فى الاندلس تخاصم الدولة العباسية فى العراق .

« وقد مضى المسلمون بعد ذلك فى اقامة سياستهم على المنافع ، وعلى المنافع وحدها، الى أبعد حد ممكن ، فلم يأت القرن الرابع للهجرة حتى قام العالم الاسلامى مقام الدولة الاسلامية ، وحتى ظهرت القوميات وانتشرت فى البلاد الاسلامية كلها دول كثيرة ، يقوم بعضها على المنافع الاقتصادية ، والوحدات الجغرافية ، ويقوم بعضها على الوان أخرى من المنافع ، تختلف قوة وضعفا بأختلاف الاقاليم والشعوب ، وحظ هذه الاقاليم والشعوب من قوة الشخصية والقدرة على الثبات والمقاومة .

« فالمسلمون اذن قد فطنوا منذ عهد بعيد الى اصل من اصول الحياة الحديثة ، وهو : ان السياسة شىء والدين شىء اخر ، وان

نظام الحكم وتكوين الدول انما يقومان على المنافع العملية قبل ان يقوما على أى شىء آخر »

« وهذا التصور هو الذى تقوم عليه الحياة الحديثة فى أوربا ، فقد تخففت أوربا من أعباء القرون الوسطى ، وأقامت سياستها على المنافع الزمنية ، لا على الوحدة المسيحية ، وعلى تقارب اللغات والاجناس » ..

ومن الخطأ أن نظن ان طه حسين قد مس الاسلام بكلمة واحدة ، فمهما قيل ومازال يقال حتى الان عن مؤلف « على هامش السيرة » و « الوعد الحق » فانه كان عامر القلب ايمانا واسلاما .. ولكنه يقول ان مصر أسلمت دينا ، وتعربت لغة ، ولكنها ظلت مصر التى تنتمى الى البحر الابيض أولا وقبل كل شىء .

فيقول : « وجاء الاسلام وانتشر فى اقطار الارض ، وتلقته مصر لقاء حسنا ، واسرعت اليه اسراعا شديدا فاتخذته لها دينا ،واتخذت لغته العربية لها لغة . فهل اخرجها ذلك عن عقليتها الاولى ، وهل جعلها ذلك امة شرقية بالمعنى الذى يفهم من هذه الكلمة الان ؟

« كلا ! .. لان المسيحية التى ظهرت فى الشرق قد غمرت أوربا، واستأثرت بها دون غيرها من الديانات ومع هذا فلم تصبح أوربا شرقية ، ولم تتغير طبيعة العقل الاوربى ..

« فلست ادرى ما الذى يفرق بين المسيحية والاسلام وكلاهما قد ظهر فى الشرق الجغرافى ، وكلاهما قد نبع من منبع كريم واحد ، وهبط به الوحى من لدن اله واحد يؤمن به الشرقيون والغربيون على السواء ؟ ..

وينتهى طه حسين من دفاعه الطويل الى أن الطريق الى التقدم والقوة والكرامة هو أن نتجه الى أوربا وحضارتها .. وهذه هى كلماته :

« ولكن السبيل الى ذلك ليست فى الكلام يرسل أرسالا ، ولا فى المظاهر الكاذبة والاوضاع الملفقة ، وانما هى واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء . وهى واحدة فذة ليس لها تعدد . وهى : ان نسير سيرة الاوربيين ، ونسلك طريقهم ، لنكون لهم اندادا ، ولنكون لهم شركاء فى الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب » .

ويدرك طه حسين أن هذه الدعوة الجريئة المتحمسة الى اقامة أقوى الصلات الفكرية والمادية بالحضارة الاوربية تثير ولا شك كثيرا من المخاوف وتقابل بكثير من الانكار . وهو يقسم خصوم هذه الدعوة الى فريقين :

« فريق ينذر » بالويل والثبور وعظائم الامور .. كما يقال .. ليوقظ فتنة نائمة قد طال عليه نومها وهو لا يرضى ولا يطمئن الا اذا أوضع في الفتنة ( أى باض فيها ) وعاش مستضيئا بما تثير من اللظى واللهيب » .. وهؤلاء لايريد طه حسين أن يوجه اليهم كلاما ، لان السبيل الى أقناعهم منقطعة ، وأبواب الامل فى أصلاح ذات نفوسهم مغلقة ، فالخير أن يتركوا لهذه النار التى تضطرم فى قلوبهم حتى تأتى على هذه القلوب » .

وفريق آخر من الناس « يشفقون ويخافون عن اخلاص وصدق وحسن مقصد وسلامة ضمير .. فانا حريص على أن أزيل ما يثور في نفوسهم من شك ، وارد الى قلوبهم الكريمة الطيبة ما هى فى حاجة اليه من الامن والاطمئنان .. فهو يتوجه الى هذا الفريق قائلا :

« من هؤلاء الصادقين المخلصين قوم يشفقون على حياتنا الدينية من الاتصال بأوربا على هذا النحو القوى الصريح الذى ادعو اليه وهم يرون ويسمعون أن فى الحياة الاوربية كثيرا من الاثام ، وفنونا من الموبقات ، واستباحة لاشياء لا يبيحها ديننا الحنيف ، فيقولون فى انفسهم ان الدعوة الى الاتصال بالحياة الاوربية على هذا النحو خليقة ان تغرى بما فى الحياة الاوربية من أثم ، وتورط فيما فيها من موبقة ، وتحرض على ما فيها من مخالفة للدين .

« وقد يحسن أن نلفت هؤلاء الصادقين الاخيار الى أن الحياة الاوربية ليست اثما كلها ، والى أن فيها خيرا كثيرا ، والى أن الاثم الخالص لايمكن من الرقى ، وقد ارتقى الاوربيون ما فى ذلك شك ، والى أن حياتنا الحاضرة وحياتنا الماضية ليست خيرا كلها بل فيها شر كثير ، والخير الخالص لا يدفع الى الانحطاط وقد انحطت حياتنا ما فى ذلك شك ، فحياة الافراد والجماعات فى كل مكان وفى كل زمان مزاج من الخير والشر مهما تختلف أجيال الناس ومهما يتباين ما يحيط بهم من الظروف » .

اما الناحية الدينية فيتعرض لها طه حسين على الوجه الآتى :

ليس من شك فى أن الحضارة الاوربية الحديثة قد وقفت من المسيحية الاوربية موقف خصومة عنيفة متصلة ، وليس من شك

فى أن أوربا قد ضحت فى سبيل هذه الخصومة الشىء الكثير من الانفس والاموال ٠٠ولعل مصدر هذه الخصومة العنيفة بين الدين والعقل فى أوربا ، أو بين رجال الدين ورجال العقل ، أن رجال الدين المسيحى لهم نظمهم وقوانينهم وسلطانهم القوى الذى كونته لهم العصور المتصلة والظروف المختلفة ، فلم يكن لهم بد من أن يذودوا عن هذا السلطان ويحافظوا على ما كان لهم من قوة وبأس ٠

فأما نحن المسلمين فقد عصمنا الله من هذا المحظور ووقانا شروره التى شقيت بها أوربا ، فالاسلام لا يعـــرف الأكليروس ، ولا يميز طبقة رجال الدين من سائر الطبقات ، والاسلام قد أرتفع عن أن يجعل واسطة بين العبد وربه ، وهذه السيئات التى جنتها أوروبا من دفاع رجال الدين عن سلطاتهم لن تجنيها نحن الا اذا أدخلنا على الاسلام ما ليس فيه ، وحملناه ٠٠ مالا يحتمل ٠٠

هناك أيضا من يتخوفون ، عن صدق واخلاص ، من أن يؤدى الاتصال القوى ، الصريح ، بالحضارة الاوربية الى التـــأثير على شخصيتنا القومية وطمس ماورثناه عن ماضينا وعن تراثنا ٠٠

وكانت هناك ظاهرة واضحة منذ أربعين سنة ، وكان هنـــاك عائلات ، وافراد ، تفتنهم الحياة الاوربية التى تحيط بهم فى القاهرة والاسكندرية ، وفيما يتعلمونه فى المدارس الاجنبيـــة فى مصر والجامعات الاوربية فى باريس أو لندن ٠٠ فكانوا يتهالكون على هذه الحياة الاوربية كما تتهالك الفراشات على النار ، فلا تلبث أن تحترق ٠٠ فاذا بهم لاهم أوربيون ، ولاهم مصريون !

ولهذا يقول طه حسين : « أنا لا أدعو الى أن ننكر أنفسنا ، ولا أن نجحد ماضينا ، ولا الى أن نفنى فى الاوربيين ٠٠ وانما أدعو الى أن نثبت لاوربا ونحفظ أستقلالنا من عدوانها وطغيانها ونمنعها من أن تأكلنا ٠٠

لقد كنا معرضين لخطر الفناء فى أوربا حين كنا ضعافا مسرفين فى الضعف ، وحين كنا نجهل تاريخنا القريب والبعيد ، وحين لم نكن نشعر بان لنا وجودا ممتازا ، وحين كان فريق منا يؤمنون فى أعماق نفوسهم بأن للاوربى فضلا على المصرى لانه من جوهر ممتاز ، وبان للقبعة فضلا على العمامة والطربوش انها تغطى رأسا ممتازا !٠٠ فاما الآن وقد عرفنا تاريخنا ، واحسسنا انفسنا ، واستشـــعرنا العزة والكرامة واستيقنا أن ليس بيننا وبين الاوربيين فـــرق فى الجوهر ولا فى الطبع ولا فى المزاج فانى لا اخاف على المصريين أن يفنوا فى الاوربيين » ٠

رد وتعقيب

بقلم الدكتور محمّد حسن الزيات

# إنتماء مصر في رأى طه حسين

قبل أن يكون انصافا لطه حسين ، فانه انصاف لانفسنا ان نعرف ماذا كان يعنى الاستاذ العميد حين تحدث عن انتماء مصر للغرب الثقافي .. وابتعادها عن الشرق الثقافي ..

ومن هو أجدر وأقدر بأن يبين حقيقة ما كان يعنيه الدكتور طه حسين ، من تلميذه الوفى ، بل أكثر تلاميذه قربا منه وفهما له .. وهو الدكتور محمد حسن الزيات الاستاذ الجامعى ، وزير الخارجية الاسبق ؟

وقد تفضل مشكورا فكتب هذا المقال الذى نشرته صحيفة « أخبار اليوم » فى ٢١ يوليو ١٩٧٩ توضيحا لفكرة طه حسين حين تحدث عن الشرق والغرب .. وأرى أن المقال السابق « مصر أهي من الشرق أو من الغرب » لا يكتمل الا بهذا المقال الذى بين وأكد وجهة النظر الاخرى فى انتماء مصر الثقافي .



دكتور محمد حسن الزيات

تناول الاستاذ الصديق عبدالحميدالكاتب الاشارة الى رأى لعميد الدكتور طه حسين فى انتماء مصر لثقافة حوض البحر الابيض المتوسط وعدم انتمائها للثقافة الشرقية ..

فقد كرس احدى مقالاته فى السلسلة الشائقة التى يكتبها عن مصر والمصريين لبحث هذ الرأى كما قرأه فى كتاب ( مستقبل الثقافة فى مصر ) ، الذى أصدره الدكتور طه حسين عام ١٩٣٧ . وجاء الحديث فى هذا الموضوع في وقت تمر فيه مصر ويمر فيه بقية العالم العربى فى محنة سياسية دفعت ببعض المصريين ودفعت ببعض غير المصريين من العرب الى التساؤل عن انتماء مصر للامة العربية ، وتقاذف الاخوة فى هذا المجال بالتهم فى أيام نتنة لعن الله من أثارها ..

وحديث الاستاذ عبد الحميد الكاتب حديث دراسة ، ولهذا فانه يستحق ، بل يستوجب ، هذا البيان الذى أبعث به الى أخبار اليوم، أما الاحاديث التى تتردد فى بعض البلاد العربية عن آراء مدعاة لطه حسين فهى لغو وزبد لا تنفع الناس ولا تبقى فى الارض ولاتستحق أن ننشغل بها أو أن نشغل بها أحدا من القراء .

يسأل طه حسين فى كتابه ( مستقبل الثقافة فى مصر ) عن مصر ( أهى من الشرق أم من الغرب ) ويترجم بعض المتسرعين ـ كما تترجم طائفة من المغرضين ـ هذا التساؤل بأنه تساؤل عن انتماء مصر الى العرب ( بأعتبارهم هم الشرق ) أو الى أوربا ( باعتبارها هى الغرب ) .

وهذه الترجمة خاطئة ، وكل ما يبنى عليها خطأ ، ولا يحتاج القارىء الا الى أن يقرأ قراءة متأنية كتاب مستقبل الثقافة فى مصر كله ، ليعرف ما هو الشرق الذى يشير اليه طه حسين فى هذا التساؤل وما هو الغرب الذى يشير اليه أيضا .

أما الشرق الثقافى الذى يشير اليه فهو بوضوح الشرق الاقصى البعيد وليس الشرق الادنى القريب ، وأما الغرب الثقافى الذى يشير

اليه فهو ثقافة حوض بحر الروم أو حوض البحر الابيض المتوسط وما تفرع عنها وانبنى عليها من ثقافة هذا العصر ٠

يقول طه حسين : ما أظن أن علمـــاء التاريخ المصرى القديم يستطيعون أن يدلونا على آثار أو نصوص تشهد بوجود هذه الصلات المستمرة المنظمة بين مصر فى عصورها الاولى وبين الشرق الاقصى ٠

« وما أظن الصلة بين المصريين القدماء والبلاد الشرقية تجاوزت هذا الشرق القريب الذى نسميه فلسطين والشام والعراق أى هذا الشرق الذى يقع فى حوض البحر الابيض المتوسط . وليس من شك فى أن الصلة بين المصريين القدماء وبين هذه الاقطار من الشرق القريب كانت قوية مستمرة منظمة الى حد بعيد . وكانت بالغة الأثر فى الحياة العقلية ٠٠

وفى موضوع آخر يعود فيفسر ما يقصده ، فى تساؤله ، بكلمة الشرق بقوله ( معنى هذا كله واضح جدا وهو أن العقل المصرى لم يتصل بعقل الشرق الاقصى اتصالا ذا خطر ) ٠٠ ومعنى ذلك أيضا أن العقل المصرى قد اتصل بأقطاب الشرق القريب اتصالا منظما مؤثرا فى حياته ومتأثرا بها ٠٠ ان العقل المصرى منـذ عصوره الاولى عقل ان تأثر بشىء فانما يتأثر بالبحر الابيض ٠

ان الشرق الذى يتساءل طه حسين عنه هو بوضوح كامل شرق الهند ، واليابان ، والصين ، هو الشرق الذى يسميه فى كتاب مستقبل الثقافة مرات عديدة بالشرق الاقصى أو الشرق البعيد ٠٠

أما ثقافة الغرب فواضح من حديث طه حسين المكرر أنه يقصد بها ثقافة البحر الابيض المتوسط وما نما منها وتفرع عنها ، وجدير بالباحث ، وبالقارىء أن يتأمل حوض البحر الابيض المتوسط هذا ، ولا ينبغى أن ينصرف تأمله الى أسبانيا وفرنسا وايطاليا واليونان فقط ، أو حتى الى أسلاف سكان تلك البلاد ، وانما هو جدير أن يلتفت الى أن على حوض البحر المتوسط بلادا عربية وهى المغرب وتونس والجزائر وليبيا ومصر من جهة ، وهى ســــوريا ولبنان وفلسطين من جهة أخرى ، وهو جدير أن يعرف أن الثقافة ليست اقليما جغرافيا محدودا حتى ينبغى أن تنحصر ثقافة البحر الابيض المتوسط فى بلاد تقع جغرافيا مع شاطىء البحر ، وانما هى تشمل الشرق القريب الذى أشار اليه طه حسين فى الفقرة التى أشرت اليها آنفا ، والتى سمى فيها بلاد فلسطين والشام والعراق باعتبارها واقعة فى ثقافة حوض البحر الابيض المتوسط ٠

وطه حسين نفسه يقرر فى الكتاب أنه ( فى وضـــوح بل فى بداهة نشـــعر بالقرابة المؤكدة بيننا وبين الشرق الادنى ، لا لاتحاد

اللغة والدين فحسب ، بل للجوار الجغرافى ، وكذلك النشـــأة والتطور التاريخى ، فأما أن نتجاوز هذا الشرق القريب الى ما وراءه ( أى بوضوح الى أندونيسيا والباكستان وبنجلادش والصين مثلا ) فلا أفهم أن يقوم الامر فيه على الوحدة العقلية ، أو على التقارب التاريخى ، وانما أفهم أن يقوم على الوحدة الدينية ·

واذن فان بحث طه حسين عن انتماء مصر الثقافى للشرق البعيد الاقصى أو الى بحر الروم ، وانتهاءه من هذا البحث الى أن مصر ثقافيا هى جزء من ثقافة البحر الابيض ، لا يعنى بشكل من الاشكال أن مصر لا تنتمى الى الثقافة العربية ، وانما هو يعنى بالضبط عكس ذلك ·

وما لنا نعرض ونستنتج بينما تكفينا القراءة البسيطة والفهم البسيط · يقول طه حسين فى الكتاب ( اذا لم يكن بد من أن نلتمس أسرة للعقل المصرى نقره فيها فهى أسرة الشعوب التى عاشت حول بحر الروم ) · أى المغاربة والتونسيين والجزائريين والليبيين والسوريين واللبنانيين والفلسطينيين ـ الى جانب اليونان والرومان والفرنسيين والاسبان · وهو يقول فى آخر الكتاب فى وضوح أيضا ( اذا أردت أن تحلل الثقافة المصرية الى عناصرها الأولى فهذه العناصر بينة واضحة ، هى التراث المصرى الفنى القديم ، وهى التراث العربى الاسلامى ، وهى ما كسبته مصر وتكسبه كل يوم من خير ما أثمرت الحياة الاوربية الحديثة ) ··

طه حسين اذن لا يخرج الثقافة المصرية من الثقـــافة العربية الاسلامية بل يؤسسها عليها تأسيسا ·

جواب سؤال طه حسين : «عن انتماء مصر الى الشرق أم الى الغرب» بسيط · انها لاتنتمى الى الشرق الاقصى ولست أعرف الآن من يدعى هذا الادعاء ( وكان هناك من يتحدث به عندما نشر كتاب مستقبل الثقافة مثل أعضاء الرابطة الشرقية ) وانها تنتمى الى حضارة البحر الابيض المتوسط التى ساهمت فيها الحضـــارة العربية اسهاما ، وأضافت اليها اضافات أشار اليها المؤلف فى كتابه عندما ذكر الامم التى كانت تعمر هذا الشرق القريب ( مثل الشـــــام وفلسطين والعراق ) · وأشار اليها المؤلف عندما أشار الى ( مجـد العرب الاولين حين أقبلوا فى شره رائع على آثار الامم المتحضرة فنقلوها الى لغتهم ·

واتضحت عناية المؤلف من هذا كله عندما قرر ( واذن فكل شيء يدل على أنه ليس هناك عقل أوربى يمتاز من هذا العقل الشرقى الذى يعيش فى مصر وما جاورها من بلاد الشرق القريب وانما هو عقل واحد تختلف عليه الظروف المتباينة المتضادة فتؤثر فيه آثارا متباينة متضادة ولكن جوهره واحده ) ٠

●●●

وكتاب مستقبل الثقافة فى مصر ليس كتاب تفكير فقط بل هو كتاب يبحث منهاجا عمليا لمصر الثقافية ، فهل نرى طه حسين فى الكتاب يدعو الى الانفصال عن العالم العربى والاستقلال عنه أو هو يدعو الى عكس ذلك تماما ٠

لقد كتب طه حسين كتابه عام ١٩٣٦ ، قبل أن يفيض الله سبحانه وتعالى على البلاد العربية ما أفاض من غنى ، ولذلك فان المصريين جديرون أن يتدبروا ٠٠ وجديرون أن يفخروا ــ بما جاء فى كتاب مستقبل الثقافة فى مصر فى الفصلين السابع والخمسين والثامن والخمسين من الكتاب ، أما الفصل السابع والخمســون فعنوانه ( واجب مصر نحو الاقطار العربية ) وفيه يقول طه حسين ( يجب علينا أن نيسر لطلاب الاقطار العربية الدرس والاقامة فى مصر أداء للحق ونهوضا بالواجب ووفاء للاصدقاء وصرفا لهؤلاء الاصدقاء من الرحلة الى أقطار الغرب ) ٠

ويقول ( شهدت مؤتمرا للآثار عقد فى سوريا ولبنان وفلسطين فلما عدت رفعت الى الوزير تقريرا خاصا طلبت فيه أن تنشىء مصر مدارس مصرية للتعليم الابتدائى والثانوى فى هذه الاقطار وكان الذى أثار فى نفسى هذا الاقتراح ما رأيته من الســـلطان العقلى للمدارس الاجنبية على هذه الاقطار ، وكنت أرى أن العقل المصرى أقرب الى العقل السورى والفلسطينى وأحرى أن يتصل به ويؤثر فيه تأثيرا حسنا من العقل الامريكى أو الفرنسى ) ٠٠

وبعد أن يبين طه حسين أن هـــذه المدارس يجب أن تستجيب للحاجات الوطنية فى الاوطان العربية التى يمكن أن تنشأ فيها ، يختم الفصل بقوله ( هناك بلاد عربية لم ينشىء فيها الاجانب ، ولا يستطيعون أن ينشئوا فيها المدارس والمعاهد ، ولا يجد أهلها فضلا من المال ينفقونه فى تنمية الثقافة كما ينبغى فالحق على مصر أن تسرع الى معونة هذه البلاد ، وألا تدخر جهدا الا تبذله فى هذه السبيل ٠ وهذه البلاد هى الحجاز وبلاد الدولة العربية السعودية بوجه عام وما أشك فى أن المصريين يرضون كل الرضى عن انشاء مدرستين على أقل تقدير ، احداهما فى مكة والاخرى فى المدينة ،

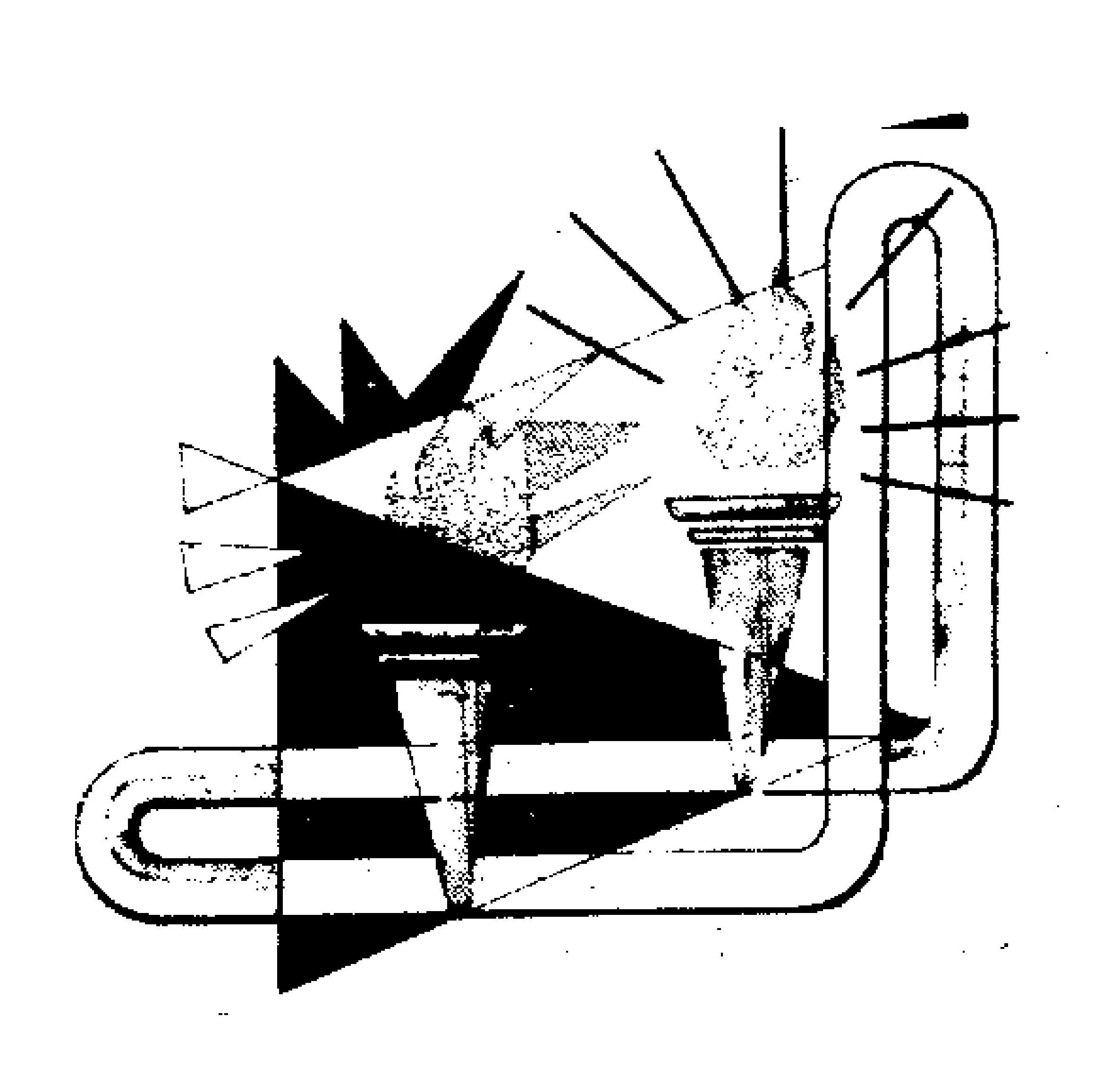
وما أشك فى انهم يتجاوزون الرضى الى البذل والانفاق ، وقد علمت أن أهل الحجاز أنفسهم يتمنون ذلك ويلحون فيه ) .

أما الفصل الثامن والخمسون الذى عنونه الكاتب ( التعاون على تنظيم الثقافة وتوحيد برامجها ) .. فهو دعوة الى التعاون على تنظيم الثقافة وتوحيد برامجها بالقياس الى الاقطار العربية كافة .. مادام مثلها الثقافى الاعلى واحدا .. ويلح على مصر أن تنهض بتبعاتها الثقافية نحو الاقطار العربية .

أطلت هذا الحديث لا أقصد فقط أن ألقى الضوء على بعض مالخصه الكاتب الصديق عبد الحميد الكاتب فى أخبار اليوم . وانما أردت أن أوضح الطريق التى سار فيها طه حسين فى كتابه والغاية التى كان يقصد اليها فى نهاية هذا الطريق ، ويدفعنى الى هذا التوضيح والتبيين أن بعض من ألقى على الكتاب نظرة خاطئه ،قد يخرج بمظنة انه دعوة الى المصرية دون العربية ، وهذا لغو وافساد لكل ما فى الكتاب .

فان طه حسين يعتبر شعوب العربية وشعب مصر منها ، يعتبرهم جميعا من شعوب حضارة البحر الابيض المتوسط ، لم يأخذوا عنها فقط بل أعطوها فأجزلوا العطاء ، وهو يدعو الى نهضة ثقافية لاتقتصر على مصر بل تشمل البلاد العربية جميعا التى رأيت أنه يدعو الى التعاون فيما بينها على تنظيم الثقافة وتوحيد برامجها .

وكان يدعو دعوة عملية الى توثيق العلاقات فيما بينها كما كان يدعو الى تكافل القادر مع من كان فى ذلك الوقت أقل قدرة على تحقيق طموحه ، وطموح طه حسين ، الى التعليم والثقافة لتحقيق التقدم والمقدرة على المساهمة في حضارة العصر الذى نعيش فيه .



# عندما أغفلنا الشرق .. ضاع الشروق

القضية الشائكة التى تدور حول انتماء مصر الى الشرق الثقافي أو الى الغرب الثقافي هي الموضوع الذى اخترته لأقدم وجهة نظر كاتبنا الكبير الدكتور طه حسين ·· ووجهة نظره صريحة وجريئة ، وهو يقدمها في حسم وفي حماسة ·· فقد كان يعتقد أن مصر تنتمي تاريخيا وواقعيا الى الغرب الثقافي، وكان يدعو الى تنمية هذا الانتماء وتعميقه اذا ما أردنا تقدما وصلاحا · هذه القضية أقدمها اليوم فى اطار آخر ، فى اطار التاريخ أكثر منه فى اطار الثقافة ، أو على الاصح ، فى اطار التاريخ كما يضعه الدكتور حسين مؤنس في كتابه « مصر ورسالتها » الذى تناول فيه قضية العلاقة بين مصر الشرق ، أو قضية اتجاه مصر الى جبهتها الشرقية الآسيوية ، خلال مرحلة طويلة من تاريخها ·· وله فى هذا وجهة نظر يقدمها بأسلوب لا يقل عن أسلوب طه حسين ، صراحة ، وجرأة ، وحسما وحماسة ! وفي رأيي أن الدكتور حسين مؤنس ، مثله مثل الاستاذ توفيق الحكيم ، والدكتور حسين فوزى ، والدكتور لويس عوض ، هم ، فيما يتعلق بقضية انتماء مصر ، الخلفاء الطبيعيون ، ثقافة وبيئة واتجاها ، لجيل تزعمه أحمد لطفى السيد ، وأنجب طه حسين ، ومحمد حسين هيكل ، ومحمود عزمي ، وسلامه موسى ·· وهؤلاء جميعا كانوا يعتقدون ، ويقولون ، بأن انتماء مصر يجب أن يكون انتماء غربيا ، أوربيا ، فى التعليم والثقافة ، فى الحكم والسياسة ، فى الاقتصاد ، فى الاجتماع ، فى التشريع ·· الخ ·· فلنقرأ ما يقولون ، ولنتفق معهم ونختلف كما نشاء ، فالقضية التى طرحوها منذ زمن بعيد ، مازالت مطروحة الى يومنا هذا ، ولعلها تفرض نفسها علينا الآن ·· أكثر مما فعلت فى تلك الايام ··

لنبدأ بصفحة صريحة جريئة من كتاب « مصر ورسالتها » يقول فيها د. حسين مؤنس :

« عندما فتح العرب مصر عام ٦٤٠ كانت ولاية بيزنطية تحكم من القسطنطينية .

« وعندما غزا الفرنسيون مصر عام ١٧٩٨ وجدوها ولاية عثمانية تحكم من نفس القسطنطينية التى حملت اسما جديدا هو استامبول أو الاستانة .

« ولم يكن حالها عام ١٧٩٨ بأحسن من حالها عام ٦٤٠ ، كان الناس في بؤس وذل وكان البلد في خراب .

« فكأن اثنى عشر قرنا من تاريخ هذا البلد ضاعت سدى ، وكأن هذه السنوات الكثيرة قد انقضت ونحن نيام ، بعيدين عن الوجود .

« شيء لم يحدث فى تاريخ بلد مثل مصر أبدا ..

« تصور .. اثنا عشر قرنا ونصف قرن تذهب سدى » ..

هذه فقرات من كتاب الدكتور حسين مؤنس « مصر ورسالتها » .. ولعلها هي الفقرات التى يذكرها دائما كل من قرأوا هذا الكتاب، فمنهم من يرى فيها الحقيقة ولو كانت مريرة ، فيتقبلها ويوافق عليها ويكاد يقتنع بها . ومنهم من يرى فيها اسرافا ومبالغة، فيرفضها وينكرها ..

ولكن الكاتب المؤرخ لم يصدر هذا « الحكم » دون أن يضع له « حيثيات » من التاريخ ووقائعه .. فلنقرأ أولا هذه الحيثيات ، ثم نرى ما استخلص منها من نتائج ، ثم ما أصدر من حكم يبدو أنه بلغ أقصى درجات القسوة .

يتساءل الدكتور حسين مؤنس عما حدث خلال هذه القرون الطويلة ، ويجيب قائلا :

« الذى حدث أننا تخلينا عن رسالتنا ، واتجهنا بكليتنا نحو الشرق ، فاختل ميزان تاريخنا ، وكان ذلك الانكسار العظيم .

« ذلك أن حكام مصر من الفتح العربي الى أوائل القرن التاسع عشر كانوا آسيويين · بعضهم أتى من آسـيا واستقر في بلادنا حاكما ، والبعض الآخر ولد فيها وظل محافظا على أسيويته · صحيح أن الكثيرين منهم تمصروا ، ولكن هذا التمصر لم يتعد بعض المظاهر، ولم يمس الروح الا في النادر . وذلك لان الامور في مصر ، وبقية العالم الاسلامي . كانت من القلق بحيث لم تسمح لاولئك الحكام بأن يتشربوا روح البلد الذي استقروا فيه وقاموا على مصائره ·

« تعاقب حكام العرب في عصر التبعية للخلافتين الاموية والعباسية في سرعة حالت بينهم وبين أن يتأثروا مجرد التأثر بهذا البلد ·

« ثم بدأت الدول المستقلة ، ومعظمها قصير العمر قليل القوى ، بحيث لا نستطيع أن ننتظر منه شيئا كثيرا ، ولم ينفسح الاجل الا لواحدة منها ، وهي الفاطمية ، فقد حكمت مصر ٣٠٢ سنة تقاسمها فيما بينهم أحد عشر خليفة ، ولم تستقر الاحوال الا للثلاثة الاول منهم ، وهم المعز والعزيز والحـاكم ·· ثم بدأ القلق والخوف والاضطراب الذي لم يسمح لخلفاء الفاطميين بالتأثر بطبيعة بلادنا ·

« ومثل هذا يقال عن الايوبيين ·· فقد شغلتهم أمور الحرب الصليبية ، والاخطار المتوالية . عن النظر في أمور المصريين بعيون مصرية ··

« وكذلك المماليك · لم يتأثروا في مجموعهم بمصر الا على نحو ضئيل جدا لا يكاد يذكر ، فقد أراد لهم الحظ السيىء أن ينهجوا في حياتهم العامة والخاصة نهجا غير سليم ولا انساني · وما رأيك في ناس كانت حياتهم كلها فوق ذلك التل القاحل الذي هو جبل المقطم ؟ ·· هناك ، وحول قلعة صلاح الدين أنشأوا معسكراتهم وبيوتهم ، وكان الماء يصل اليهم بواسطة سواق بعضها فوق بعض مازال موضعها يعرف الى اليوم « بالسبع سواقي » في مدخل مصر القديمة · وكان الطعام يحمل اليهم يوميا من الوادي ، وكأنهم جيش محاصر ! ·· هذا والوادي من تحتهم أخضر زاهر ، والناس حضر فيهم أنس وبركة ، ومع ذلك فقد ظلوا حياتهم بعيدين عن الناس والناس بعيدين عنهم ، لا الناس متأثرون بهم ولا هم متأثرون بالناس ·· والواحد منهم يؤتى به صبيا ، فينشأ كاليتيم ، يربيه مملوك عجوز لايعرف غير العصا ·· ويقضون حياتهم كالزنابير في عش ، لا هي تألف ما حولها ، ولا ما حولها يطمئن اليها ·

« ثم كان الاتراك العثمانيون ، وهم خاتمة المطاف ونهاية هذا الخيط الطويل من أولئك الاسيويين ·· ولقد عاش أولئك الاتراك

في مصر ماقدر الله لهم أن يعيشوا ، دون أن يقبسوا حتى لغةالبلاد ، فكيف نرجو ـ وهذا حالهم ـ أن يأخـــذوا عنا أو يتأثروا بنا أو يتعرفوا علينا ؟

« ... ان أولئك الناس جميعا أقاموا فى مصر ما أقاموا وعيونهم مثبتة نحو الشرق ، ونحو آسيا . كان همهم جميعا موجها نحو جناحنا الشرقى وظلت اهتماماتهم أسيوية .

« لقد أنفق أحمد بن طولون على بلد مثل طرسوس أضعاف ما أنفق على القاهرة نفسها ، واستنفد جزءا كبيرا من قواه فى التنافس مع رجل كابن رائق فى الشام .

« وقضى الايوبيون والمماليك معظم أيامهم فى الشام ، ولقد كان ذلك ضروريا لتأمين مصر من الاخطار من هذه الناحية ، ولكنه شغلهم تماما عن الاتجاهات الاخرى التى ينبغى أن تشغل حاكم بلد كمصر ، يقوم وسط الدنيا ، فله شرق وغرب وشمال وجنوب ، كلها فى حاجة الى التفاته وعنايته »

## وكان الله يحب المحسنين

ويمضى الكاتب المؤرخ فى تقديم بعض الوقائع التى تبين أن اتجاه مصر نحو الشرق ، وانشغالها بالجبهة الاسيوية ، قد شغلها عن الجبهات الثلاث الاخرى ، فخسرت مصر من ناحية ، ولم يكسب العالم الاسلامى من ناحية أخرى . فيقول :

« شغلهم الاستغراق فى الناحية الاســـيوية عن جبهات مصر الاخرى . شغلهم عن الجبهة الافريقية وهى ذات شقين ، واحد فى الجنوب ، وواحد فى الغرب .

« وقد يدهش القارىء اذا علم أن بلاد النوبة ظلت مسيحية حتى القرن الرابع عشر الميلادى ! .. الاسلام فى مصر من القرن السابع ومع ذلك لم يعن واحد من حكام مصر هؤلاء بالالتفات نحو هذه الناحية ، وظلوا قانعين بشىء اسمه « البقط » وهو هدية من العبيد تقابلها هدية من بقول مصر .. وكان الله يحب المحسنين !

« وقد يدهش القارىء أيضا اذا علم أن جناح الاسلام الغربى ( الاندلس ) انهار حجرا حجرا ونحن فى مصر لا ندرى ! .. سقط الاندلس وضاعت جزائر البحر واحتل الاسبان بعض شـــواطىء المغربين وضاعت جزائر البحر واحتل الاســـبان بعض شـــواطىء صقلية بلاد تونس أكثر من مرة ، واحتل الاسبان طرابلس الغرب ، ثم أقطعوها لفرسان مالطة ، ونحن فى مصر لا ندرى .

« وليس معنى ذلك أنى أقول أن مصر كان ينبغى أن تستنقذ الاندلس وتحمى جزائر البليار وصقلية وشواطىء المغرب ، فهذا لم تكن تستطيعه قواها ، ولكن لو كانت مصر يقظة متنبهة لما يجرى هناك لاستطاعت أن تنبه عالم الاسلام الى الخطر الماثل ، وتدفعه الى حشد قواه لملافاته ، ولو أنها فعلت ذلك لنجت الجبهة الغربية الاسلامية من شر كثير » .

●●●

كلام معقول ....

ولكن ، وبكل ما تعنيه هذه الكلمة من اعتراض واستثناء !

ولكن ألم يكن هناك ما هو أهم من قيام حكام مصر بنشر الاسلام فى النوبة .. وألم يكن هناك ما هو أخطر من تنبيه عالم الاسلام لى ما يجرى فى أسبانيا وفى جزر البليار وصقلية وعلى شواطىء المغرب ؟

ألم يكن هناك ما هو أهم وأخطر بالنسبة لمصر أولا ، وبالنسبة للعالم الاسلامى كله ، لو أن مصر أغمضت عينيها عن الشرق ولم تنشغل بتلك الجبهة الاسيوية هذا الانشغال الكبير الذى يرجع اليه الدكتور حسين مؤنس « الانكسار العظيم فى تاريخ مصر ؟ »

ان المؤرخ نفسه هو الذى يقول مباشرة عقب الحديث عن اهمال مصر للجبهة الجنوبية فى النوبة ، وللجبهة الغربية فى المغرب وحتى الاندلس ، ما يأتى وهو يتحدث عن الحروب الصليبية :

« كانت مصر قد أغمضت عينيها عن الشرق فترة من الوقت فى أواخر العصر الفاطمى ، فلم تكد تفعل هذا حتى تهدمت الجبهة الشرقية وصارت حطاما ، وتقسم بلادها الحكام والطامعون ، فصار فى كل بلد كبير من بلاد الشام وفلسطين والعراق حاكم بأمره يغازى جيرانه ويعاديهم ، وتراجعت حدود مصر الشرقية حتى وقفت عند عسقلان على شاطىء فلسطين .

« وفى أثناء هذا السبات الذى استولى على مصر نزل الصليبيون الشام ، فلم يجدوا من يردهم ، وما هى الا سنوات حتى تقاسموا معظم أراضيهم ممالك ، وحولوه الى امارات صليبية .

« ثم استيقظ المسلمون وأخذوا يجمعون قواهم لدرء الخطر الداهم .. وقام بعض الحكام فى العراق والشام بهجمات على الصليبيين فشلت جميعا ، الى أن دخلت مصر المعركة وقامت بدورها .

« ثم انتقل مركز القيادة الاسلامية الى مصر ، وتولاها صلاح الدين الايوبى . ولقد تعودنا أن نرد بطولة صلاح الدين الى شخصه فحسب، دون أن ندخل « العامل المصرى » الذى جعله ذلك البطل العظيم .

« لو أن صلاح الدين اعتمد على ملكاته وحدها لما وفق الى أكثر مما وفق اليه نور الدين زنكي في العراق ، لان نور الدين لم يكن أقل عبقرية من صلاح الدين ، ولكن مصر كانت مع هذا الاخير ، فكان ما كان من توفيقه العظيم .

« ذلك أن بلدنا هذا قاعدة عظمى ، ومركز توازن ، من الطراز الاول ، من يستقر فيه يكسب شيئا عظيما بمجرد هذا الاستقرار ، مثله فى ذلك مثل الربوة العالية فى الميدان ، من ملكها فقد ساد الميدان كله ، ومن لم يملكها ظل الامر خارجا عن يده ولو ملك كل شبر من الارض عداها »

« ومن هذه القاعدة الكبرى استطاع صلاح الدين أن يمسك بزمام الموقف ، ويوجه قوى الشرق كلها ، فلم يلبث أن اقتلع جذور الصليبيين » .

ولا يكتفي الدكتور حسين مؤنس بهذا دليلا عن « ضرورة » اهتمام مصر بالجبهة الشرقية الاسيوية ، بل يذكر أيضا أن مصر هى التى استطاعت أن تتصدى للمغول وترد غاراتهم الهمجية عن نفسها وعن بلاد العرب والمسلمين أيضا .. حدث هذا عنـــدما كانت مفتوحة العينين ، متيقظة ، لما يجرى على حدودها من الناحية الشرقية ، فلما أهملت هذا مرة أخرى فى أواخر عصر المماليك ، وضعفت قبضة مصر على الشام ، كان من السهل أن يقع الشرق فى يد الاتراك العثمانيين وأن تقع مصر أيضا وتتحول الى ولاية عثمانية ، عليها سلطان تركى أو وال يعينه الباب العالى فى استامبول » !

●●●

حدث هذا مرارا فى تاريخنا عنـــدما أهملنا الجبهة الشرقية الاسيوية ، فكيف يستقيم هذا مع ما يقوله الدكتور حسين مؤنس أن انشغال مصر بهذه الجبهة الشرقية الاسيوية هو سبب « الانكسار العظيم » فى تاريخ مصر ؟ ..

ثم يعود الدكتور مؤنس مرة أخرى ، فيتحدث فى حماسة وحرارة ، عن أن وجهة مصر ينبغى أن تكون البحر الابيض .. فاذا انصرفت عن هذه الوجهة تخلفت ، وانحدرت ، وحلت بها النكبات .. فيقول

« ولم يجن على مصر شىء قدر انصرافها عن جبهة البحر الابيض . ان لمصر فراغا فى هذا البحر عليها أن تملأه ، ولها رسالة فى حوضه عليها أن تقوم بها ، وعليها مسئولية عن حضارته لابد أن تقوم بها

.. فاذا هي قصرت في ذلك أصابها ما يصيب الرجل الذي يتخلى عن مسئوليته ، وينسى واجبه ، ويهمل رسالته ، فيحل غيره محله ، ويهمله الناس ويذهب أمره .

« ولقد استمرت مصر تحمل مسئوليتها عن حضارة البحر الابيض حتى الفتح العربي وفترة طويلة خلاله ، ولكن ذلك الاهتمام بالبحر لم يلبث أن تضاءل ، لان العرب حرصوا على أن يقطعوا صلات مصر بالبحر وما يليه ، قطعا لكل أمل « للروم » في العودة الى مصر ، وتأمينا لها من أخطار الغزو من وراء البحر .

« وشيئا فشيئا أقفل هذا الباب ، وانقطعت علاقات مصر بالبحر، وفقدت الاسكندرية أهميتها ، وتحولت الى قرية على البحر ، أجل هذا البلد الذي كان درة البحر الابيض ، والذي وجده العرب لدى دخولهم عجيبة من عجائب الزمان ، بيوته من المرمر ، وقصوره من الفضة والذهب – كما يقولون – هـذا البـلد هو رئة مصر التي تتنفس بها ، لم يعد لها في تاريخ البحر الابيض مكانة تذكر .

« وكان هذا الفصل بين مصر وعالم البحر الابيض نذيرا بالنكبات

« وأكبر هذه النكبات – طبعا – هو اهمال الحضارة الاوربية الحديثة ، فقد قبعنا في ديارنا جنوب البحر الابيض دون أن نعرف ما يجري في شماله من تقدم في ميدان العلم والصناعة ، والسلاح واعداد العدة لغزو مصر والشرق عن طريق هذا البحر الابيض ..

« وظل الناس في مصر حتى أواخر القرن الثامن عشر يظنون أن الاوربيين هم نفس الاوربيين الذين هزمهم المسلمون وطردوهم في آخر معارك الحروب الصـليبية .. ظل الناس يتوهمون هذا حتى جاء نابليون بأسطوله ومدافعه وعلمائه ! لقد بلغ من غفلة من يحكمون مصر في ذلك الوقت ان قال المملوك مراد بك عندما علم بنزول الفرنسيين على شاطئ مصر انهم « كحب الفستق للاكل والكسر » .. ثم لم تلبث معركة شبراخيت أن أيقظته من نومه ليرى أي الفريقين « حب الفستق » وعندما نزل عليهـم القنبر في معـركة الاهرام صاحوا هاربين : ياخفي الالطاف نجنا مما نخاف !

وكان هذا بداية عصر الاستعمار الطويل الذي لم نتخلص منه الا بالامس القريب ! »

ويختتم الدكتور حسـين مؤنس كلامه قائلا : كل هذه المصـائب المتتالية نشأت عن اقفال باب البحر الابيض .. نشأت عن توجيه قوانا نحو ناحية واحدة ( هي الشرق ) واهمالنا تلك النواحي التي

ينبغي ألا نغمض أعيننا عنها أبدا .. أهملنا ناحية البحر ، وتخلينا عن مكاننا في البحر الابيض ، فاختل توازننا ، فكان هذا الانكسار المحزن في تاريخنا » .

ولكن .. وأقولها مرة أخرى وبكل ما تعنيه هذه الكلمة من اعتراض واستثناء .

ولكن لكاتب المؤرخ الكبير ، صديقي الدكتور حسين مؤنس ، يتناسى في حماسة الدفاع عن جبهة البحر الابيض المتوسط ان أسوأ مرحلتين في تاريخ مصر الطويل هما مرحلة الغزو والحكم الذي جاء الى مصر عن طريق البحر المتوسط بالذات :

أولاهما ، مرحلة الحكم الروماني الذي تحولت فيه مصر الى مزرعة حبوب للرومان ، وكانت فيه أيضا مسرحا لفظائع ومذابح ارتكبها الحكام الرومان .

وثانيتهما ، مرحلة الحكم التركي العثماني الذي اتسم بكل أنواع القهر والاستبداد والظلم والاستغلال وانحطت فيه مصر الى درك عميق من الجهل والفوضى والفقر ، منذ حملت سفن الاتراك خير من في مصر من خبرة ومهارة الى استامبول .

وكان البحر الابيض هو الممر والمعبر لهذه المظالم أيام الرومان وأيام الاتراك .. ولنضف الى هذا أيضا مرحلة الغزو الفرنسي ، ومرحلة الحكم البريطاني في التاريخ الحديث ..

وعندما جاء الرومان لم تكن مصر قد أهملت جبهتها الشمالية على البحر الابيض ، بل كانت الاسكندرية هي عاصمة مصر وكانت مرآة حضارتها ورخائها . وعندما جاء الاتراك لم تكن مصر قد أهملت جبهتها على البحر الابيض ، بل لعلها كانت جبهة منيعة ، فدخل سليم الاول مصر من جهة الشرق .. تماما مثلما فعل الانجليز بعد عدة قرون ، عندما ارتدوا عن غزو مصر من الشمال ، وغزوها من الشرق عن طريق قناة السويس .

لعل في هذه الحقائق ما يحملنا على ألا نتحمس كثيرا للتركيز على الاتجاه نحو جبهتنا الشمالية ومن ورائها أوربا .. اذا ما صار هذا التركيز على حساب الاتجاه نحو جبهتنا الشرقية ومن ورائها أمة العرب والاسلام .

وهذا ، على أي حال ، هو رأى أمثالى من المحافظين ..

# حديث مع أستاذ الجيل

اردت في مستهل عملي بالكتابة الصحفية ان أتعرف الى آراء عدد من السياسيين والمفكرين فيما كان يسمى « بالوحدة العربية » ، وأن أقدم هذا في سلسلة من المقالات الصحفيه أو أنشرها في كتاب. وكانت فكرة الوحدة العربية حينذاك شيئاً جديداً علينا ، بل غريبا عنا ، لان فكرة « الوطنية المصرية » كانت تملأ عقول الناس ومشاعرهم ، ولاتترك فيها مجالا « للقومية العربية » تجاورها وتزاحمها .. أو تصرف الانتباه عنها ولو قليلا .. بل كانت هذه دعوة خافتة ينادى بها بضعة أفراد لم يبلغوا في مصر درجة الزعامة السياسية أو الفكرية ، وكان أغلب المثقفين يتلقون هذه الدعوة الى العروبة بالاعراض الذى يبلغ احيانا مبلغ الاستنكار والمعارضة .. ومنهم من يتلقاها بكثير من الحذر الذى يصل احيانا الى درجة الشك والريبة فيما وراءها من دوافع ونوايا .. اما أغلب الناس ، متعلمين وغير متعلمين ، فلا تثير فيهم فكرة « الوحدة العربية » شيئا من الاهتمام .

من هؤلاء الدعاة القدامى أحمد باشا زكي الذى
كان يسمى شيخ العروبة ، يزور « الشـــام »
فيحتفلون به هنـــاك ، ويعود الى مصر فيتحدث
في الصحف عن الوحـــدة بين المصريين والعـــرب ٠٠ وكان منهم الشيخ رشيد رضا ، من تلاميذ الامام محمد عبده وحوارييه ، يدعو الى الجامعـــة الاســـلامية ، فتختلط دعـوته في الاذهان بالدعـوة الى الانضواء تحت علم الخلافة الاسلامية الذى كان منعقـدا لسلطان تركيا ٠٠ ولكن أصوات هؤلاء الدعاة كانت أصـــواتا خافتـــة ، بل كانت نشازا عن الصوت المدوى وهو صوت الوطنية المصرية الذى ينطلق فى حماس وحرارة من قلب الشعب المصرى بجميع طبقـاته وطوائفه ، تتردد أصداؤه فى مصر وعبر حدودها عندما يصدر هذا الصوت من سعد زغلول وهو يقـــود الامة الى المطـــالبة بالحرية والاستقلال ٠

كان سعد زغلول يمثل في زعامته وفي سياسته هذا الاتجـــاه المصرى ٠ وهو انه لا مكان الآن ٠٠ فى الوقت الحاضر ٠٠ للوحدة العربية أو القومية العربية ٠ وقد شاعت فىذلك الوقت قصة نقاشه مع عبد الرحمن عزام الذى كان منذ شبابه ، ومنذ ترك دراسة الطب ليحارب فى ليبيا ضد ايطاليا ، مشبعا بفكرة الوحـدة العـربية ، وأراد أن يقنع بها سعد زغلول ٠٠ فسأله سعد : صفر + صفر + صفر يساوى كم ! ٠٠ فقال عزام : يساوون صفرا ٠٠ قال سعد : واحد + واحد + واحد يساوون كم ؟ ٠ فقال عزام : ثلاثة ٠ قال سعد : كل شعب عربى الآن يساوى صفرا ٠٠ لانه شعب يحكمه الاجنبى ٠٠ فاذا وحدت هذه الشعوب كانت النتيجة صفرا ٠٠ اما عندما تستقل البلاد العربية ويصير كل منها « واحدا » قائمـــا على قدميه ،فعندئذ نفكر فى تجميعها وتوحيدها ،ونكون منها شيئا كبيرا

ولكن الامر عند واحد من هؤلاء القادة المفكرين كان يتجاوز هذا التدرج المرحلى ٠ فسعد زغلول ، وأغلب المشـــتغلين بالســـياسة

والكتابة والتفكير السياسي ، يرون ان الحركات الوطنية في البلاد العربية يجب ان تنصرف لها كل الجهود ·· وعندما تستقل مصر ، وتستقل سورية ، ولبنان ، وفلسطين ، والعراق ·· وعندما تنهض البلاد العربية وتبدأ مسيرتها الى التقدم فعندئذ تأتي مرحلة التفكير في تجميعها وتوحيدها ·· اما احمد لطفي السيد ، اما الرجل الذى لقب باستاذ الجيل وحفظ الناس له هذا اللقب حتى بعد ما امتد به العمر ومر بثلاثة أجيال ، فقد كان اعتراضه على الوحدة العربية اعتراضا مبدئيا ودائما ·· انها « فكرة ضارة » بمصر فلا يجوز التفكير فيها الآن ، ولا في المستقبل ·

وذهبت الى احمد لطفي السيد مثلما ذهبت الى عدد من السياسين والمفكرين المصريين منهم حافظ رمضان رئيس الحزب الوطني ، ومكرم عبيد سكرتير الوفد المصري ،ومحمد علي علوبة ،والمؤرخ عبد الرحمن الرافعي ، والدكتور محمد حسين هيكل وغيرهم ··

جلست أمام استاذ الجيل في مكتبته الباذخة التي تغطي الكتب جدرانها العالية ··وقد ارتفع فوق مكتبته عدد من الكتبوالقواميس ·· وكان ملتحفا بعباءة عربية جعلتني اظن أنه قد صار اكثر تهيؤا لقبول فكرة الوحدة العربية !

قدمت له نفسي ·· اني اكتب في مجلة الهلال ، وأدرس ايضا في معهد الصحافة بكلية الآداب ··واعد الان سلسلة من الموضوعات عن « الوحدة العربية »·· وقلت له : ان معاليكم ·· عارضتم فكرة الوحدة في الماضي ·· فهل مازلتم عند رأيكم ؟ ولماذا ؟ ·· أم هل تغير رأيكم في الموضوع ؟ ولماذا ؟ ·

ونظر الى من خلف نظارته ، وصدمني بكلمة قالها وفي صوته شيء من الغضب :

ـ أنت طبعا لست مصريا ؟

ـ أنا مصري ·· ولدت حيث ولد أبواي واجدادي في قرية قريبة من قرية معاليكم !

فقال : لو كنت يا ابني مصريا لما اضعت وقتي ·· واضعت تفكيرك ومجهودك ·· في الكلام عن موضوع قضيت على فكرته الضارة » وأنا اكرر الكلمة التي قالها ، منذ ان كتبت ستا وعشرين مقالة موضوعها « أقيموا الاسوار حول مصر » ·

وعلى مدى ساعتين أو أكثر في مكتبته الباذخة في منزله بمصر الجديدة أخذ كبير المفكرين المصريين يحدثني عن تاريخ هذه « الفكرة الضارة » كما كان يصفها ·· وعن دعاتها وأهدافهم ··وعن ذكرياته

.. عن الولد اللبناني الذى جاء الى مصر سائرا على قدميه وكان يدور بأقداح القهوة على الضيوف فى « دوار » عائلة الباشا وهو الآن مليونير فى الاسكندرية ويحمل لقب الباشا .. وعن السورى الذى كان أميا أو شبه أمي وعين مستشارا فى محكمة الاستئناف .. ثم يحتد فى حديثه ويقول : لقد ماتت الفكرة .. بعد أن كاد خطرها يتسرب الى عقول بعض المصريين !

وكنت أحاول ، وانا تلميذ لبعض تلاميذه ، ان أناقشه واحاوره قليلا ، وان أذكر له ان الفكرة قائمة فى اذهان بعض السياسيين والمفكرين .. وأذكر له ما قاله لى أولئك الذين قابلتهم .. وأن أذكر له ما يكتبه بعض الكتاب الكبار من تلاميذه .. فلا يصدق أو لايريد أن يصدق . ويرى ان لكل شيء تفسيرا غير الاقتناع بفكرة الوحدة العربية .

ويتساءل : هل فكر الذين يدعون الى الوحدة العربية فى تأثير هذا على الوئام الذى يجمع بين عنصرى الامة المصرية ؟ .. هل يظنون أن الاقباط المصريين عرب مثل المسيحيين اللبنانيين ؟ .. فقلت له : ربما ساورت هذه الفكرة مكرم عبيد . وكان حين ذاك من اقوى الشخصيات فى الوفد المصرى وله مكانته المرموقة بين الاقباط .. فكان اول سياسى مصرى يكتب مقالا مثيرا فى ذلك الوقت عنوانه « المصريون عرب » .. طالب فيه بأن تنظيم البلاد العربية فى «جامعة وطنيه واحدة أو وطن كبير يتفرع منه عدة أوطان لكل منها شخصيات ولكنها فى خصائصها القومية العامة متحدة متصلة اتصالا قوميا بالوطن الاكبر » .

وكان استاذ الجيل ينظر الى شيء من العطف .. أو من الشفقة .. عبر عنه عندما اتصل بالاستاذ أحمد أمين عميد كلية الاداب ، والدكتور محمود عزمى عميد معهد الصحافة ، ليقول لهما فى التليفون : أن أمامي شابا من تلاميذكم .. يبدو أن « طيب » فى مقصده وتفكيره ولكنه مضلل .. لانه جاء يحدثنى عن شيء اسمه « الوحدة العربية » ! .. هل انتم فى الجامعة تبثون فى عقولهم مثل هذه الآراء .. واذكر أن حوارا طويلا جرى بينه وبين الاستاذ أحمد أمين صاحب « فجر الاسلام » .. الذى كان يحاول أن يقنعه بأن تفكير مصر فى أن تتجه اتجاها عربيا ليس ضلالا .. بل هو الطريق السوى ! .

وحفزنى ما فهمته من هذا الحوار الى أن اقول له : يا معالى الباشا ان فكرة الوحدة العربية تأخذ شكلا جديا .. يتجاوز حدود ما يكتبه

بعض الكتاب والمفكرين ، وما ينادى به بعض المشتغلين بالسياسة في مصر ·· وهناك كلام جدى فى انشاء منظمة للدول العربية ·· فأنهى الحديث الطويل الذى تناول ايضا فيما تنـــاول رأيه فى الديمقراطية وفى الصحافة قائلا : لو صح ما تقـــوله يا ابنى فان الموضوع يكون أهم واخطر من أن أدلى فيه بحديث ينشر فى صحيفة أو مجلة أو كتاب ·· ولو صح ان الفكرة بدأ يدفعها ناس لهم وزن وتأثير ·· فلن اكتفى بأن اخطب فى البرلمان ،فقد كان عندئذ عضوا فى مجلس الشيوخ ،بل سأنزل الى الشارع واخطب فى الناس وابين لهم أضرار الوحدة العربية على مصر !

ولكن الفكرة بدأت تتحول الى تيار وبدأ التيار يتحول الى حركة. وسرعان ما قامت جامعة الدول العربية ·· ولم يكتب لطفى السيد مقالا أو يلق خطابا يعارض فيه هذا التطور السريع نحـو الانتماء المصرى الى العروبة ·· ولكنه ـ فيما أعلم ـ ظل على رأيه هذا طيلة حياته ، فعندما صار وزيرا للخارجية بعد هذا اللقاء فى منزله بسنوات قليلة ، وكانت جامعة الدول العربية قد قامت وانعقد مجلس الجامعة فى مقرها بالقاهرة ، كان عليه أن يرأس وفد مصر ويحضر الاجتماع فحضر جلسة الافتتاح ·· ولم يحضر باقى الاجتماع !

وأكثر من هذا ، ان جمال عبد الناصر ارسل اليه نسخة من أول دستور وضع بعد ثورة يوليو وهو دستور سنة ١٩٥٦ ، فرد النسخة ومعها كلمة تقول : قرأت المادة الاولى من الدستور ·· ووجدتها تقول : أن مصر جزء من الامة العربية ·· فرأيت أن أعيد اليكم النسخة التى أرسلتموها ·· لأنه لا داعى لقراءة باقى الدستور !

ولم يكن لطفى السيد وحده فى هذا الاتجاه ، فقد كان تلميذه الدكتور طه حسين ·· والى حد ما تلميذه الثاني الدكتور محمد حسين هيكل ·· قريبين الى هذا الاتجاه ·

فى اثناء مباحثات « الوحدة » التى جرت بعد انفصـــال الوحدة المصرية السورية قال الاتاسى رئيس وزراء سورية الاسبق لجمـال عبد الناصر : لقد ذهبت الى لقاء الدكتور طه حسين ·· وتحدثنا فى موضوع القومية العربية ·· فخرجت من عنده « مبتئسا » بما سمعته منه من آرائه فى القومية العربية ·· فقال له عبد الناصر : ولكن فى مصر الآن جيلا جديدا يعرف بأن مصر جزء من الامة العربية ويؤمن بحركة القومية العربية ·· ولن يتخلى عنها مهما اصاب هذه الحركة من نكسات ·

متى جرى هذا الحديث ؟ ·
جرى قبل قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ بأقل من عشر سنوات ·

وهنا اتوقف قليلا لاقول أن ثورة يوليو لم تخترع ولم تصنع هذه الانتماء المصرى الى العالم العربى ·· ولا أقول انهـا كتبت صفحة جديدة عن عروبة مصر لم يكتب فيها من قبل سطر واحد · فالواقع انه فى خلال السنوات التى سبقت الثورة بدأت حـــركة الانتماء العربى تنشيط ،وتقوى ،وتأخذ وجها رسميا ·· واهم منهذا فانها بدأت تتحول الى حركة شعبية بعد أن كانت مجرد دعوة ينادى بها بعض الافراد ·

أما وجهها الرسمى فقد وافقت مصر ـ بعد تردد ـ فى أن تنضم الى جامعة الدول العربية ·· ولكن فلنتذكر ما حدث · وقع مصطفى النحاس رئيس الوزراء بروتوكول الاسكندرية الذى أعلن انشـاء الجامعة العربية يوم ٧ أكتوبر ١٩٤٤ ·· وفى اليوم التالى مباشرة أقاله الملك فاروق من رئاسة الوزارة ! ·· ومع ان الاقالة كانت مبيتة منذ وقت غير قصير ، الا أن اعلانها فى اليوم التالى مباشرة كان مظهرا من مظاهر الاستخفاف بالدول العربية كلها ، وبحـــركة التضامن العربى التى بدأت تأخذ شكلا واضحا فى تكوين جامعة للدول العربية ، مقرها القاهرة ·

اما وجهها الشعبى فقد تمثل فى تلك المظـاهرات الضخمة التى قامت فى القاهرة والاسكندرية وكثير من انحاء مصر فى نوفمبر سنة ١٩٤٥ بمناسبة ذكرى وعد بلفور ·· وفى الشعور الذى غمر الناس عندما ذهب جيشنا ليحارب فى صحراء النقب ويدافع عن الشعب الفلسطينى ·· وعندما اخذ الناس يتشوفون الى نتيجة المعركة فى حماس واهتمام ·· وهذا هو مايفسر النكسة النفسية التى اصابتنا عندما تبينا ان اليهود أقوى مما كان يقال لنا ، وان الاضطـــراب والتخاذل شملا الجبهة العربية ، وان كثيرا من جنودنا وضـــباطنا سقطوا قتلى واسرى ·· فاضطررنا الى ان نطلب الهدنة وتوقف القتال

ومن مظاهر هذه الحركة الشعبية انه لاول مرة فكر حزب سياسى فى أن يضع فى برنامجه شيئا عن الوحدة العربية · فعندما حول أحمد حسين جماعة « مصر الفتاة » الى الحزب الاشتراكى » فى سنة ١٩٥٠ نص فى برنامجه على توحيد الشعوب العربية فى دولة واحدة اسمها « الولايات المتحدة العربية » ·

ثم جاءت ثورة يوليو ·· وبعد سنتين أو ثلاث بدأ قادتها يتبينون أن الانتماء المصرى الى الامة العربية هو شعور مصرى عميق ·· وانه

شعور نابع من الماضى الطويل ، ومن الواقع القائم ·· فلم يكن من الصعب ان تنجب مصر جيلا ممتلئ الفكر ، مشبع الشعور ، بأن مصر جزء من الامة العربية · وكان من السهل أن تدفع حركة القومية العربية فى مصر ، وفى العالم العربى دفعة قوية ·· يضيفها أغلب الناس الى رصيد ثورة يوليو ، ويضيفها بعض الناس لقصر النظر وسوء التقدير الى الحساب المدين !

فلا شك فى أن هناك من المصريين من يرون ان هذه الحركة قد جرت مصر الى مشاكل كبيرة يحسبون أننا كنا نستطيع أن نتفاداها ·· وما من شك فى أن هذا الرأى أو هذا الشعور يجد ما يفسره أو يبرره فى تلك الاعباء الضخمة التى حملناها ، واثقلت كاهلنا ، وما نزال حتى اليوم نئن تحت وطأتها ·· ولكن ·· ليس الخطأ فى اننا لم نقف حيث كنا فى عزلة عن العالم العربى ، ولم تقم الاسوار حول مصر حتى لا تتسرب فكرة القومية العربية الى اهلها ·· وليس الخطأ فى اننا اخذنا طريق الانتماء المصرى الى الكيان العربى الكبير ، وهو الطريق الوحيد المفتوح أمامنا اذا اردنا ان نسير ·· ولكن الخطأ أننا فى بعض الاحيان ·· اسرعنا الخطى أكثر مما ينبغى ·· واردنا ان نقطع فى يوم ، ما ينبغى ان نقطعه فى ايام ·· فأصابنا من التعب والجوع والاجهاد ما يصيب السائر فى طريق وعر شاق ·· وكان حالنا فى بعض الحالات والمراحل ، مثل انهيار الوحدة المصرية السورية ، ومثل حرب اليمن ، حال «المنبت» الذى يضرب دابته ضربا مبرحا لتسرع الخطى، فقال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : ان المنبت لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى ··

ولكن هل يمكن أن نتصور اليوم ماذا كانت تكون صورة العالم العربى لو لم يسر فيه هذا التيار الدافق القوى من حركة القومية العربية ؟ ربما كانت كل اقاليمه فى المشرق والمغرب والجنوب قد صارت دولا مستقلة ·· ولكن أى استقلال ؟ ·· علم خاص يرتفع فوق دور الحكومة وفوق سفارات فى الخارج وايضا فوق مبنى الامم المتحدة ؟ ·· ولكن ارادة هذه الدول ، ومواردها ، ومستقبلها ومصيرها ، تبقى أسيرة فى يد الدول الكبرى الطامعة !

بل اكثر من هذا ·· ماذا كانت تكون اسرائيل اليوم ·· هل كانت تكتفى بأن تلتهم نصف فلسطين ·· ثم تلتهم ما بقى من فلسطين ·· ثم تحتل أجزاء اخرى من العالم العربى ؟ ·· كلا ·· لو سارت الامور فى طريق عزل مصر عن العالم العربى لكانت

الحركة الصهيونية تسرى .. وتنهش .. فى الكيان المصرى ، دون أن ندرك ما يجرى الا بعد فوات الاوان !

فقد كانت هناك حركة صهيونية فى مصر ، ونحن لاندرى ، لا لانها كانت حركة سرية تجرى فى المخابيء والاوكار ، بل لاننا ـ في عزلتنا عن القومية العربية، كنا لاندرك ماهى هذهالحركة الصهيونية ولا خطرها علينا .. فتركنا الحركة الصهيونية تعمل فى مصر نهارا جهارا ..

كانت تصدر في مصر صحيفة اسمها « اسرائيل » .. وظلت تصدر منـــذ ١٩٢٠ حتى سنة ١٩٣٢ .. وكانت مصر قد أعلن استقلالها سنة ١٩٢٢ ، وكان اصدار الصحف بترخيص من وزير الداخلية المصرى !

وكان في القاهرة .. وفى الاسكندرية .. مبنى عليه لافتة مكتوب عليها بالخط العريض « مقر الحركة الصهيونية » .

ولم يكن جميع القائمين بهذه الحركة يهـودا مصريين .. بـل اكثرهم يهودا أجانب .. وكان بن جوريون ، الذى جاء من روسيا وأقام فى فلسطين ويحمل جواز سـفر بريطانيـا ، يأتى الى مصر مرارا لانه كان مراسل جريدة « اسرائيل » فى فلسطين !

وكان لليهود المصريين والمتمصرين نفـوذ كبير فى التجـــارة فى مصر . فقد كانوا يملكون المتاجر الكبرى مثل شـيكوريل وشـملا وعدس وبنزيون ــ أى ابن صهيون ــ وكانوا يحتكرون الاتجار فى عدد من السلع الاساسية مثل الاقمشة المستوردة .. ومثل الورق الذى تطبع عليه الصحف والكتب .. بل حتى تجـــارة الجملة فى المسابح التى نسبح بها فى صلواتنا كان يحتكر استيرادها تجـــار يهود فى الموسكى .

ومما لاشك فيه أن نفس الشيء كان سيحدث فى البلاد العربية الاخرى وخصوصا عندما تكدست الاموال فى خزائن الدول المنتجة للبترول .

وأخيرا فهذه صفحة من الماضى القريب .. من حق جيل الشباب أن يعرفها .. ومن واجب الشـيوخ الا ينسـوها .. وقد رأيت أن أضمنها هذا الكتاب فى معرض الحديث عن انتماء مصر أهو الى الشرق أم الى الغرب .. . وحين ننسى أو نتناسى الانتماء الصحيح ، والذى لا مفر منه .. ولا بديل عنه .. وهو الانتماء العربى .. مادام انتماء يضع مصر فى مكانها الصحيح ، مكان الصدارة والقيادة والمسئولية فى العالم العربى جميعا .

# احترام الشيخوخة..

## ظاهرة استرعت انتباه الأوربيين

**** أكون مقصرا فى حق القارىء اذا لم اتحدث عن كتـــاب من اهم واعظـــم الكتب عن « مصر والمصريين »**
**هذا هو كتاب «وصف مصر» الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية التى قادها نابليون على مصر . وهو مايزال شابا يحلم بأن يبنى امبراطورية فى الشرق مبتدئا بمصر . مثل التى بناها الاسكندر الاكبر مبتدئا بفارس . فاصطحب معه مجموعة من العلماء والباحثين . أنشأوا فى القاهرة المعهد العلمى الفرنسى .**

وجاء ومعه مطبعة عربية . وكان جماعة من المستشرقين قد صنعوا حروف هذه المطبعة بأمر البابا . ولعل الفاتيكان طبع عليها عددا من الكتب العربية ، فأرسل نابليون من سرق المطبعة وحملها معه الى مصر . وكان نابليون يطبع عليها منشوراته التى يتودد فيها الى المصريين.. فيشيد بدين الاسلام ، ويعلن تقـــديره واحترامه لنبى الاسلام .

وكان يتودد على الاخص الى شيوخ الازهر . فهم القادة والزعماء ، ويدعوهم الى قصره الذى تمتد أمامه بحيرة الازبكية التى كانت فى تلك الايام ممتلئة بالقوارب .

وفى احدى هذه الحفلات أعد لكل شيخ شالا من ثلاثة ألوان هى الاحمر والازرق والابيض .. مثل علم الثورة الفرنسية .. فلما أراد أن يضع الشال على كتف الشيخ عبد الله الشرقاوى ، ألقى به على الارض .. مستهجنا أن يلتف بشال يشبه علم فرنسا :

وكان الشيخ الشرقاوى يمثل روح الثورة التى بدأت تضطرم فى نفوس المصريين .. وحدثت بينه وبين نابليون مواجهة ومشادة

.. فعندما أخذ نابليون يشيد بدين الاسلام .. صاح فيه الشيخ الشرقاوى محتدا : اذا كنت صادقا فى كلامك .. فلماذا لا تعتنق الاسلام ؟

هذا على نقيض الشيخ المسيرى ، شيخ مشايخ الاسكندرية .. فقد أولم وليمة كبيرة لضباط نابليون وقدم لهم أطباق الارز من ثلاثة ألوان الابيض والاحمر والازرق .. ألوان علم الثورة الفرنسية .. فكانت مجاملة لطيفة أعجبوا بها !

وقد يسمى هذا نفاقا أو رياء .. وهى صفة كثيرا ما تلصق بنا .. ولكنها ليست كذلك ، وانما هو الاسلوب المصرى فى محاولة احتواء القوى الظالم ، حتى تنكسر حدته ، وعندئذ يمكن قهره والقضاء عليه ! وقد مارسنا هذا الاسلوب تجاه الافراد الطغاة ، وتجاه الامم الغازية ، وكانت النتيجة دائما أن انتصرت مصر عليهم جميعا وعاشت آلاف السنين .

● ● ●

ونعود الى العلماء الفرنسيين الذين جاءوا مع نابليون ، فنجد أنهم انصرفوا فى أثناء السنوات الثلاث التى أقاموها فى مصر يدرسون وينقبون . ويجمعون المعلومات ويسجلونها .. الى أن ضمنوها فى كتاب ، أو على الاصح فى دائرة معارف ، من أربعة وعشرين جزءا .

واستغرق اعداد هذا الكتاب العظيم وطبعه سنين طويلة ، فيما بين سنة ١٨٠٩ و ١٨٢٢ .. أى بعد أن ترك الفرنسيون مصر ، وانصرف نابليون عن حلم امبراطورية الشرق ، الى حلم جديد عن امبراطورية أوربية تمتد من أسبانيا الى روسيا الى السويد .

وظهرت بعض أجزاء الكتاب ونابليون مازال على العرش ، فكان على غلافها أنها « طبعت بأمر صاحب الجلالة الامبراطور نابليون الاكبر » .. ثم سقط نابليون فكتب على غلاف الاجزاء الاخرى « طبعت بأمر الحكومة » .

وفى المكتبات الكبرى وفى المتاحف الاثرية ، نسخ من هذه الطبعة الاولى ، وقد ذهبت أخيرا الى متحف المتروبوليتان فى نيويورك .. فجاءونى من خزانته التى يحتفظون فيها بمثل هذه التحف بالنسخة النادرة .. وأخذت أقلب فيها بحذر شديد .. وعلى مقربة منى أحد حراس المتحف بمسدسه المعلق فى وسطه !

وقد علمت أن أحد تجار التحف والآثار في نيويورك كانت عنده نسخة من هذه الطبعة الاولى ، فباعها بمائتى ألف دولار !

يا لقصر النظر ! ٠٠ ففي سنة ١٩٥٢ كنت في باريس ، فجاءتنى سيدة فرنسية عندها نسخة من هذا الكتاب الفريد تريد بيعها ٠٠ وأذكر أن الثمن كان لا يتجاوز بضع مئات من الدولارات ، ولكنه كان بالنسبة لى ، ومايزال ولله الحمد ، مبلغا كبيرا ٠٠ فاعتذرت ! ٠٠ وقدمت السيدة الفرنسية الى السفير عدلى اندراوس رحمه الله ، فقد كان على علم واسع بهذه الامور ، وعلمت ـ لاول مرة ـ فيما جرى بينهما من الحديث أن كتاب « وصف مصر » له عدة طبعات ، وأن لكل طبعة قيمتها التاريخية ٠٠ والمادية ٠٠
ثم علمت فيما بعد أن احدى هذه الطبعات تتضمن لوحات بديعة تطبع ، وتباع النسخة المطبوعة من اللوحة الواحدة ، بمائة دولار وبمائة وخمسين دولارا !

● ● ●

وقد ترجم هذا الكتاب الكبير كاملا الى اللغة الانجليزية ، والى اللغة الالمانية ، والارجح أنه ترجم الى لغات أخرى منذ زمن بعيد ٠٠ أما الذين يعتمدون في قراءة الكتب ، وفي الوصول الى مناهل الثقافة ، على اللغة العربية فقد ظلوا محرومين من قراءة هذا الكتاب ٠٠ حتى تصدى أخيرا واحد بمفرده الى ترجمته ٠

انه الكاتب الاديب الأستاذ زهير الشايب ٠٠

لقد قام بمفرده يتصدى الى ترجمة الكتاب من الفرنسية ٠٠ ثم قام بمفرده بطبع ماترجم من اجزاء الكتاب على نفقته ٠٠ كان هذا جهدا جهيدا ، فانه يترجم الكتاب ويطبعه جزءا جزءا ،وقد أصدر حتى الآن خمسة أجزاء ، ومازال ماضيا في اصدار الترجمة الكاملة لكتاب ليس أقل ، كما ذكرت ، من أن يكون موسوعة أو دائرة معارف كاملة ٠

وهي ترجمة كاملة وحرفية ٠٠ حتى أنه عندما حذف جملة هنا ، وسطرا هناك ، أشار الى هذا في مقدمة الكتاب ٠٠ معتذرا بأن فيها مساسا بالشعور الديني ٠٠ وهي أمانة في الترجمة تستحق التقدير والاشادة ٠٠

وعجيب أن ينهض بهذا الجهد الهائل رجل بمفرده ! ٠٠ وقد كانت عندنا وزارة للثقافة بلغت ميزانيتها السنوية الملايين ٠٠ ولم تفكر وزارة الثقافة لا في ترجمة كتاب « وصف مصر » ، ولا حتى في انفاق

بضعة آلاف على طبعه بالصورة التى يستحقها ·· ثم ايداعه فى مكتبة كل مدرسة ، وكل معهد ، وكل ناد ·· وأيضا فى « قصور الثقافة » التى أنشأتها وزارة الثقافة ·

●●●

وأمامى الآن الجزء الاول من ترجمة الكتاب وعنوانه : « دراسات فى عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين » ·

ومؤلف هذا الجزء هو « جيلبير دى شابرول » ، الذى جاء الى مصر وهو فى الخامسة والعشرين ، وكان مهندسا للطرق والكبارى، وولاه نابليون فيما بعد وظيفة رئيس بلدية باريس ، ولكن هذا المهندس كان معنيا بدراسة شئون المجتمع المصرى وعاداته وتقاليده وأخلاقه ·· فوضع هذا الكتاب الذى تتبع فيه الانسان المصرى فى أطوار حياته : من سنوات العمر الاولى وما يتلقاه من تربية وتعليم ، الى طور الرجولة وما فيها من عمل وتعامل وزواج وأبوة وحياة عائلية. الى طور الشيخوخة وما يتصل بها وبكل هذه الاطوار من أوضاع وتقاليد ·· والى جانب هذا فصول أخرى يتناول فيها الحديث عن علماء الشريعة والقضاء وعن الاعياد الدينية ، وعن النظم والمؤسسات القائمة ، وعن طوائف من المصريين منهم الاقباط ، وبدو الصحراء والمماليك ، والاجانب فى تلك الايام ·

وأريد الآن أن أقدم صفحة من هذا الكتاب ، وأقول صفحة واحدة، فان هدفى من هذه السلسلة من الموضوعات أن أعرف القارىء بعدد من الكتب المهمة التى تناولت الشخصية المصرية . وأن أقدم له صفحة أو صفحات من كل كتاب لعلها تغريه بأن يقرأ الكتاب كاملا، فاننا فى مرحلة يجب أن نعرف فيها شخصيتنا المصرية وأبعادها المختلفة ·

لقد لاحظت أن أكثر ماكتب عن الشخصية المصرية قد وضع منذ سنة ١٩٦٧ ، ومنها هذا الكتاب الذى أتحدث عنه ، فيقول مترجمه الاستاذ زهير الشايب : « منذ تلك الصدمة الهائلة أخذت الكتب ، مؤلفة ومترجمة ، تصدر تباعا تتحدث عن تاريخ مصر ودور مصر فلم يعد التاريخ ، وتاريخ مصر بالذات ، مجرد دراسات أكاديمية لايقرؤها الا المختصون ، وانما أصبح ثقافة عامة لكل مثقف وطنى تشغله أمور بلاده »

●●●

والصفحة التى اختارها من هذا الكتاب هى عن احترام المصريين للشيخوخة ·· وهي ظاهرة فى المجتمع المصرى استرعت نظر الاوربيين الذين جاءوا الى مصر أيام نابليون وقبل نابليون ·· فلاحظوا فرقا واضحا بين وضع المسنين والعجائز فى مجتمعنا المصرى الشرقى . وبين وضعهم فى المجتمع الاوربى الغربى ·· وأخذت هذه الظاهرة الطيبة ـ ظاهرة كبير العائلة المصرية ـ مكانا ملحوظا فيما كتبوه بكل تقدير واعجاب ··

يقول جلبير دى شابرول فى كتابه « دراسات فى عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين » ·

« ينبغي علينا القول بأن الشرقيين وأن كانوا قد أهملوا تعـلم العلوم والآداب ، الا أنهم استطاعوا أن يحتفظوا ببعض آثار من العادات والفضائل ، والا ، فهل ثمة عند أمم الشرق مايستحق المديح أكثر من ذلك الاحترام العميق الذى يكنونه نحو الشيخوخة ؟ · ويتميز المصرى على وجه الخصوص بهذا الشعور النبيل ، وقد حض عليه نبى الاسلام فى تعاليمه الى الحد الذى جعل منه مبدأ دينيا ، ومبدأ مدنيا فى وقت واحد ·

« ان المفكر يستطيع أن ينعى على الشعوب الاوربية ، التى تطورت صناعاتها ومعارفها الى حد مذهل ، هذه اللامبالاة الشديدة نحو الشيخوخة · ففى الوقت الذى تقوم فى مجتمعاتنا الاوربية قوانين تنطق بالحكمة وتشهد لواضعيها بالعبقرية والاحساس العظيم ، وكذلك بتلك الدرجة الكبيرة من التحضر التى وصل اليها أولئك الذين سنت من أجلهم تلك القوانين ، فان المرء ليدهش حقا عندما لا يجد فى مجموعة القوانين هذه فصلا مخصصا للواجبـات التى ينبغى مراعاتها نحو كبار السن · ونستعير هنا ، حول هذا الموضوع ، بعض الافكار التى وردت على لسان ( الرحالة الفرنسى سابارى ) مؤلف كتاب « رسالة عن مصر » ·· فان أقواله ترسم بدقة ذلك الفرق الكائن بين أفكار وعادات شعوب الشرق ، وبين مثيلاتها عند شعوب الغرب ، بخصوص الشيخوخة ·

« ان الشيخوخة عند كل الشـعوب المتحضرة ، حيث يعيش الانسان وسط عائلته فترة أقل ، لا تلقى من الاحترام بقدر ما تلقاه فى مصر · بل أن الشـيخوخة تـكاد تـكون ، عند هذه الشـعوب المتحضرة ، نقيضه ، وينبغى على الملتحى ذى الشعيرات البيضاء أن يصمت أمام غرور الشباب ومباهاته ، وعليه أحيانا أن يلعب دور

الطفل حتى يمكن تحمله في داخل نطاق العائلة ، فما أن يحس الانسان عندنا بأن سنوات العمر قد بدأت تثقل كاهله ، وبأن مباهج الحياة أخذت تتضاءل ، حتى يرى نفسه وقد أصبح عبئا ثقيلا على أولئك الذين يدينون له بوجودهم فى الحياة وعندما يصبح فى حاجة الى المواساة والسلوى فانه يرى نفسه وقد أنكر عليه حسن الرعاية، وأغلقت دونه القلوب ، وعندئذ تزحف الى جسمه برودة قاتلة ، وترتجف روحه من برودة الوحدة ، دون أن يجد من حب زوجه وحنانها ما يبعث بالدفء اليه ٠٠ فى مثل هذه الامم يموت العجوز ، وهو الذى كان من قبل والدا عطوفا ، قبل وقت طويل من نزوله الى ظلمات القبر ٠

« فلنخلع اذن النقاب عن وضع ليس عاما لحسن الحظ ٠ ولكنها تلك المشاهد المؤثرة التى كنت أراها كل يوم فى هذا البلد (مصر) قد اضطرتنى الى أن أقدم لكم هذا النقيض المقابل ٠ فهنا فى مصر يبتسم العجوز الذى تلامس لحيته صدره وهو يلقى الاحترام ٠٠ يبتسم ، برغم وطأة الشيخوخة وضعفها ، لاحفـــاده وهم يأتون لمداعبته ، وينشرح صدره وهو يرى أربعة أجيال تهرع اليه ، لتقدم اليه ما تفرضه عليهم البنوة البارة ، فيتذوق بذلك بهجة الحياة حتى آخر لحظة من لحظات عمره » ٠

●●●

هذ ما كتبه الرحالة الفرنسى سارباري ٠٠ ثم يمضى دى شابرول فى هذا الموضوع فيكتب :

« وفى واقع الامر فان الاوربيين لا يمكنهم أن يرضوا عن أنفسهم بثقة واعجاب عندما يرون هذا الاحترام الذى يبلغ مرتبة التقديس، والذى توليه الأمم الاسلامية لكبار السن :

« فهؤلاء الناس الذين نطلق عليهم ذلك النعت المقزز المرعب حين نصفهم بغير المتحضرين أو البرابرة ، يقدمون لنا فى هذه الناحية مثالا جديرا بالاحتذاء ٠٠ مثالا على أجمل الفضائل ، التى قل أن تنال اهتمامنا مع انها تستحق كل اجلال ٠

« هنا فى مصر ٠٠ كم يعرف الشيوخ ما سوف يلقون من محبة الشباب وعواطفهم واحترامهم ! ولذا فانهم هنا لا يلجأون الى تلك الحيل التى لا تجدى لتفـادى ما تعـده لهم الايام حـين يصـيرون شيوخا ، بل أنهم على العكس من هذا يتباهون بخطوط السن التى تغضن وجوههم ، ويعرفون أن لحاهم البيضاء هى سبعث الاحترام

المهيب ، ويتخذون من الملابس ما يتسق مع كرامة ووقار أعمارهم ، وكل شيء فيهم يفصح عن المهابة والاهمية ..

« اذا تكلموا أنصت الجميع لما يقولون فى أحترام شديد ،وليست أقوالهم بالاقوال السخيفة التافهة ، ولا هم يستشعرون مطلقا تلك المرارة التى تقطر بها عادة سنوات العجز والشيخوخة » .

● ● ●

ويمضي جلبير دى شابرول فيقول عن كبير العائلة المصرية :
« والشيخ العجوز هو الحكم الطبيعى الذى يفصل فى المنازعات الصغيرة التي تنشأ بين أفراد أسرته ، وما يقضى به حكم تلتزم به كافة الاطراف بلا تردد ، كما لو أنها حكمة مقدسة تلك التى جاءت على لسانه ..

« ويترجم العرب كلمة VIEILLARD أى المسن أو العجوز ، بكلمة « شيخ » .. وهو لقب شرف بمعنى السيادة . فالمشايخ هم الذين يحكمون العائلات والقبائل ، ولهم على النفوس سطوة تماثل سلطة الحكام ، والكلمة الاولى فى كل العائلات المصرية للاكبر سنا .. وهو الذى يتقدم فى الاحتفالات العامة ، وله مركز الصدارة فى المجالس ، ويقف الناس جميعا عند قدومه ، وأمامه يتحفظ الشباب ، وهو الجموح بطبعه ، وينضبط .. وينصت بشغف واحترام الى ما يقصونه من حكايات ، ويجد فى أحاديثهم ما يرضيه .

« ان احترام الشيخوخة بالغ القدم فعلا فى مصر ، كما تشهد بذلك نصوص عديدة من الكتابات المقدسة .. وقد ازداد هذا التقليد صرامة بفعل سطوة التقاليد العربية حيث الصولجان معقود للسلطة الابوية التى يبدو أن طبيعة الحياة نفسها تفرضه على الجميع . وهو نفس ما كان يحدث فى مصر القديمة عندما كانت مزدهرة .

« أما السبب الذى ظلت بفضله هذه الفضيلة الحميدة بعيدة عن أى تغيير ، فهو أن الشعوب التى تمارسها لا تعانى من ذلك الفساد الروحى والاخلاقى الذى تعانى منه عادة المجتمعات الكبيرة ، وتجد سعادتها فى المباهج الطبيعية ، ونادرا ما تبحث عن هذه المباهج بعيدا عما يجرى فى حياتها الداخلية .

ان أبناء هذه الشعوب سعداء فى جهالتهم ، فلئن كانوا محرومين

من المميزات التى تهيئها المدنية عادة ، الا أنهم بعيدون عن المساوىء التى تجرها المدنية معها ..

« واذا كانت أوربا هى وطن الفنون والعــلوم ، ومسرح ملذات الشباب ومغامراته ، فان الشرق ـ ومصر بوجــه خاص ـ هى على نحو ما جنة الشيوخ » .

● ● ●

هذا ما كتبه جلبير واثنان من الفرنسيين عاشوا فى مصر ردحا من الزمن فى أواخر القرن الثامن عشر .. فهل لاتزال هذه « الفضيلة الحميدة المتأصلة فى نفوسنا عبر الاجيال الطويلة ، والتى رسختها فى مشاعرنا تعاليم الاديان وصانتها شرائع الله ـ هل لاتزال مسيطرة على المجتمع المصرى فى القرية وفى المدينة أيضا ؟ .. أم أن تلك الشجرة الباسقة فى أرضنا ، والتى كانت تسترعى أنظار القادمين من أوربا . قد عصفت بها رياح «المدنية» وعصفت بها حياة «المدينة» الكبيرة المزدحمة ، فصار واجبا علينا أن نعــود فنروى ما بقى من جذورها ونتعهدها ، حتى تنمو وترتفع مرة أخرى ، علامة واضحة . ومميزة للمجتمع المصرى وللعائلة المصرية .

# شخصيّة « الفهلوى »

قطعنا شوطا غير قصير فى الحديث عن فضائل مصر ، وحضارة مصر وعراقتها ، وعن طبائع المصريين وأخلاقهم . وما فيها من جوانب طيبة أصيلة . فكان حديثنا متعدد الجوانب عن النواحى الايجابية فى الشخصية المصرية .

ولكن .. هل الشخصية المصرية خالصة صافية ، كل عناصرها وكل جوانبها تتميز بالايجابية . وتخلو خلوا تاما من العناصر والجوانب السلبية ؟

كلا ! .. فان شأنها شأن كل شخصية قومية أخرى .. فيها الطيب والسيىء ، فيها الجميل والقبيح .. فيها الايجابيات وفيها السلبيات .

الا أننا نحن المصريين نحب دائما أن نسمع المديح فى أنفسنا ، ويسيئنا ، ويغيظنا ، ويستثيرنا أن نسمع شيئا من النقد أو الذم مهما كان صادقا ونزيها ..

نحب أن نسمع المديح فى أنفسنا .. بل أكثر من هذا .. اننا نحب أن نمدح أنفسنا بأنفسنا .. ونتغنى بهذا المديح والثناء .. وأغانينا حافلة بهذا ، ولعلنا نبرز الامم الاخرى فى كمية الاغانى التى نمدح بها أنفسنا .

ولا عيب فى هذا .. على شرط أن نفسح مكانا فى مشاعرنا لسماع كلمة نقد ، اذا كانت صادقة ونزيهة ..

●●●

وحب المديح ، وكراهة النقد ، هو في حد ذاته من عيوبنا الظاهرة ، واحدى نقط الضعف في شخصيتنا القومية .. نحب المديح ونكره النقد لاننا راضون عن أنفسنا ، ورضى الفرد عن نفسه ، ورضى الامة عن نفسها ، غالبا ما تكون له آثار سيئة على المدى الطويل .

رضى الفرد عن نفسه غالبا ما يكون سببا في غروره الشخصي ، أو في خموله .. سببا في غروره لانه يعتبر نفسه مثلا للكمال ، وان اله أن يتعالى على غيره من الناس .. أو سببا في خموله لانه راض بما هو عليه ، لايحتاج الى مزيد من تعلم أو تقدم أو تحسن ، فلا يقبل أن يغير ما بنفسه من عادة سيئة ، أو يهذب خلقا يتطلب التهذيب !

وكذلك الامة ، اذا سرى فيها الشعور بالرضا عن نفسها ، أصابها الخمول والجمود ، أو أصابها الغرور والتعالى .. وكلاهما نقيصة ومصيبة ..

الخمول والجمود ، نقيصة ومصيبة ، عرفناها على مدى مراحل طويلة من التاريخ .. وكذلك غرور الامة بنفسها ، فانه يجعلها مطمئنة على نفسها بينما الاخطار تطل عليها وتحيط بها .. ويجعلها متعالية على غيرها ، وخاصة على جيرانها الاقربين .. ألا ترى ان أكثر النكت المصرية عن الغفلة والغباء ، وحول المغفلين والاغبياء ، تدور حول الشعوب المجاورة لمصر شرقا وشمالا وجنوبا ؟! .. بينما الامم الواعية، الذكية ، المدبرة ، هى التي تحرص على حسن العلاقات بغيرها من الامم ، وخاصة بمن كانوا منها في موضع الجوار والقربى!

● ● ●

نحن لا نحب أن نسمع ذما ولا نقدا .. بل نحب أن نسمع دواما المديح والثناء .. نسمعه من أنفسنا ، قبل أن نسمعه من غيرنا !

ونحب على الاخص أن نسمعه من أدبائنا وشعرائنا ، وأيضا من زعمائنا ..

أحبهم الينا هم من يغدقون المديح علينا ، وعلى فضائلنا وأخلاقنا ، وأصالتنا وعراقتنا .. ان كلامهم في هذا ، أدبا

وشعرا وخطابة ، يجد منا آذانا مفتوحة ، وصدورا مشروحة، ورءوسا تهتز موافقة واعجابا ..

أما اذا قام أحدهم يحدثنا عن عيب أو نقص فينا ، ثقل علينا كلامه .. وكرهناه في قرارة نفوسنا .. ووصفناه ، سرا أو جهارا ، بقلة الادب ، وبجلافة الطبع !

●●●

وكل أمة ، شأنها شأن الفرد ، تحب شيئا من المديح .. أو من التشجيع .

ولكن الاسراف في هذا سيىء ، وضار ..

فلابد من شيء من التوازن بين الثناء والنقد .. أو بين الرغبة فى اشاعة الثقة فى النفس ، وبين العمل على التبصير والتحذير ..

فلنتغلب الآن ولو قليلا على هذا الجانب السلبى في طبيعتنا ونحن نقرأ بحثا اجتماعيا عن أبرز سلبية فى الشخصية المصرية .

صاحب هذا البحث الاجتماعى هو الدكتور حامد عمار ، وقد ضمنه في كتابه « فى بناء البشر : دراسات فى التفكير الحضارى والفكر التربوى » ..

وقد لخص سلبيات الشخصية المصرية في كلمة عامية هى : الفهلوة ..

ووصف شخصية المصرى بأنها شخصية الفهلوى .

وقد لقى هذا الوصف ، داخل مصر ، كثيرا من الاعتراض والاستياء .. ولقى خارج مصر ، وعلى الاخص فى بعض الصحف الامريكية ، شيئا من الاهتمام والانتشار !

وسواء اختلفنا ، أو اتفقنا ، مع الدكتور حامد عمار فى بحثه الاجتماعى ، فمن واجبنا أن نقرأ ما كتب ، لاننا نريد أن نلم بجوانب الشخصية المصرية ، الايجابية والسلبية منها على السواء .

لكل مجتمع نمط اجتماعي لشخصيات أفراده ، ولا يقصد بهذا النمط جملة من الصفات المعينة، وانما هو استجابات مقننة ، متواترة ، في مواقف معروفة تتكرر في حياة هذا المجتمع ·

وأزعم أن النمط الاجتماعي لشخصية المصرى هو الذى اختار له لفظ « الفهلوى » ·· وان مظاهر السلوك والقيم لهذا النمط ، في مختلف المواقف والعلاقات الاجتماعية قد تكونت نتيجة لتضافر الابعاد التاريخية والاقتصادية والاجتماعية التى جعلت منها التكييف السوى الناجح لمواجهة ظروف الحياة المصرية في عصور التاريخ ·

فما مقومات هذا النمط ؟ وما مظاهر سلوكه ؟ وما هى قيمة واتجاهاته ؟

● **التكيف السريع :**

لاشك أن أول مظهر من مظاهر سلوك « الفهلوى » قدرته على التكيف السريع لمختلف المواقف ، وادراك ما تتطلبه من استجابات مرغوبة ، والتصرف وفقا لمقتضياتها الى الحد الذى يراه مناسبا ·

أليس « الفهلوى » هو الذى يستطيع أن يخالط « الجن الاحمر » ويعايش في نفس الوقت « ملائكة السماء والارض » دون أن يجد في ذلك غضاضة أو دون أن يتطلب هذا منه جهدا جهيدا ؟

واستطاع المصرى بفضل هذه السرعة في التكيف أن يتقبل الامور الجديدة في كثير من الاحيان دون ارتباك أو حيرة · ومظاهر حياتنا المادية والاجتماعية والروحية تدل على هذه القدرة الفائقة في الالتقاط والاحتضان ·

كان الفلاح المصرى معتادا على زراعة الحبوب لقرون طويلة ، ومع ذلك أقبل على زراعة القطن ، ثم القصب ، ثم الفاكهة ، حين أدرك قيمتها المادية ·

وحين أحس المصرى بأهمية التعليم المدنى الحديث أخذ يقبل عليه اقبالا ملحا بعد أن تشكك فى قيمته أول الامر ·

كذلك كان لمصر فى تاريخها الدينى شأن مع الموسوية ، واحتمت المسيحية الناشئة فى القرنين الثانى والثالث الميلادى فى صحارى مصر ومعابدها من عسف الرومان واضطهادهم ، ثم جاءها الاســلام فاحتضنته ، كما احتضنت لغة قرآنه على نحو لا تزال تفاصيله من أسرار التاريخ ·

وتزاوج المصرى مع عشيرة من الاجناس الفاتحة أو المغلوبة على أمرها دون أن يجد فى ذلك حرجا ، ودون أن ينقص هذا من كبريائه، واستمتعت اخلاط هذه العناصر بمقومات الحياة المصرية ، فأكلت الفول المدمس والحلاوة الطحينية وجلست على المقاهى واستمعت الى الموسيقى والاغانى المصرية الصحيحة ·

بيد أن هذه القدرة على التكيف السريع تتميز بجانبين متلازمين : أحدهما المرونة والفطنة والقابلية لهضم الجديد وتمثله ، والآخر هو المسايرة السطحية والمجاملة العابرة التى يقصد منها تغطية الموقف واخفاء المشاعر الحقيقية ، وكل ما يندرج تحت مضمون عبارة « أهو كلام » ·· أو « فك مجلس » ·· مما لايعنى الارتباط الحقيقى بما يقوله المرء ، وبما قد يقوم به من مظاهر سلوكية ·

ولاشك أن أوضاع مصر السياسية فى طول تاريخها وعرضه قد أدت الى ايجاد هذا العنصر فى النمط الاجتماعى للشخصية المصرية، فقد تعاقب على حكم مصر فى تاريخها القديم والحديث حكام وولاة وسلاطين وملوك ، وكان على الشعب أن يذعن لمشيئتهم جميعا وألا تعرض لالوان مختلفة من العقاب والنقمة ، وأصبح هذا التكيف السطحى فى مثل هذه المواقف ضرورة من ضرورات البقاء فى ظروف متغيرة لا ضابط لها ولا مقدر لعواقبها ·

ولعـــل من أتفه الامثلة على ذلك ما كان يقوم به المحتسب أيام الدولة المملوكية مثلا من مناداة الناس بالاحتفال بشفاء السلطان من مرض . كما حدث عندما عوفى السلطان الناصر محمد بن قلاوون من كسر فى يده ، حيث استمرت الزينات اســـبوعا كاملا وظلت « الكوسات بالبشائر تضرب ، والطبول تدق ، ولم يبق أمير الا عمل فى بيته فرحا » على حد تعبير صاحب « السلوك فى أخلاق الملوك » ·

كذلك نادى المحتسب باقامة الزينات عندما شفى السلطان الغورى من رمد ألم بعينيه ·· وقد أسهب المقريزى فى وصف الاحتفال بهذه المناسبة ·

حقيقة كان على الشعب أن يفرح حين يراد له أن يفرح ، وأن يحزن حين يقضى عليه باصطناع مراسم الحزن ·

ثم أن تعاقب الحكام انما كان أمرا يعنى الطوائف المتنازعة على السلطان والنفوذ ·· أما الشعب فكان يقول : ان الدنيا لمن غلب فيصفق له ، وينعى على من دالت دولته ··

وضرورة هذا التكيف السطحي قد فتحت مجالا واسعا لجعله أداة من أدوات الوصول والانتهاز لفرص الحياة ، وغدا على مر الزمن وتوالى الاحداث عنصرا من عناصر « الفهلوة » استلزمته مواجهة ما أحاط بالفرد من ظروف وأحداث ·

## ● نكتة مواتية :

واستتبع هذا التكيف نكتة سريعة مواتية أيضا ، وغدت من خصائص الحياة التى يتصف بها النمط المصرى ·

وارتباط ذلك بما عاش فيه المصرى من حياة اجتماعية أمر يمكن ادراكه بوضوح اذا تذكرنا أنه لم يكن من المنتظر أن تمر بالمصرى تلك الاحداث المتعاقبة سراعا ، وتتقلب أمامه الامور تقلبا لم يعمل على احداثه أو لم يشارك فيه مشاركة فعالة ، دون أن يعلق على كل هذا تعليقا ساخرا مرا أحيانا ، ومتهكما أحيانا أخرى ··

ويظهر أن النكتة تحدث لديه ترضية ذاتية تريحه ، وتريح غيره حين يستمع اليها ، وتصرفه عن الموضوع أو الواقع فى حد ذاته · ومن ثم كان كثير من النكات المصرية البارعة تعويضا عما أصاب الشعب من كبت سياسى واجتماعى ·

ولا أريد أن أزعم هنا أن المصرى قد انفرد بالنكتة دون غيره من شعوب الارض ، وانما تميز قطعا بتنمية أفانينها ، والرغبة فى الاستمتاع بها ، كاحدى القيم المرغوبة فى تكوين الشخصية المصرية، ولاشك أن من أهم الوظائف التى قامت بها النكتة المصرية هى تغطية الموضوع ، وأخذه على المحمل الهين ، والانصراف عنه انصرافا يعفى الشخصية من التفكير الجدى فى واقعه ·· وكأن النكتة تنهى المشكلة أو هى فى حد ذاتها حل للمشكلة ·

## ● تأكيد الذات :

ومن مظاهر « الفهلوة » أيضا المبالغة فى تأكيد الذات ، والميل الملح الى اظهار القدرة الفائقة والتحكم فى الامور · وهنا يجب التفرقة بين الثقة بالنفس التى تنتج عن طمأنينة المرء الى نفسه والادراك المحكم للعلاقة بين القدرات الشخصية والمواقف الخارجية،

وبين تأكيد الذات الذى ينجم عن فقدان الطمأنينة وعدم الرغبة فى تقدير الموقف تقديرا عمليا موضوعيا ٠٠ هذا فضلا عن شعور حقيقى مستتر – لا يستطيع المرء أن يبوح به – بعدم الكفاءة والنقص أو العجز ازاء ما يضطرب فيه من مجالات ٠

والتكيف الذى ينتج عن مثل هذا التأكيد للذات قد يظهر فى صورة الاستهتار أحيانا ، والتهكم على الغير أحيانا أخرى ، أو فى القدرة البارعة المبدعة فى حل الامور وانجازها « هوا » أو « بجرة قلم » ٠٠

فالافراط والمبالغة والتزيد من سمات تأكيد الذات ٠٠ ومسألة المظاهر الخارجية من قبيل تأكيد الذات ٠٠ وما يعرف عادة « بالقنزحة » فى السلوك والكلام هى من مظاهر تأكيد الذات أيضا ٠٠ وكل هذه من مظاهر وعناصر شخصية « الفهلوى » ٠

ولعل كثيرا مما يعرف من البذخ فى « العزائم » أو أهمية « الانطباعات الاولى » أو التأكيد على مسائل « الكرامة الشخصية » ٠٠ أو الاهتمام بالطقوس فى الافراح والمآتم ، وكل ما يتصل بمجال « واجهة الشخصية » فى مجال الفرد أو الجماعة ، تنبعث جميعها من الرغبة فى تأكيد الذات وما تقمصته من تنظيمات وأساليب ٠

وليس غريبا أن تكون « الكلمة الحلوة » من أهم الوسائل التى يعتبرها المصرى كفيلة بأن تأسر غيره فى نوع العلاقات المباشرة وجها لوجه ٠

كما أنه ليس من الغريب أيضا أن تكون القدرة على تجريح الغير والتعريض به « والتريقة » عليه فى غيابه ، من الصفات التى تستهوى السامعين ، وتجعل ممن يصطنعها موضع الاعجاب ٠٠ فالتهوين من قدر الآخرين ومن قيمة أعمالهم هو الجانب السلبى لتأكيد الذات ٠٠ فان الذى « لايعجبه العجب ولا الصيام فى رجب » هو وحده الذى يفهم ، وهو وحده القادر الذى لا تخفى عنه خفايا الامور ، وهو وحده الذى يستطيع أن « يجيب السبع من ديله » ٠

ولعل هذا الجانب السلبى فى تأكيد الذات قد انعكس فى كثير من قصص جحا المصرية ، فالمتأمل فى نوادره ونكاته يلحظ أنه رغم ضعفه ، وطيبة قلبه ، يستطيع فى نهاية الامر أن « يضحك » على الناس وأن ينتصر عليهم وأن يظهر جهلهم ويفضح غباءهم ٠٠

والواقع أن جانب التهكم وتجريح الغير هو الجانب الثانى للبراعة والحذق والقدرة الشخصية فى مقومات تأكيد الذات ٠

## ● نظرة خيالية الى المساواة :

وقد أدت الرغبة في تأكيد الذات الى نظرة رومانتيكية للمساواة كقيمة من القيم الهامة في المجتمع المصرى ، حيث يشعر الفرد فى قرارة نفسه بالنقمة والسخط على الاوضاع التى توجد التمايز والتفرقة أيا كان نوعها ، ومهما تكن دوافعها ومبرراتها .

ويتصل بهذا عدم الاعتراف بالسلطة أو الرئاسة والتنكر لها فى أعماق الشعور ، وذلك على الرغم من تلك المسوح الخارجية التى يتخذها الناس ازاء الرؤساء من عبارات التفخيم وطقوس الاحترام ، فان ذلك في معظم الحالات يخفي شعورا بالامتعاض تدل عليه عبارة « فلان عامل ريس » !

والفهلوى لا ينظر الى السلطة أو الرئاسة على أنها ضرورة من ضرورات التنظيم يتطلبها توزيع المسئوليات وتحمل الاعباء في التنظيم الاجتماعي والادارى ، وانما هى فى نظره قوة قاهرة يذعن لها المرء لما تبعثه فى النفس من الهيبة والخوف . وهو لا ينتظر من السلطة المقتدرة أى نوع من الالفة أو رفع الكلفة ، بل يتوقع أن يجدها حازمة صارمة ، كأنما هذا من طبيعة الحكم والسلطان .

ولا شك أن الخوف من السلطة أو هيبتها من الامور التى طبعتها الظروف التاريخية في شخصية المصرى نتيجة لمكانة الحاكم واستجابة المحكومين . وقد أشار الجبرتي حين وصف شعور الاهالى نحو الملتزمين بجمع الضرائب الى أن الفلاحين كانوا يهابون الملتزم القوى « أما اذا التزم بهم ذو رحمة ، ازدروه في أعينهم ، واستهانوا به وبخدمه ، وماطلوه وسموه بأسماء النساء » .

واستمرت تقاليد الحكم فى أسرة محمد على وفى عصر الاحتلال البريطانى مؤكدة لهذه النظرة نحو السلطة والحكم، يلوح الحاكم باحدى يديه الى قلة من الناس بالامل ، ويستثير باليد الاخرى الخوف فى الغالبية العظمى من الشعب .. ( كما أشار الى هذا الكاتب الامريكى مورو بيرجر فى كتابه عن الوظائف العليا في مصر ) .

## ● الازاحة .. والاسقاط :

ومن أهم المعدات النفسية التى تتزود بها شخصية الفهلوى هى عملية « الازاحة والاسقاط » . وبفضل ازاحة المسئولية عن نفسه الى غيره من الناس ، وباسقاطها على أمور خارج نطاق الذات ، يتيسر تبرير ما قد يقع فيه المرء من مواقف محرجة أو تقصير فى المسئوليات الاجتماعية ، وتزداد « الفهلوة » بازدياد القدرة على اتقان هذه

العمليات الازاحية ، والاسقاطية ·· وعلى هذا النحو تكون تأدية المرء لعمله أو واجبه بدافع الطمع فى الجزاء أو الخوف من العقبات، وليس بدافع « تحقيق الذات » عن طريق العمل الاجتماعى المنتج ·

ولعل من أهم مظاهر هذا الاسقاط ما يتردد « على الألسنة من شكوى الزمان ، والقاء التبعة دائما على الحكومة ·· أو على الادارة ، أو على أية قوة خارجية » وكثيرا ما نسمع من موظفي الحكومة بمختلف طوائفهم انتقادا للحكومة ، وكأنما الحكومة مكونة من ناس غيرهم !

ومثل هذا الاسقاط عملية من العمليات النفسية العـــامة فى الجنس البشرى ، لكنها تختلف فى كمها ودرجتها حسبما يتطلبه التكيف للمواقف الاجتماعية . ونجد هنا أن الظروف الاجتماعية والسياسية التى عاش فيها المصرى آلاف السنين جعلت تكيفه يعتمد الى حد كبير جدا على أداة الاسقاط أو الازاحة النفسية ·· فالدنيا فى نظره دول ، وللايام تصريف ·

● **الاطمئنان الى العمل الفردى :**

ومن مظاهر الشخصية الفهلوية الطمأنينة الى العمل الفردى ، وايثاره على العمل الجماعى ·

وليس هذا من قبيل الانانية لمجرد الانانية ، وانما هو تأكيد للذات من ناحية ، وانصراف عن احتكاك الذات بغيرها ، مما قد يعرضها لمواقف تنكشف فيها ، أو لا تطمئن اليها ، أو تذوب فيها شخصية الفرد فى شخصية الآخرين ·

ولعل ضغوط المجتمع فى مؤسساته المختلفة ·· قد كونت رغبة مضادة فى الاتجاه نحو الفردية الجامحة وايثارها على الانضواء فى قيود الجماعة كلما استطاع المرء الى ذلك سبيلا · واذا كان لابد من العمل الجماعى فلا بأس من الموافقة الشكلية ، من قبيل المجاملة ، دون التزام حقيقى بما تتطلبه المسئولية الجماعية · ولاشك أن « روح الفريق » ومعرفة دور المرء فى المجموعة ، والقيام بهذا الدور الذى يعتبر تنفيذه جزءا من تحقيق الهدف العام ، الى جانب روح الولاء للجماعة واحترام دستورها رغم ما قد يكون للفرد من اختلاف شخصى أو وجهة نظر خاصة ··

كل هذا من المشكلات الرئيسية التى تصادفنا فى كثير من مرافق حياتنا ، بل انها أصبحت جزءا من تنظيمات حياتنا المعترف بها ! ·· وفى المثل العامى « قدرة الشرك ما تفورش » ( أى طهى الطعام لا يتم اذا اشترك فيه أكثر من واحد ! ) ·· ومثل آخر « حصيرة ملك ، ولا بيت شرك » !

ولعل من أهم أسباب هذا الايثار للعمل الفردى عدم اتاحة الفرصة للجماعة في مصر أن تستكمل أطراف أى عمل جمعي ، وأن يشعر أفرادها بأنهم قاموا كجماعة بعمل ناجح اشـــتركوا فى خطتــه ، وأسهموا فى تنفيذه ، واستمتعوا بنتائجه · وانما سار التنظيم الاجتماعي والسياسي الذى عاش فيه المصرى على أن الامور تدار وفق « الارادة السنية » ·· أو تأتي من قبيل « الهبات أو الاحسان » أو غير ذلك من الصور · ومن شأن النجاح فى العمل الجماعي أن يشعر أفراد الجماعة بالطمأنينة والثقة بالنفس ، وبقيمة منهج العمل الجماعى كأداة فعالة مثمرة لتماسك الجماعة ولصـــالح الافراد أنفسهم ·

## ● أقصر الطرق :

ويتصل بهذه النزعة في الاطمئنان الى « الفردية » الرغبة في الوصول الى الهدف بأقصر الطرق وأسرعها ، وعدم الاعتراف بالمسالك الطبيعية ·· وقد يؤدى هذا أحيانا الى الحماس والاقدام والاستهانة بالصعاب مما ييسر على المرء تخطى الحواجز وبلوغ الهدف ، ولكنه فى أحيان أخرى قد يؤدى الى استهلاك الحماس وانطفاء اللهب وفتور الهمة اذا استدعى الامر المثابرة أو المصابرة · فكثيرا ما نسمع من طلابنا ، بل نذكر نحن من أيام تلمذتنا ، عدم الاعتراف بالمذاكرة كوسيلة طبيعية للنجاح فى الامتحانات ، وأن « الفهلوى » هو الذى ينجح دون التزام للعناء الذى يتطلبه التحصيل ·· ونعرف أن صناعنا ، رغم حذقهم ومهارتهم ، ينقصهم فى انتاجهم شيء من المعاناة فى « التشطيب » لو توفروا عليه لبلغوا الغاية فى الانتاج الفنى ·· كما أنه من السهل أيضا اثارة الناس وتحميسهم لفكرة معينة والبدء فى تنفيذها ، ولكن الاستمرار فيها ورعايتها أمر صعب ·

●●●

ويختتم الدكتور حامد عمار بحثه الاجتماعي بكلمة « تحفظ تقتضيه الموضوعية » ·· فيقول :

هذه لمحات عن بعض مقومات النمط الاجتماعي لشخصية «الفهلوى» لا يمكن اعتبارها كاملة أو شاملة ·· فهناك عناصر أخرى كثيرة منها مقومات الرجـــولة والشرف ومفاهيمها ، وموقف الفهلوى من الامور الجديدة والمستحدثات ، وموقفه من الانتاج والعمل ، وغير ذلك من العناصر والمواقف التى تحتاج الى تحليل أعمق ··

ولا أزعم أن ما أوردت من حقائق أمور ثابتة لا يختلف عليها إثنان

أو أنني قد وصلت اليها عن طريق استقصائي شامل ، وانما هي خطرات استخلصتها عن طريق الملاحظة والمشاركة في صميم الحياة، في ضوء فروض معينة ، وربما ملت فيها نحو مواطن الضعف أكثر من مواطن القوة .

ويتضح من هذا العرض لمقومات « الفهلوى » انها كانت وليدة الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وأنواع المؤسسات والنظم التي ترتب كيان المجتمع . وأنها ليست مقومات طبيعية في المصرى نشأت ونمت وستظل هي مقوماته أبدا ، وانما هي قابلة للتغيير والتحوير مادمنا نؤمن بما يقرره العلم والتاريخ ، بأن الانسان قابل للتعلم . وقادر على تعديل سلوكه . وقد تعدلت نعلا بعض قيم هذا النمط واتجاهاته في النمو الاجتماعي الجديد .

ان الاتجاه نحو نمط للشخصية المصرية الجديدة ، يطلق عليه الباحث الاجتماعي ، اسم « الشخصية المنتجة » .. التي يفرد لها بحثا آخر في كتابه « في بناء البشر : دراسات في التغيير الحضاري والفكر التربوي » .



**رأيت أن أختم هذا الكتاب خاتمة حسنة .. أن أختمه بحديث عن المرأة المصرية .. انه حديث متشعب .. يعرضه الدكتور سيد عويس الباحث الاجتماعى الذى وضع كثيرا من الدراسات عن عدد من الظواهر الاجتماعية المصرية وضمن بعض هذه الدراسات فى كتابه « حديث عن المرأة المصرية ، دراسة ثقافية واجتماعية » .**

# وأخيرا ..

# حديث عن المرأة المصرية

## ● عهد من الطهطاوى

يقول الدكتور سيد عويس فى فصل قدم فيه كتابه ، وجال فيه جولة واسعة فى عالم الثقافة والاجتماع أن الذى حفزه الى الكتابة فى موضوع المرأة المصرية هو العلامة رفاعة رافع الطهطاوى .
« فقد وقفت طويلا أمام اهتمام الطهطاوى بالمرأة المصرية منذ أكثر من مائة عام – فى كتابه ( المرشد الامين ) الذى طبع عام ١٨٧٢ – وبخاصة مطالبته بالمساواة للمرأة على أسس علمية .. اذ يقول :

فاذا أمعن العاقل النظر فى هيئة الرجل والمرأة ، فى أى وجه من الوجوه ، فى أى نسبة من النسب ، لم يجد الا فرقا يسيرا يظهر فى الذكورة والانوثة وما يتعلق بهما .. فالذكورة والانوثة هما موضع التباين والتضاد ..

« واذا كان الطهطاوى يقف الى جانب المرأة المصريه منذ ذلك التاريخ وكان داعية الى مساواة المرأة بالرجل فانه كان لا يقول ذلك بلسانه فقط وانما كان يعمل بما يقول .. فقد عثر على وثيقة فى دار المحفوظات كتبها الطهطاوى بخطه ، ووقعها بامضائه ، وختمها بخاتمه .. وقد سجل هذه الوثيقة الدكتور رفعت السعيد فى كتابه « تاريخ الفكر الاشتراكى فى مصر » وهذا نصها :
« التزم كاتب هذه الاحرف رفاعة بدوى رافع ، لبنت خاله المصرية

الحاجة كريمة بنت العلامة الشيخ محمد فرغلى الانصارى ، أنه يبقى معها وحدها على الزوجية دون غيرها من زوجة أخرى ، ولا جارية أيا كانت ، وعلق عصمتها ( أى حقها فى الطلاق ) على أخذ غيرها من نساء ، أو تمتع بجارية أخرى . فان تزوج أيا من كانت .. كانت بنت خاله بمجرد العقد ، طالقة بالثلاثة ، وكذلك اذا تمتع بجارية ملك يمين .. فقد وعدها وعدا صحيحا ، ولا ينتقص ولا يخل ، انها مادامت معه على المحبة المعهودة ، مقيمة على الامانة والعهد لبيتها ولاولادها ولخدمها وجواريها ، ساكنة معه فى محل سكناه ، لا يتزوج بغيرها أصلا ، ولا يخرجها من عصمته ، حتى يقضى الله لاحدهما بقضاء .. »

هذه الوثيقة فى غنى عن أى تعليق .. ولعل الطهطاوى يقف بهذه الوثيقة شامخا أمام التاريخ ، أذ يقف موقفا فريدا ، فى زمانه وفى بيئته موقفا فريدا فى اكبار مكانة الزوجة ، وفى الايمان بحق المرأة فى المساواة .. انه يحرم على نفسه تعدد الزوجات ، بل ويحرم نفسه من حق الطلاق مادامت زوجته على العهد باقية ، وللامانة الزوجية مؤدية ..

بل ان الوثيقة تشير الى ملمح هام من ملامح خلق هذا الرائد العظيم ، فالرجل كان يعيش فى عصر لم يكن الرق قد حرم فيه ، وفى منزله كان يوجد الرقيق ، عبيدا وأماء ، وكان التفسير السائد للشريعة الاسلامية يبيح للرجل التمتع والاستمتاع كما يشاء بما يملك من الجوارى ، ومع ذلك كله نجد الطهطاوى يحرم على نفسه هذا الاستمتاع ، ويخلص فى وحدانية الحب ، لزوجته الواحدة .

ثم يقتبس المؤلف من الشيخ رفاعة الطهطاوى كلمات عن الحب ، والزواج ، وفن ارضاء كل من الزوجين للآخر .. وهى كلمات يعجب الانسان من ان هذا الرجل الذى ولد فى طهطا فى أقاصى الصعيد وتعلم وتدرج فى الازهر وبين شيوخه فى زمن سبقته عصور طويلة من الجمود الفكرى ومن التدهور الاجتماعى .. يعجب أن هذا الرجل يقول مثلا :

× « من أحسن الاحسان الى البنات تزويجهن الى من هوينه ، وأحببنه » .. فهو يدعو الى أن يكون الحب أساس الزواج ، لا أن يكون الزواج وفق ما تختاره الام أو يفرضه الاب .

× فمعرفة ارضاء أحد الزوجين للآخر (فن نفيس) وان كان صعبا فى حد ذاته ، لانه يستدعى كمال التربية . والاتصاف بالعدل ،

وقوة العقل وذكاء الفطنة ، واعتياد كل من الزوج والزوجة على تحسين أحوال المنزل المشترك بينهما ، وتنظيمه وتربيته وتنظيفه بقدر ما يمكن ومعرفة الاعتناء بالوسائل التى تستدعيها ( الصداقة ) بين الزوجين لاشتراكهما فى المنفعة العمومية ..

× ويتحدث عن ( الصداقة ) بين الزوجين مرة أخرى فيقول ان « العفة » هى أمانة كل من الزوجين لصاحبه ، وهى فضيلة دقيقة ، تفيد الا يصدر من أحد الزوجين ما يخدش صـــداقته للآخر ، وفى الحقيقة أن وجود هذه الفضيلة ينبغى أن يحرص عليها ولو كانت عزيزة ..

● ● ●

هل اكتسب رفاعة الطهطاوى هذه الافكار المتقدمة فى أثناء دراسته فى فرنسا ؟ . لاشك فى أن الشيخ رفاعة كان معجبا بالحضارة الاوربية فى نواحيها المادية وأيضا فى كثير من جوانبها الاجتماعية والسياسية ، وقيامه بترجمة الدستور الفرنسى الذى أعلنته الثورة الفرنسية ، بل وبترجمة نشيد المارسيليز الذى كانت تهتف به جموع الشعب الفرنسى وهى تقتحم الباستيل وتقتحم القصر الملكى وترفع فوقهما علم الثورة ، دليلا على أن الطهطاوى أشرب كثيرا حب تلك المبادىء التى قامت عليها الحياة الاوربية فى تلك الايام .. ولكنى أشك فى أن هذا هو مصدر هذه الافكار المتقدمة عن حقوق المرأة وعن مكانتها والاغلب أن هذه الافكار ترجع الى طبيعة طيبة ، وخلق قويم ، وتربية كريمة ، تكونت منها شخصية الرائد العظيم .. هذا من ناحية ومن ناحيـــة أخرى .. فان احترام المرأة ، أما وزوجة وبنتا وأختا .. هو ( فضيلة مصرية ضميمة ) .. لها جذورها منذ أقدم العصور ، وقد رسخت هذه الجذور ونمت فى مراحل طويلة من التاريخ ، ولهذا لم تستطع أن تعصف بها وتقتلعها رياح التزمت والتخلف التى هبت عليها فى عصور الجمود والجهالة .

● ● ●

● **فضيلة مصرية صميمة**

ولنقرأ شيئا عن مفهوم المرأة فى التراث الثقافى المصرى ، لنستشف منه احساسا عميقا وعريقا فى النفس المصرية تجاه الزوجة ، وتجاه الحياة العائلية ، وتجاه المرأة ومكانتها فى المجتمع المصرى .

يضم كتاب الدكتور سيد عويس فصلا شائقا حول هذا . وهو يقصد بهذا الفصل التاريخى فى كتابه الاجتماعى أن يقول : ان ضعف مكانة المرأة المصرية فى العصر الحالى ، واستعلاء الرجل عليها فى المجتمع المصرى بوجه عام وفى طبقاته الشعبية بوجه خاص ، ليس

شيئا موروثا منذ القدم ، ولكنه يرجع الى عوامل ثقافية واجتماعية واقتصادية ، تتغير وتتطور ، وعلى وجه سريع ، فى هذه المرحلة المعاصرة .

أما قديما ، فان المؤلف يقول :

« ولكن نظرة الى العصور القديمة في ضوء الرسـوم التي تركت على القبور ، نلاحظ أن الحياة العائلية المصرية قد بلغت أكثر مما كان ينتظر لها من كمال . فالمرأة زوج الرجل وشريكته فى الحياة، لها ما له من حقوق وعليها ما عليه من واجبات . وليس فيما صور المصريون القدامى من نواحي حياتهم ما يشير الى هضم حقوق المرأة المصرية ، أو الغض من قيمتها ، وما بنا من حاجة الى الشك فيقيمة ما نرى لها من صور وآثار تشير الى مركزها فى الحياة ومكانتها فى المجتمع . فاننا لنراها الى جانب زوجها فى جد الحياة ولهوها ، ونراها وقد حنت عليه وانعطفت اليه ، حتى كادت أن تكون كلها حبا وحنانا ورحمة ، وانتشر من حولها أولادها ، وكان الاولاد فخر الابوين وبهجة الدنيا وزينتها وتشير ما حول صور المجتمع من نقوش ونصوص الى ما كان يسود جو الاسرة المصرية يومئذ من الحب الصادق والصفو والبر الخالص .

« وقد ظهرت العلاقة الزوجية كرباط مقدس منذ أقدم العصور فقد وصل الينا الكثير من ( عقود الزواج ) وما ورد بها من نصوص تقليدية ، وتتشابه معظمها من حيث الصيغة ، منها على سبيل المثال ما ورد في وثيقة ترجع الى الدولة الوسطى نصها :

« بما أن مشيئة الاله قد اقتضت أن يرتبط أحدنا بالآخر برباط الزواج المقدس الصحيح ، وفقا لتقاليد الرجل الحر والمرأة الفاضلة وقد وافق كل منا بمحض ارادته وكامل تصرفه وحرية اختياره ؛ لكي تجىء الى بيتي كامرأة حرة ، على أن أقدرك كأنك قطعة منى ، فلا أقلل من شأنك ، ولا أهملك ، ولا أهجرك .. الا اذا اضطرني سبب شرعي هام .. فاذا حدث ذلك فسأقوم باعطائك حقك الشرعي الذى أمر به الاله » .

« وفي بعض العقود كان ينص على ذلك التعويض نقدا أو عينا .. ولم يكن المهر معروفا عند الفراعنة الا فى الاسرات المتأخرة وفى عهد الرومان والبطالسة .. بل كان ينص فى كثير من العقود ان الزوجة التي تدفع ( دوطة ) يقصد بها ان الرجل لم يقم بشراء الزوجـــة

بماله ٠٠ أما تعدد الزوجات فقد اختلف فيه المؤرخـــون ، وذكر ولكنسون انه كان نادر الحصـــول ٠٠ وقد أجمعت وثائق الزواج التي وصلت الينا على أن الزواج الشرعي والقانوني كان مقصـورا على زوجة واحدة ٠

« اما الطلاق فقد نظمته الشرائع المصرية القـــديمة ووضعت له شروطه وقيوده وتبعاته ، كما أعطت لكل من الزوجـــين الحق في طلب الطلاق اذا أخل الآخر بالشروط والتعاليم الواردة في وثيقة الزواج ٠ وأقدم وثيقة طلاق في العالم وجدها البروفيســور فيشر بين لفائف برديات طيبة ، ويرجع تاريخها الى عصر بناة الاهرام ٠

« لقد هجرتك ولم تعد لى حقوق عليك كزوج ٠٠ ابحثى عن زوج غيرى لانني لا أستطيع الوقوف الى جانبك في أي منزل تذهبين اليه ٠٠ ولاحق لى عليك من اليوم فصاعدا باعتبارك زوجة لى وشريـكة لحياتي ٠٠ أذهبى في الحال بلا أبطاء أو تراخ » ٠٠ زوجك المطلق أمون حوتر ٠٠ وتحتها كتب ( المأذون ) توت أسمه ووقع معه أربعة شهود ٠٠ وختمها بختم التسجيل الرسمى ٠

● ● ●

## ● وصايا الاسلام والمسيحية

وتنتقل مصر الى عصر الاديان السماوية ،وتحتفظ المرأة بمكانتها وحقوقها ، فتعاليم المسيحية وقوانين الاسلام واضحة وصريحـة في صيانة حقوق الام والزوجـــة ، وفي اعزاز مـــكانة المرأة بالحب والاحترام ٠

قدسية الامومة ، شيء طبيعي يحس به في قرارة نفسه من يتتبع عن صدق دين المسيح بن مريم ٠٠ انه يولد وفوق مهـــده صورة العذراء تحمل ابنها عيسى عليه السلام ٠

وللزواج أيضا قداسته ٠٠ وفي الكتاب المقدس آيات تدل على أن المرأة تكمل الرجل ، كما ان الرجل يـــكمل المرأة ٠٠ « قال الرب الاله ليس جيدا أن يكون آدم وحده ، فاصنع له معينا نظيره » ٠٠ نظيره وهى كلمة تحمل معنى المساواة ، وتحمل روح التكامل ٠٠ اذ حقيقة الحياة الزوجية الصالحة تتلخص في هــذه الآية : « غير ان الرجل ليس من دون المرأة ، ولا المرأة من دون الرجل في الرب ، لانه كما ان المرأة هي من الرجل ، هكذا الرجل أيضا هو بالمرأة ، ولكن جميع الاشياء من الله » ٠

ويقول الانبا غريغوروس اسقف الثقافة القبطية والبحث العلمى:

فنحن لا نقر بضرب الزوجة من حيث المبدأ ، ولا نقر أن تسـاء معاملتها أو تهان كرامتها الانسانية ٠٠ على أنه اذا كانت الزوجة ناشزا ولم تكن مطيعة لزوجها ، كما يطلب الكتاب المقدس الذى يجعل الرجل رأسا للمرأة ، ولم ترع المرأة قدسية الحياة الزوجية ، أو اذا أساءت التصرف بما يسىء الى سمعة زوجها وسمعتها ، ففى هذه الحالة يجوز للرجل تأديبها كما يؤدب الاب أبنه أو ابنتـه ، خاصة أن الرجل عادة يكبر المرأة سنا ، فضلا عن انه سيد البيت ، ورب الاسرة ، ورأس المرأة » ٠

وجاء الاسلام الى مصر ٠٠ جاء يحمل هذه الوصايا وهذه القوانين:

« ووصينا الانسان بوالديه احسانا ، حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ، حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن اشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وان أعمل صالحا ترضاه واصلح لى فى ذريتى انى تبت اليك وانى من المسلمين » ٠

« ووصينا الانسان بوالديه ، حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك الى المصير » ٠

« وقضى ربك الا تعبدوا الا أياه وبالوالدين أحسانا ، أما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » ٠

أما حقوق الزوجة فى الدين الاسلامى فلعله لم يعد هناك شـك أو خلاف فى انها أكبر ، وأكرم ، من حقوق الزوجة حتى فى أرقى المجتمعات فى العصر الحديث ٠٠ بل ان حركات تحرير المرأة التى تقوم منذ سنوات فى أمريكا وأوربا لاتستهدف من ناحية الزوجـة أكثر مما قرره لها الدين الاسلامى منذ أربعة عشر قرنا ٠ فمن حق المرأة أن تختار زوجها ، وهى لاتفقد بزواجها اسمها ، ولا شخصيتها المدنية ، ولا أهليتها فى التعاقد ، ولا حقها فى الملكية ، ولا يضيع شىء من استقلالها المالى ٠

ومن حقوق الزوجة على زوجها العشرة بالمعروف والعدل وحقوقها الجنسية ، ومن حق الزوجة على زوجها أن يقوم بالانفاق عليها ٠٠ ولان الزواج مشاركة كاملة فى الحياة ، فقد جعـل الدين للزوج

حقوقا على زوجته ٠٠ هى القوامة على الاسرة ، والطلاق عند الضرورة وتعدد الزوجات بشروط ، والتهذيب عندما يكون التهـذيب لازما لها ولسمعتها ٠.

بعد هذا العرض الذى قدمه الدكتور سيد عـــويس نريد ان نتساءل : ونحاول أن نجيب ٠

نتساءل :

اذا كانت هذه هى وصايا الاديان وقوانينها . واذا كان هذا هو التراث القديم عن المرأة المصرية وحقوقها . فمتى ، وكيف ، تدهورت مكانة المرأة المصرية ٠٠ حتى صرنا نندهش من أن يكتب رفاعـــة الطهطاوى عن مساواة المرأة بالرجــل » ٠٠ وحتى كان قاسم أمين هدفا لهجوم شرس عنيف ، ولسخريات بذيئة ، عندما كتب كتابا اسمه « تحرير المرأة » وكتابا اخر اسمه (المرأة الجديدة) ٠٠ وحتى قامت الشاعرة ملك حفنى ناصف تدافع عن حقوق المرأة فى مقالات توقعها بأسمها المستعار ( باحثة البادية ) ، وحتى تصدى واضـــع أسس الاقتصاد المصرى الحديث ، طلعت حرب ، الى أن يشرع قلمه ويكتب هو ايضا دفاعا عن حقوق المرأة ؟ ٠٠ وما زالت الاصــوات تتصاعد ، حتى اليوم . للمطالبة بانصاف المرأة وبتحريرها ؟

متى ، وكيف ، تدهورت مكانة المرأة المصرية ؟

ويجيب على التساؤل

هناك ظاهرة اجتماعية عرفتها شتى الامم . فى شتى مراحـــل تطورها ، وهى ان حرية الرجل وحرية المرأة تتحركان ( حـــركة اطرادية ) ٠٠ اى تتقدمان الى الامام معا ، وتتأخران الى الوراء معا ٠

ففى المجتمعات التى تتركز فيها السلطة فى أيدى مجموعة قليلة من الافراد ، أو فى أيدى طبقة واحدة متميزة بالثروة وبالقـــوة . تعيش المرة مسلوبة الحقوق ، ضعيفة المكانة . تجاه أبيها وزوجهـا وابنها ٠٠ تماما مثلما يعيش الاب والزوج والابن جميعا مسلوبى الحقوق ، صغار المكانة ، تجاه الحاكم المستبد وتجاه السادة الاقوياء

وعلى النقيض من هذا المجتمعات التى تتسع فيها دائرة الحـــرية السياسية والديمقراطية ، والتى يستمتع فيها المواطن بحقـــوق سياسية ومدنية واسعة ، فان المرة تستمتع هى الاخرى بقدر كبير من حقوق الزوجية . وحقوق الامومة ، وتكون لها مكانتها وكرامتها فى المجتمع ٠

وتطبيقا لهذه القاعدة نجد ان المرأة المصرية لم تفقد حقوقها ولم تتدهور مكانتها الاجتماعية الا في عصر واحد من عصورها ، هو عصر الحكم التركي العثماني وما تخلله وما أعقبه من حكم المماليك .. وهي مرحلة طويلة من تاريخها أستبد فيها الحاكم التركي أو الحاكم المملوكي بالرجل المصرى .. فاستبد الرجل المصرى بدوره بابنته وزوجته .. وبأمه احيانا .

وفي هذه المرحلة عرفت مصر لاول مرة في تاريخها ، نظـــام ( الحريم ) وهو أقرب ما يكون الى نظام الرقيق .

وقد هوت المرأة المصرية ، حتى في أعلى الطبقات ، الى الحضيض وحرمت تماما من حريتها ومن حقوقها التى كفلها لها الاســلام .. فراحت تستنجد فيه باولياء الله ، وخاصة ( بقاضى الشريعة ) الامام الشافعي فترسل الخطابات اليهم وتعلقها على أضرحتهم . ليدفعـوا عنها ظلم الزوج أو عقوق الابناء .

وما تزال هناك اثار باقية لهذه العقلية في بعض أوساط القاهرة وفي ارجاء الريف . وقد تضمن كتاب الدكتور سيد عويس فصلا شائقا عن هذه الرسائل عرض فيه نصوص عددمن الخطاباتالمرسلة الى الامام الشافعي ، وعقب عليها بتحليل علمي اجتماعي .

وقد بدأت المرأة المصرية تستعيد حريتها ، وتنال الــكثير من حقوقها في نفس المرحلة التى بدأ فيها الرجل المصرىيسترد حريته وحقوقه السياسية. فكماغيرت ثورة سنة١٩١٩ ، ثم ثورة سنة١٩٥٢ الوضع السياسى للرجل المصرى ، فقد غيرت ايضا الوضع الاجتماعي للمرأة المصرية ، وهي أن كانت ما تزال تطالب بمزيد من الحقوق والضمانات ، وخاصة فيما يتعلق بالطلاق وعواقبه عليهـــا وعلى أولادها ، الا اننا نلاحظ ان التطور الثقافي والاجتماعي الذى سارت فيه الفتاة والسيدة في مصر ، في المرحلة المعاصرة ، قد وصل بها الى مكانة لا تختلف كثيرا ــ وخاصة في المركز الاجتماعي والاقتصادى عن مكانة الفتاة والسيدة في المجتمع الأوربى أو الامريكى .

# شرف لا ندعيه ..
# وتهمة لا ندفعها

يمكن ان توضع جميع عواصم الدول العربية داخل مدينة القاهرة !

وتوضع بغداد فى مثلث شمال شرقى القاهرة .

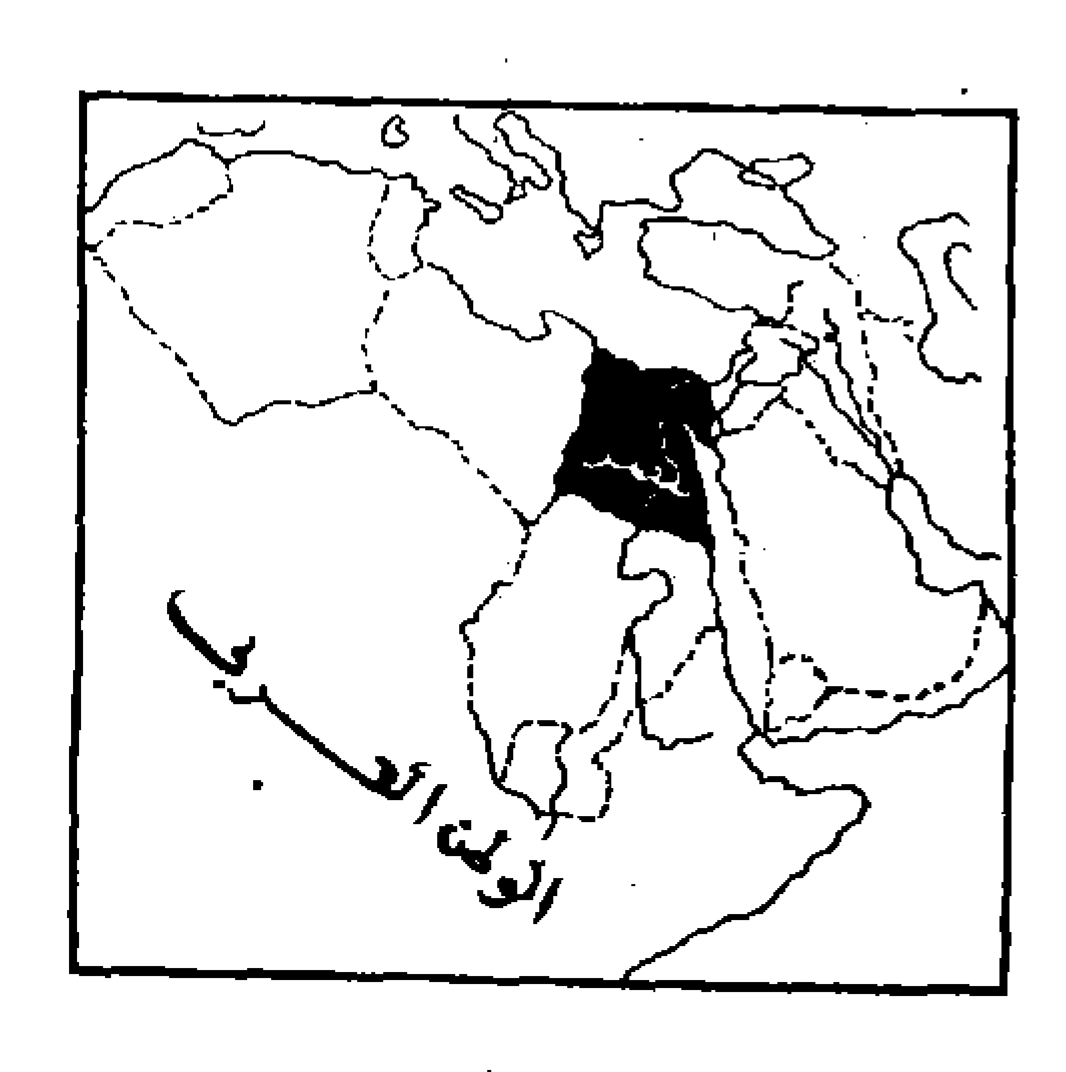
( مصر الجديدة والزيتون والمطرية ) .

وتوضع مدينة الجزائر فى كتلة شبرا الكبرى .

وتوضع الخرطوم فى حلوان .

وتوضع مدينة تونس فى الجيزة

وتوضع بقية العواصم العربية فى أرجاء القاهرة الاخرى : العباسية ، والدرب الاحمر ، وباب الشعرية ، والزمالك ، وجاردن سيتى الخ .



ان الذى يقول هذا ليس كاتبا ساخرا ، بل هو عالمنا الجغرافى الكبير الدكتور جمال حمدان فى كتابه الذى كان فى حجمه المتوسط عندما ظهر أول الامر ، ثم هو الآن فى حجمه الكبير الذى ظهر أخيرا ، أعمق دراسة علمية عن الشخصية المصرية وهو : « شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان »

ونلاحظ ان جمال حمدان فى كتابه هذا ، وفى كتبه الاخرى ، هو من اشد الناس اعتقادا بأن مصر تنتمى الى العالم العربى انتماء جغرافيا ، وحضاريا ، وسياسيا ، واقتصاديا ·· فى الماضى وفى الحاضر وفى المستقبل ·· وهو يقدم رأيه هذا عن تفكير وتحليل علمى يؤكد الحقائق ولكنه لا يغفل المشاكل والعقبات ، ولا يهون من التبعات والاعباء ·

واعتقاده العلمى بانتماء مصر عربيا هو الذى يجعله يحلل وجوه الاختلاف بين مصر وسائر العالم العربى · فيجد فى هذا الاختلاف نفسه عوامل وعناصر اخرى لاثبات هذا الانتماء وتدعيمه وتعميقه ·

انها صورة أخرى من التفكير العلمى تختلف وتتناقض مع الصورة التى قدمناها من كتابات الدكتور طه حسين والدكتور حسين مؤنس فضلا عن الدكتور حسين فوزى ·· ومن حقنا ، ومن واجبنا ان نطالع هذه الصوره جميعا ، ما يرضينا وما لا يرضينا ، فهى تعبر عن تيارات فكرية ، وشعبية ، ومختلفة ومتعارضة تجرف الساحة المصرية من حين الى حين ··

فلنقرأ معا من هذا الكتاب القيم صفحة عنوانها «بين الوطنية المصرية والقومية العربية »

أوضح الفروق بين مصر وبين جميع الدول العربية هو فرق الحجم ، أو كما يقول جمـــال حمدان « أن أول ما تنفرد به مصر الضخامة ·· ضخامة الحجم التى تجعل منها حجرا شامخا ، وهى حقيقة أدركها وأحس بها دائما جيرانها طوال التاريخ قديما وحديثا » · وهذه هى بعض البيانات :

مصر وحدها اليوم ثلث العرب أو أكثر قليلا ·· أربعون مليونا من مائة وثلاثين مليونا ·

وأكبر دولة عربية ، وهى الجزائر ، لا تبلغ نصف مصر عددا ·
وتسع دول عربية يقل عدد سكان كل منها عن سكان الاسكندرية ·
وثلاث دول عربية « كبيرة » يقل عدد سكان كل منها عن سكان القاهرة وحدها ··

ليس هذا فحسب · « فأن تكن مصر أضخم العرب الآن ، فانها تزداد ضخامة بينهم كل يوم ·· وهذا بسبب الخصوبة المتفاوتة ·· فان معدلات النمو السنوى فى مصر أعلى من معدلات العالم العربى ككل ·· رغم أن بعض الدول العربية تسجل الآن معدلات أعلى من مصر ، الا أن هذه من الدول صغيرة الحجم أساسا ·· ان معدل النمو المصرى يدور فى السنوات الاخيرة حول ٢ر٨ الى ٣ فى المائة ، بينما معدل النمو فى العالم العربى بصفة عامة يقدر بنحو ٢ فى المائة ·· ولهذا فان نصف الزيادة فى العالم العربى تأتى من مصر ، رغم أن حجمها السكانى حوالى الثلث · واذا استمرت معدلات النمو الراهنة ثابتة حتى نهاية هذا القرن ، فان نسبة المصريين بين العرب تكون قد زادت من ٢٧٪ سنة ١٩٦٥ الى حوالى ٣٥٪ فى سنة ٢٠٠٠ » ·

وحجم مصر فى العالم العربى يشبه حجم دول أخرى فى مناطق شتى من العالم « والواقع أن هناك نمطا خاصا يتكرر كالقـــاعدة

العامة فى توزيع الكتل البشرية على وجه الارض بصفة عامة ، هو نمط الدولة الاولى ‥ ففى كل محيط جغرافى واسع نجد عادة دولة ضخمة الحجم تحيط بهاكوكبة من الدول الصغرى نسبيا ، ولا تملك هذه الا أن تشعر بثقل وزن الدولة الاولى سياسيا وحضاريا » ‥

« كالصين فى شرق آسيا ومن حولها وحدات الهند الصينية ووسط آسيا .

« كالاتحاد السوفيتى فى شرق أوربا ‥

« كألمانيا فى وسط أوربا .

« كالولايات المتحدة فى أمريكا الشمالية .

« كالبرازيل فى أمريكا الجنوبية .

« وهذا ما نجده فى المحيط العربى حيث تقف مصر كالدولة الاولى ومن حولها كوكبة شقيقاتها العربيات ، حتى نخرج الى محيط آخر خارج العالم العربى ، لكى نجد دولة كبيرة الحجم مثل ايران شرقا ، أو تركيا شمالا ، أو نيجيريا جنوبا .

« ولكن مصر لا تستمد ثقلها من الحجم وحده ، بل ومن تجانسها الشـــديد ، فوحدتها الجنسية واللغوية مطلقة ، وأقليتها الدينية تعد محدودة اذا قورنت ببعض البلاد العربيـــة الاخرى ، وكل من الاغلبية والاقلية على حدة لا يعرف التشـــيع أو التشرذم الطائفى ‥ والكل يؤلف وحدة وطنية على درجة نادرة من التماسك فى العـــالم العربى .

« ومصر هى البلد العربى الوحيد الذى لا يعرف القبائل ولا القبلية ولا مشاكلها السياسية والاجتماعية التقليدية .

« ولهذا فان مصر بتجانسها ووحدتها تتحرك ككتلة واحدة عادة دون أن تعرف الانقسامات ، والشـــظايا ، التى تفكك كثيرا من الشقيقات العربية ، بما يمنحها ثقلا فعالا ، ووقعا ، يزيد عن ثقل عدة وحدات صغيرة لها نفس مجموع حجمها .

« ولهذا كان الاستقرار السياسى فى مصر . سمة واضحة تتباين بسهولة مع أحوال الشرق العربى » .

« والنتيجة أن مصر أقوى قوة من العرب مرتين : مرة بمطلق حجمها ومرة بتجانسها المطلق » .

« والنتيجة أيضا هى أن مصر ، لهذا كله ، هى مركز الثقل ، وقطب القوة ، فى العالم العربى ‥ ينتشر ظلها ، وشبه الظل ، بل والصدى بعيدا فى آفاقه » .

وإذن ، فضخامة حجم مصر بالقياس الى الدول العربية الاخرى لا يمكن أن يكون حاجز خوف أوشك .. بل يجب أن يكون صلة اطمئنان واعتماد ، من جانب الوحدات العربية الملاصقة والبعيدة على السواء ..

هذه هي الحقيقة الثابتة التي لا تغيرها ظروف عابرة طارئة كالتي نراها في هذه الايام .

● ● ●

ويضرب الدكتور جمال حمدان عدة أمثلة من التاريخ المعاصر توضح أمام الاعين هذه الحقيقة الثابتة .

فمثلا « من الملاحظ أن مصر كانت أسبق الدول العربية الى المجال العالمي وأقدرها عليه ، فاذا قلنا أن كل دولة حديثة الاستقلال تجد نفسها في مرحلة تكوين سياستها في الاسرة الدولية أمام ثلاثة آفاق ، الدائرة المحلية ، والافق الاقليمي ، والمحيط الدولي فلعل مصر هي الوحيدة بين العرب التي اقتحمت الدائرة العالمية من قبل ، وأصبحت من محاورها ، مثلما أصبحت العالمية نفسها من محاور العمل المصري في المجتمع الدولي » .

ومثلا آخر « فالواقع أن كل الشعوب العربية ، وكل القوميين والمثقفين العرب المخلصين ، يؤمنون عن يقين بزعامة مصر ويبايعونها بلا تردد .. أما أن هذه الزعامة مشكلة اقليمية ومثار صراع ، فهذا لم يكن قط الا موقف الرجعيات الاسرية الحاكمة، والاقطاع السياسي، ومناورات ودسائس النفوذ الاجنبي من ورائهم .. وفي هذا السبيل أطلقوا سلسلة من الادعاءات والاتهامات لا تصمد للمناقشة الموضوعية الهادئة ، كما حاولوا أن يختلقوا زعامات اصطناعية مضادة ، ولكن دون جدوى كذلك .

« ومن هذه الادعاءات أن مصر أرادت في السنين الاخيرة أن تفرض زعامتها على العالم العربي .. انهم بهذا الادعاء يثيرون قضية مزيفة مفتعلة .. فان دور مصر القيادي والريادي في العالم العربي لم ينقطع أبدا حتى في الفترات التي كانت فيها الزعامة الشكلية الى غيرها من البلاد العربية ( مثلما كان الامر في مراحل تاريخية طويلة في الشام الاموي أو في العراق العباسي ) .. بل اننا نوشك أن نقول أن الزعامة العربية خارج مصر في تلك المراحل لم تكن في

جوهرها الا مرحلة تجريبية ، أو تجربة مرحلية ، عابرة وموقوتة .. قل .. كانت فترة حضانة !

فان ادعى أحد أيا كان أن مصر تريد ان تفرض زعامتها على العالم العربى فلنقل له : ان هذه الزعامة حقيقة واقعة ليست فى حاجة الى من يفرضها .. وما دامت هى زعامة طبيعية .. فانها تبقى دائما شرفا لا ندعيه ، وتهمة لاندفعها !

ومع أنها زعامة طبيعية ، فان لها مسئولياتها وتبعاتها ، ولها أيضا مشاكلها .. فالتاريخ يسجل أن مصر كانت ملتقى العرب ، ومجمع الاسرة ، واحيانا ملجأ وملاذا وخط دفاع اخيرا عن التراث العربى ..

« ففى العصور الوسطى حين بدأت اخطار الاندلس وقلاقل المغرب ، تدفق العلماء والصناع على مصر .. كأبن خلدون مثلا بارزا

« ومن العراق مع الطوفان المغولى وبعده ، انتقلوا بالآلاف الى مصر .. كما يقول المؤرخ فيليب حتى .

« وفي العصور الحديثة ، خاصة القرن الاخير ، كانت مصر بؤرة تستقطب موجات النازحين والمهاجرين من الشام من المثقفين والمضهدين .

وفى كل الحالات كانت مصر تلعب دور المنار للاسلام ، ودور المنبر للعروبة ..

« وهذه هى الزعامة الطبيعية فى العالم العربى .

« ولكن هذه الزعامة الطبيعية هى التى أثارت على مصر ، دائما حربا فى ميدانين :

« الاول : محاولة عزل مصر نفسها عن بقية العالم العربى .

« والثاني : تشويه تلك الزعامة والتشهير بها والتخلص منها .

« واذا بدا هذان الميدانان من المناطق الحساسة الدقيقة التى يمكن أن تنزلق فيها المناقشة ، وتنساق الى مزالق عاطفية ، فاننا نرى أن الابتعاد المتعمد عن طرح هذه القضايا الشائكة هو بعينه الذى ترك المجال للدعايات الملفقة التى تتسرب الى بعض النفوس . ولكن مع الوعى العربى الجديد ، فان المناقشة العلمية الصحيحة الرصينة على أساس الجغرافيا والتاريخ جديرة بأن تبدد كل شك مدسوس .

## لا عزل .. ولا انعزال

وسأمر مرا سريعا بما كتبه الدكتـور جمال حمدان عن محـاولة « عزل » مصر أو « انعزال » مصر ، فكلها كانت محاولات عقيمة في الماضي ، وستبقى عقيما اليوم وغدا ، وفي الامر الواقع الآن ما يغني عن قراءة هذه الصفحات التي طالعتهـا بكثير من المرارة ، دون أن أفقد الامل في أن تستقيم الامور في يوم قريب .

● فرعونية بالجد .. وعربية بالاب

فلأقتصر هنا على هذه الفقرات ، فأن لها معناها ومغزاها الان :

« وهناك من يتساءل عن السبب في اتجاه مصر الى العالم العربى الان ، بعد أن كانت منعزلة عنه ، وهل هي صدفة اتفاق مع ظهور البترول في البلاد العربية ، يريدون أن يوعزوا بأن مصر لم تتجه الى العالم العربى الا بعد أن اتخمته الثروة البترولية ، والا طمعا منها فيها .. »

« والغرض من كل هذه الاتهامات ، ليس فقط تشويه زعامة مصر ، ولكن أيضا أحكام ( عزلها ) عن العرب بتخـويفهم منها الى حـد « انعزالهم » هم عنها .

« ولا يملك العالم الموضوعي عند هذا الا ان يسـجل تناقضـا خطيرا فيما يدعونه على مصر .

« فاذا هي اقبلت على العالم العربى أتهمت بالاهداف التوسعية والاستعمارية ، والاطماع البترولية

« وأن هي تحفظت قيل انها ليست عربية أو هي انعزالية تعيش في عزلة سياسية ، وتتشبث بالاقليمية .

« والحقيقة الواضحة هي أن رجعيات البلاد العربية البترولية اليوم اشد انعزالية ، وتشبثا بالاقليمية ، بأكثر كثيرا ممـا كانت مصر في اي وقت من الاوقات . والسبب واضح ، وهو الاستـئثار بمكاسب البترول ، حتي لكأن هذا الذهب الاسود قد أتى ليجمـد حركة الوحدة في حين أنه لو كان هذا البترول قد انبثق أصلا في مصر ، بذلك المقياس ، لكانت تلك البلاد هي التي تسعى وتندفع تطلب الوحدة مع مصر »

ولأختم هذا الموضوع بعبارات بليغة وصف فيها البـاحث القدير ملامح الشخصية المصرية حين قال :

« فرعونية هى بالجد ، ولكنها عربية بالاب »

« ثم انها بجسمها النهرى قوة بر ·· ولكنها بسواحلها قوة بحر وتضع بذلك قدما فى الارض ، وقدما فى الماء ·

« وهى بجسمها النحيل ، تبدو مخلوقا أقل من قوى ·· ولكنها برسالتها التاريخية الطموح تحمل رأسا أكبر من ضخم »

« وهى على موقعها على خط التقسيم التاريخى بين الشرق والغرب تقع فى الاول ،ولكنها تواجه الثانى ،وتكاد تراه عبر البحر المتوسط»

« وكما تمد يدا نحو الشمال ، تمد الاخرى نحو الجنوب »

« وهى توشك من هذا كله أن تكون مركزا مشتركا لثلاث دوائر مختلفة ، بحيث صارت مجمعا لعوالم شتى ·

« فهى قلب العالم العربى

« وهى واسطة العالم الاسلامى

« وهى حجر الزاوية فى العالم الافريقى ·

« واذا كان لهذا كله مغزى ، فهو ليس أنها تجمع بين الاضـــداد والمتناقضات ، وانما هى تجمع بين أطراف متعددة ، وجوانب كثيرة خصبة ، وبين ابعاد وافاق واسعة بصورة تؤكد فيهـا « ملكة الحد الاوسط » ·· وتجعلها « سيدة الحلول الوسطى » ·· وتجعلها « امة وسطا » بكل معنى الكلمة ·

« أمة وسطا ، وليست أمة نصفا !

« وأمة وسطا فى الموقع والدور الحضارى والتاريخى ،فى الموارد والطاقة ، فى السياسة والحرب ، فى النظرة والتفكير ·

« ولعل فى هذه الموهبة الطبيعية سر بقـــائها وحيويتها على مر العصور ·· ورغم مر العصور ·· »

## محتويات الكتاب

## كتب باللغة العربيه عن مصر والمصرين :


١ ـ ابن الكنـــدى : فضائل مصر

٢ ـ أحمـــد أمين : قاموس العادات والتقاليد المصرية

٣ ـ أحمـد حسين : موسوعة تاريخ مصر ( أربعة اجزاء )

٤ ـ أحمد رشدى صالح: الادب الشعبى

٥ ـ الجـــبرتى :عجائب الآثار فى التراجم والاخبار

٦ ـ المقـــريزى : الخطط المقريزية

٧ ـ توفيق الحـكيم : عودة الروح

٨ ـ توفيق الحـكيم :رحلة بين عصرين

٩ ـ جامعة الاسكندرية:ابحاث فى اعادة بناء الانسان المصرى ( سلسلة من التقارير )

١٠ ـ جمال حمـــدان : شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان

١١ ـ حامد عمـــار : فى بناء البشر ، دراســـات فى التغير الحضارى والفكر التربوى

١٢ ـ حســـين فوزى : سندباد مصرى

١٣ ـ حســـين مؤنس : مصر ورسالتها

١٤ ـ ســـيد عويس : ملامح المجتمع المصرى المعاصر

١٥ ـ ســـيد عويس : حديث عن المرأة المصرية المعاصرة

١٦ ـ ســـيد عويس : الخلود فى التراث الثقافى المصرى

١٧ ـ صبحى وحيـدة : فى أصول المسألة المصرية

١٨ ـ طـه حســـين : مستقبل الثقافة فى مصر

١٩ ـ عباس محمود العقاد : سعد زغلول

٢٠ ـ عباس محمود العقاد : عمرو بن العاص

٢١ ـ عبد العزيز رفاعي: الطابع القـومى للشخصية المصرية ، بين الايجابية والسلبية

٢٢ ـ لين ، ادوارد وليم: المصريون المحدثون ، عاداتهم وشمائلهم ترجمة عدلى طاهر نور

٢٣ ـ محمد حسين هيكل: تراجم مصرية وغربية

٢٤ ـ محمد شفيق غربال : تكوين مصر

٢٥ ـ نعمات أحمد فؤاد: شخصية مصر

٢٦ ـ نعمات أحمد فؤاد: النيل فى الادب المصرى

٢٧ ـ هـنرى عيروط : الفـــــلاحون
ترجمة د ٠ محمد غلاب

٢٨ ـ هـــيردوت : هيردوت يتحدث عن مصر
ترجمة د٠ محمد صقر خفاجه
وقدم له د ٠احمد بدوى فى ثلاثة فصول

٢٩ ـ هـــيرولد ( كريستوفر ) : بونابرت فى مصر
ترجمـــة فؤاد اندراوس ومراجعـــة د ٠ محمد أحمد أنيس

٣٠ ـ وصـــف مصر : الموسوعة التى وضعها علماء الحملة الفرنسية
ترجمة الاستاذ زهير الشايب ( صدر منها ستة اجزاء )

كتاب اليوم

ثقافة اليوم وكل يوم

رئيس مجلس الإدارة :

**موسى صبري**

رئيس التحرير :

**أنيس محمد عدلي**

نائب رئيس التحرير :

**عبد العزيز عبد العليم**

مدير التحرير :

**حسين فريد**

العدد ١٨٠ — ربيع الثاني ١٤٠١ — فبراير ١٩٨١ شباط

الإدارة : أخبار اليوم ٦ شارع
الصحافة ت ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط
تلكس دولي ٩٢٢١٥ - محلي ٩٢٢٨٢

**الاشتراكات**

جمهورية مصر العربية :
قيمة الاشتراك السنوي ٣,٥٠٠ جنيه مصري

**البريد الجوي :**

دول اتحاد البريد العربي والإفريقي { ٥ جنيه مصري — ٩ دولار أمريكي أو ما يعادله

باقي دول العالم (أوربا والأمريكتين وآسيا وأستراليا) { ١٠ جنيه مصري — ١٥ دولار أمريكي أو ما يعادله

- ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور
- ترسل القيمة إلى الاشتراكات ١٣ ش الصحافة القاهرة ت ٧٤٨٨٤٤ (٥ خطوط)

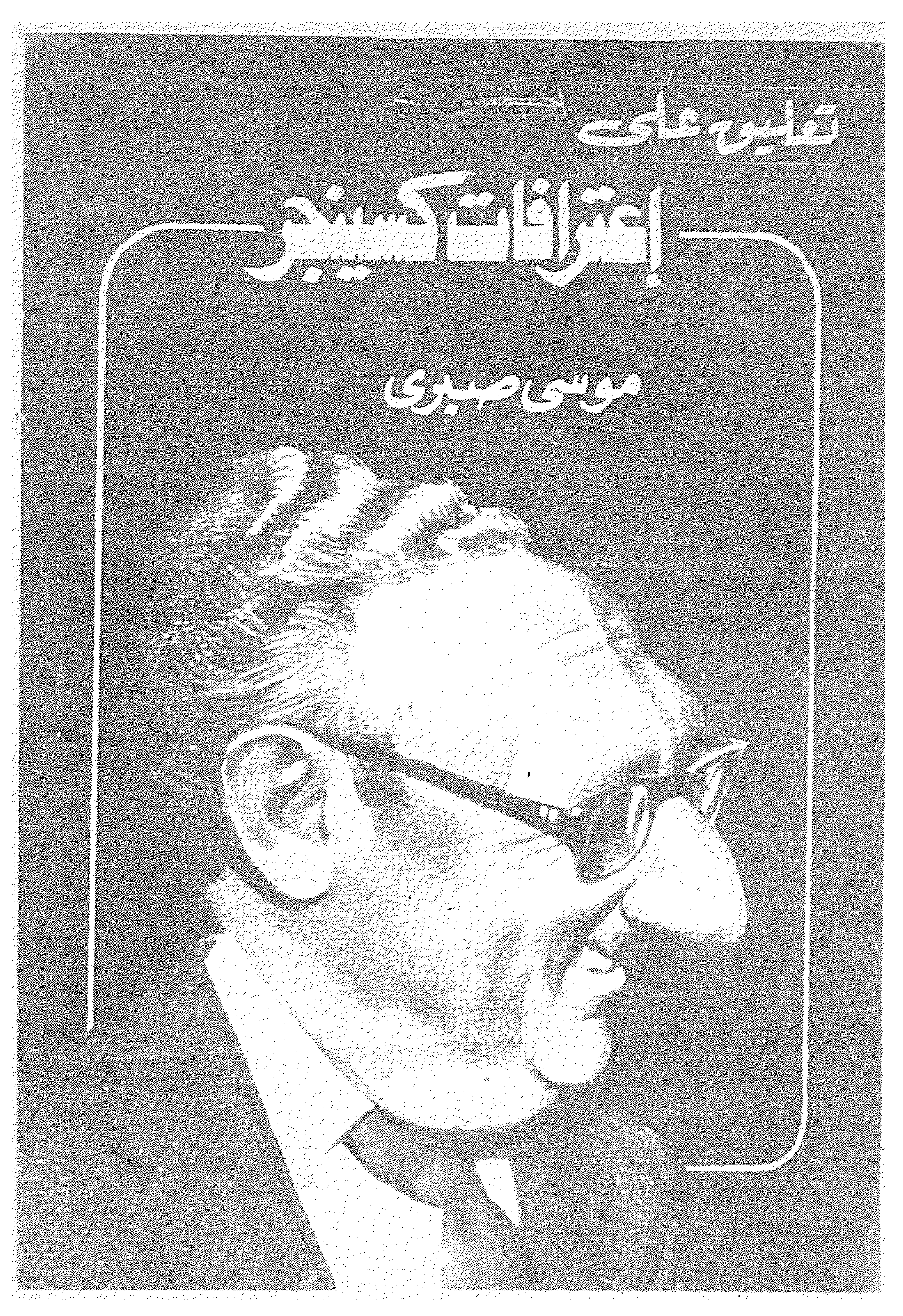
رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ١٨٧٩/٨١

الترقيم الدولي ٩٧٧-٧٣٢٧-١٥-٣ ISBN

## كتب مختارة فى الطريق الى قراء « كتاب اليوم »
## لصفوة من كبار الكتاب والادباء ..
## ومن الاقلام الشابة المرموقة فى الادب والقصة

- محمد زكي عبد القادر — كتاب جديد
- نجيب محفوظ — ثرثرة فوق النيل
- رشدى صالح — أسد البحار
- اسماعيل ولى الدين — أسوار المدابغ
- ثروت أباظة — من أقاصيص العرب
- عبد المنعم الصاوى — ليلى ولا مجنون
- فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى معجزة القرآن و٣ أجزاء معا
- الدكتور يوسف رياض ( اخصائى القلب ) كتاب جديد
- حسين القبانى — فى جنة الحب والجمال
- محمد تبارك — تاريخ وأسرار الفن المصرى
- جمال الغيطانى — نجيب محفوظ يتذكر
- عبد الفتاح رزق — النورس
- حسن محسب — المحبوبة
- عزمى أحمد لبيب — الحب داخل المدينة
- احسان كمال — أقوى حب
- فتحى أبو الفضل — مأدبة الجحيم
- فوزى عبد القادر الميلادى — عندما يأتى الربيع
- هدى جاد — لهيب الفراشات الطائرة
- عبد التواب رضوان — الاسلام والشباب
- عصام دراز — كلمة حب
- ضياء الشرقاوى — حدائق الليل
- سعيد سالم — آلهة من طين

موسى صبرى اعترافات كسينجر ( طبعة جديدة )
يصدر أول مارس




طبعة جديدة ـ اضافات جديدة ـ تصدر أول مارس

مفاجأة شبرا الجديدة

# بمعرض الجيزاوى

أحدث الأجهزة العالمية والمحلية بالنقد والتقسيط على ٢٠ شهرا

تليفزيونات . راديوهات . ثلاجات . غسالات . بوتاجازات . كريستال عصفور . ساعات

من الأفضل




٢٠٩ شارع شبرا - مبنى سينما التحرير

تليفون : ٩٤٤٦٦٢

مع تحيات
الحاج شكرى الجيزاوى



بنك قناة السويس
SUEZ CANAL BANK
S.A.E. ش.م.م

- بنك وطنى صميم مؤسس فى ظل الانفتاح الاقتصادى
- رأس المال ١٠ ملايين جنيه ، منها ٤٥ ٪ بالدولار الأمريكى
- يؤكد مصرية البنك ووطنيته تملك عدد من البنوك الوطنية وكبرى الهيئات المصرية ونخبة من المواطنين لأسهم البنك بالكامل
- يمارس البنك نشاطه بتفوق ظاهر على المستويين المحلى والعالمى من خلال الخبرة المصرفية المتميزة وشبكة من المراسلين تغطى العالم بأسره .

النشاط المصرفى للبنك

- قبول الودائع وفتح الحسابات الجارية بالعملة المحلية والأجنبية .
- منح التسهيلات الائتمانية وضمان القروض المقدمة من مصادر التمويل الأخرى .
- تمويل عمليات التجارة الخارجية ومباشرة أعمال الصرف الأجنبى .
- ادارة الأموال لحساب الغير • تأجير الخزائن لعملاء البنك • يحقق البنك لعملائه أعلى معدلات الاستثمار المتاحة فى السوق المحلية والعالمية • كما يقدم خدماته بأفضل الشروط وأيسرها

النشاط الاستثمار...

يقوم البنك ...
الدراسات ...
للمشروعات ...
كما يقوم بتأسيس ...
تشترك جدواها الا...
أو لحساب الغير أو بالا...
وأتى فى مقدمة ...
ساهم البنك فى ...
وتمويلها .

Bibliotheca Alexandrina
0659176

٤٠ قرشا